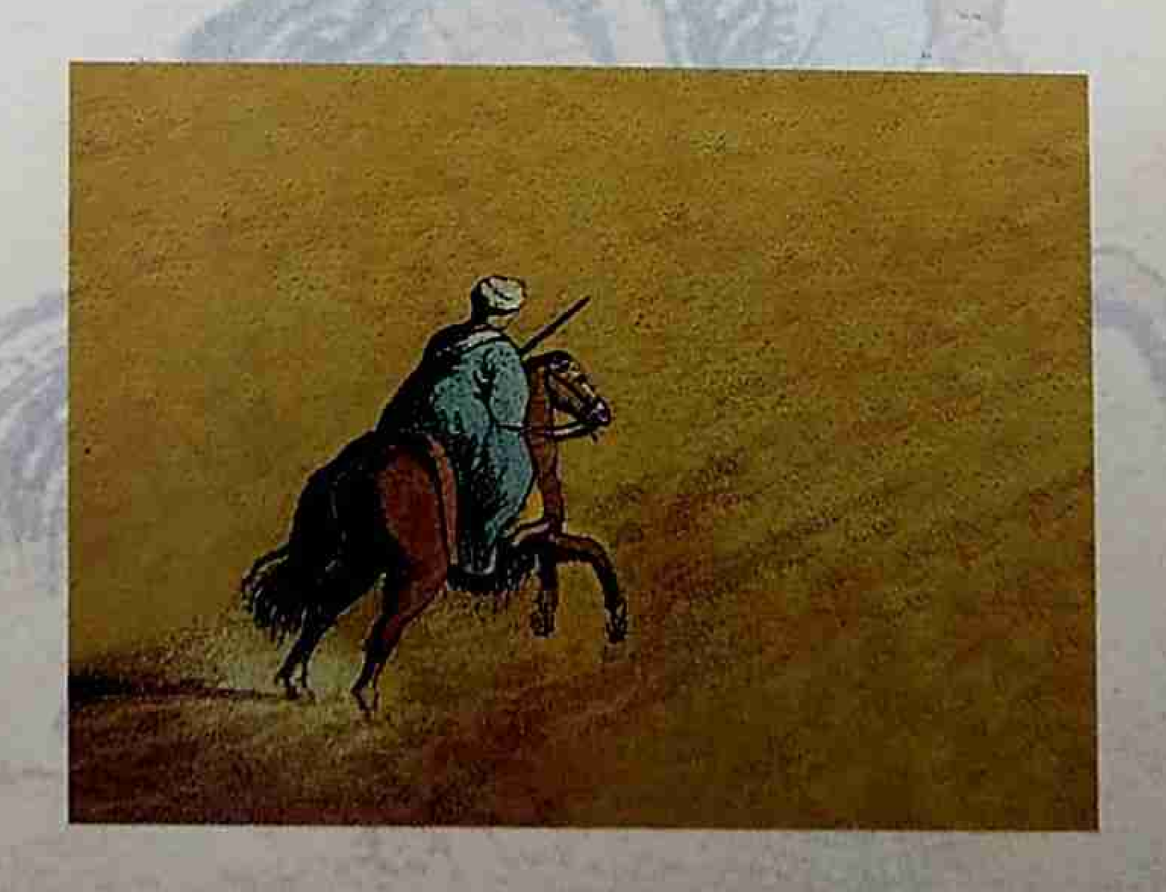
رواية

عماد الدين خليل

السيف والكلمة



المركز الثقافي العربي

السّيف والكلمة

عماد الدين خليل

الكتاب
السيف والكلمة
(رواية)
تأليف
عماد الدين خليل

الطبعة
الأولى، 2007
عدد الصفحات: 312
القياس: 14 × 21,5
الترقيم الدولي:
ISBN 9953-68-184-8

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Email: markaz@ wanadoo.net.ma

بيروت ـــ لبنان

ص.ب.: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

عماد الدين خليل

السّيف والكلمة

المركز الثقافي العربي

التاريخ كله تاريخ معاصر

الفيلسوف الإيطالي

بنيد بتوكروتشه

«1»

الوليد

تغرز الشهباء حافرها الأيمن في الأرض فيتطاير نثار بلون الذهب من تراب الصحراء.. لحظات ثم يستقر على الأرض.. ويكون الحافر الآخر قد ارتفع وشلال الرمل يتصاعد برشاقة ويمطر بهدوء.. معجوناً بشعاع الشمس.. ملتمعاً.. مغسولاً.. خطوة.. خطوة.. وأنا أتابع انغراز الحوافر الصامت وتناثر الرمال.. منطلقاً صوب الغرب.. إلى أين؟

وألتفِت ورائي.. الحافات الأخيرة للكرخ تمتص الظلمة الزاحفة من الشرق، لكن ما تلبث أن تغيب خطوطها وملامحها عن العيان، وتتحول شيئاً فشيئاً إلى كتل وتكوينات لا تفصح عن نفسها إلا بالانحناء والانكسار. واكتم زفرة تريد أن تنطلق من أسر الأعماق.. تتحرر، وتصعد في الفضاء الذي لا أول له ولا آخر، حزينة متأوهة متشكية.. ولكن هل يليق الحزن في ساعة البحث عن الخلاص؟

وارفع عيني قليلاً وأنا لا أزال ملتفتاً، شاداً العنان بهدوء كأني أريد أن أختزن في ذاكرتي آخر الخطوط المتشكلة عند حوافي بغداد، فمن يدري؟ وهل سيقدر لي أن أرجع إليها كرة أخرى؟

أرفع عيني قليلاً.. في الأفق البعيد تلتمع نجمة تبث زرقة وصفاء.. وللحظات أحس أنها تخفق.. وربما تريد أن تقول شيئاً ما.. شيئاً كونياً.. لكن ثمة ما يربطه بالأرض.. بهذا العالم.. ما الذي تسعى لأن تقوله بخفقانها الدري؟

أعود لأغذّ سيري.. ما يعزيني، والشمس تنغرز في الأفق الغربي،

فما تلبث أن تغيب، أن مظلة الليل ستحميني من ملاحقة المغول.. ما يعزيني أيضاً ان النهار آتٍ.. بعد الظلمة سيجيء النهار.. والشهباء تضرب الأرض بإيقاع متناسق

عجيب، وهو يتعامل مع دقائق الزمن والمكان فلا يكاد يخطئ في الحالين.. لكن الرمل المتطاير.. أين الرمل؟ لا ريب أنه يتناثر ويتقافز كما كان يفعل في أخريات النهار.. إنما فقط أنا الذي أضعت القدرة على الإمساك بحركته البديعة. وبدون قصد مسبق أشد على العنان، كأن ظلمة الليل القادم تناديني أن أغذ الخطى فانه ليس ثمة في جنحه العميق غير ذلك التناسب الأبدي العجيب بين الخوف والأمان.

إنهم يلاحقونني، فيما بدا يتأكد لي شيئاً فشيئاً.. مداهمتي بالقرب من دار الأستاذ عصر اليوم كانت البداية.. الإشارة المؤكدة التي تحاشيتها واحتلت عليها طويلاً.. يبدو أن الأوراق بدأت تنكشف.. ورغم إحكام كل شيء فإن الحلقة الضعيفة.. الثغرة التي خشيت دائماً أن يتسلل منها الهواء البارد، كان عبد العزيز. بذلت كل ما في وسعي لتفاديها ولكن يبدو أن هناك أموراً هي فوق طاقة الإنسان، وأن حسابات أخرى تنسج أرقامها وحيثياتها لصياغة المصير وتكون بعيدة عن مدى التبصّر والإرادة.

مهما يكن من أمر فإن عليّ الآن أن أندفع إلى الأمام.. ليس ثمة خيار آخر.. هدفي يتمركز في بؤرة واحدة: ألا أقع في قبضتهم مهما غلا الثمن وكلفني الأمر، فلست وحدي على أية حال، وقد أجر ورائي إذا وقع المحذور حشوداً من أصحابي المنتشرين في شرايين بغداد.. فها هو ذا السيف المغولي يتنزى اشتهاءً لرؤوسهم التي عرفت كيف تجعله يرتجف في أيديهم.

غداً، إن لم يكن اليوم، سيكشف الشحنة عن هويتي ولسوف يكتب منشوراً لكي يُقرأ في أحياء بغداد.. منذ أسابيع وهو يحلم بعربون يقدمه لسيده هولاكو.. بالفرصة التي تعيد التوازن إلى موقعه المهزوز.

ما أخشاه هو أن ينكشف الستر عن الأصحاب والأخوان.. أن تتسع الثغرة الملعونة لكي تطال (الأستاذ) نفسه لا قدر الله، وحينذاك يكون كل شيء قد انتهى، ولن أسمح بهذا.. لن أنزلق . رغم قوة إغراء بمغامرة مجنونة لا تحسب الحساب الدقيق للمصير الذي قد تؤول إليه. لا تفعل ذلك. تلك هي تعاليم الأستاذ.

وللحظات، عصر يوم اللعنة هذا، كان يفصلني عنها، عن أن استجيب لإغراء المغامرة والبقاء في بغداد لمجابهة المستحيل، خيط رفيع.. ان تترك أباك وأمك وأختك تحت رحمة المغول ولا تندفع لكسر اليد التي تتحفز لمسّهم بسوء، أمر فوق طاقة الإنسان. لقد اعتدت دائماً أن أتحسس مقبض سيفي في لحظات الاستفزاز، وأن أستجيب للتحدي بلمح البرق.. لكنها تعاليم الأستاذ، أقول في نفسي.. لست وحدي، ولن أكون سبباً في انكشاف الأخوة والأنصار.. في سوقهم إلى حتوفهم. أن أتعلم كيف أصير في اللحظة المناسبة كالحديد البارد.. ككتلة الثلج المتجمد منذ مئات السنين، فذلك هو المطلوب.

وعليّ أن أندفع إلى الأمام. كل فرسخ أقطعه يمنحني المزيد من الأمان، ويحمي إخواني، يعطيهم الغطاء الكافي والفترة المناسبة لتدبر الأمر.. ولكن ماذا أفعل أزاء عشق المكان؟ كيف السبيل لقطع الخيط الأخير الذي يشدني إلى بغداد؟ ماذا؟ المشاهد تتفجر قبالتي، شاخصة حية، كما لو أنها تتخلق الآن، هذه اللحظة.. نداؤها يغريني أن أتجاوز صوت الهروب والخلاص وأن أتمهّل قليلاً لمعاينتها والإنصات إليها.

ومن بين ركام المسرات والأحزان، من بين حشود الخبرات اليومية التي تشكلت على مدى ثلاثين عاماً في أزقة الكرخ وأحياء الرصافة، وتجمد بعضها متأبداً على حوافي الجسر كلقطرات الماء المتصلبة أيام الزمهرير، من بين هذا كله لا أدري لماذا أتراجع المرة تلو المرة إلى لحظة الرعب والمفاجأة تلك : شلة من فرسان المغول وهي

تكمن لي قريباً من دار الأستاذ لكي تصفي معي وربما «معه» ومع إخواني الحساب.

لم يكن رعباً خالصاً قبالة الحديد الملتمع وهو يتلمظ بحثاً عن مسيال الدم، ولكنه أكثر من الرعب.. وربما خارج دائرته.. إحساس موغل قادم من وراء تخومه القاسية.. رغبة جارفة في أن استل سيفي وأضرب، قبل أن يقع المحذور.. ولكن كيف وليس أمامي سوى جزء من لحظة كان علي أن أجمع فيها أمري وأتخذ قراري : أن أستجيب للرغبة إياها بعيداً عن كل ما قد تتمخض عنه في حسابات الخسائر والأرباح، أو أن أحاول الفرار والنجاة بنفسي قبل أن تقع عيونهم علي.. فثمة على الخط الدقيق الفاصل، والذي لا يكاد يرى، بين حافات الموت والحياة، حد كالسيف، ستكون أية خطوة غير محسوبة كفيلة بأن تشطر الإنسان وتقوده إلى الهلاك.

ولكنها، على أية حال، ليست حسابات العقل وحده، إنما هو نداء الحياة الذي تتجمع روافده في لحظات الويل، من كل مكان في كينونة الإنسان، ليس العقل سوى واحد منها فحسب.. تقول له، تأمره أن عليه أن يقوم بهذا العمل وأن يمضي بذلك الاتجاه.

وباستجابة كلحظة الحلم المتفلت من الزمان والمكان، ألوي عنق الشهباء وأغيّر المسار، كانت تتمايل متباطئة وهي تمضغ بهدوء بقايا عَلَفٍ في فمها، وكأنها تريد أن ترتشف منه أقصى ما تستطيع. لكن كان يتحتم علي أن أقطع عليها بطأها المتلذذ ذاك وأن استحثها بمهماز قاسٍ على الانطلاق.

أدركت بذكائها الفطري، أن ثمة خطراً ما، خطراً قريباً يحيق بي، قد يكون على بعد خطوات، وأن عليها أن تغير إيقاعها من النقيض إلى النقيض.

وأنا أجتاز دروب الكرخ، وأتوقف لحظات عند محلة قصر عيسى لابتياع الحاجات الضرورية من دكان صديق يهودي يدعى (يونا).. أضع

يدي على فمه لكي لا أسمح له بأن يوجه إلي أي سؤال، بينما تكاد ألف علامة تنطلق من وجهه المتجعد رغم أنه لم يتخط بعد عتبات الشباب.

ومنطلقاً بسرعة أكبر أتذكر، مرة أخرى، والنصل الحاد ينغرز في لحمي وعظامي، حتى النخاع، ما هو أكبر من كل التوقعات والحسابات، أكبر حتى من نداء القوة المجهولة التي تدفع الإنسان في لحظات الخطر، مجيّشة طاقاته كلها في بؤرة واحدة هي الفرار.. أبي الذي قد يكون رأسه ثمناً لاختفائي!

وللحظات كان ثمة شيء فوق الطاقة يضغط على رأسي. لم أستطع أن أواصل تخيل الهول النازل. ولكن كم من الوقت يقدر الإنسان خلاله على حماية نفسه من اقتحام التوقع المفجع المنصبّ كنذير السوء لكي يدمر كل الحصون التي يلجأ إليها المرء ويحتمي بها، ويجعله يقف عارياً، مرتجفاً، وحيداً، أزاء الواقعة التي تسح سوءً وحزناً؟

وعلى غير إرادة مني أشد عنان الشهباء محاولاً أن أخفّف الاندفاع غرباً.. أن أرجع بها ثانية إلى بغداد، لكنها تصهل في آخر محاولة لإعانتي على الانفكاك من أسر المجهول والتخبط في حلقته المفرغة والمترعة بكل ما يخطر وما لا يخطر على بال.

ومن أجل الإمساك بتفاصيل الصورة المشوّشة المحملة بالضباب والتي كانت مفرداتها تتأرجح في عقلي ويرتطم بعضها ببعض، كما يحدث لنافذة مفتوحة لحظة هبوب العاصفة، أتشبث بقوة الخيال، رغم ما كان يعانيه هو الآخر من التفكك والإعياء.. أبذل جهداً مضاعفاً من أجل استعادته ومنعه من الانجراف مع التيار.. ما الذي يدفع عبد العزيز إلى القتل؟ ألا يكفي أن يقودهم إلى دار الأستاذ وأن يكشفني أمامهم فيجعلهم يصدّقونه ويقرّون موقفه؟ وهل ثمة ضرورة للمضي خطوة أبعد إذا ضمن الاستئثار بحنان؟ إنها الرمية الواحدة التي تمنحه الاثنتين معاً،

فما الذي يدفعه إلى الايغال أكثر باتجاه الموت؟

وكعصفور بلله القطر البارد في لفحات الفجر الأولى، انتفض، وأجدني رغم هذه القناعة التي كافحت من أجل الإمساك بتلابيبها، قبالة ما يمكن فعلاً أن يذبح أبي.

الصورة تزداد وضوحاً، وخطوطها تزداد عمقاً شيئاً فشيئاً.. ومع انبجاس فورات الدم في الذاكرة التي تزداد هي الأخرى حدة وقدرة على ربط التفاصيل والأشياء، تماماً كما يحدث بعيد الاستيقاظ المفاجئ في الليل على صوت الألم أو الكلمة التي تنزل كالسكين، أو ـ ربما ـ الهزيمة التي لم نكن نعرف مبرراتها في زحمة النهار.. لكنها الآن، عقب الاستيقاظ المروع، تتكشف على حقيقتها فإذا بكل جزئية من جزئياتها تقول شيئاً، وإذا بالشهادات كلها تجتمع بأكبر قدر من التماسك والانسجام، وبقوة منطق ليلي مذهل في قدرته على الإيغال والكشف، لكي تعري ما كان غائباً في ساعات النهار.. مع انبجاس فورات الدم أحس بأن رجفة البرد تتحول شيئاً فشيئاً إلى حمى تتداخل في سيلها المتدفق الموجع كل المشاهدات.

وللحظات أفقد القدرة على التركيز وتتحول الرؤية التي كانت قبل قليل تعاني من الحدة، والإمكانية اللامعقولة على الكشف والتماس مع مغزى الأشياء، إلى حالة ضبابية يضيع فيها كل شيء ويشعر الإنسان إزاءها أنه يغرق وليس ثمة من يمد إليه يده لكي ينتشله من الحضيض ..

ولم يبق سوى أن أضع رأسي على عنق الشهباء، محتضناً إياها بما تبقى في ذراعي من قوة، متشبثاً بها أكثر.. وللحظة، وأنا أحدق في عينيها، أشعر بمدى الحزن الذي يفيض منهما.. وحينذاك، أقول في نفسي، لقد وقع المحذور يا شهباء.. وبنظرة مسترخية خيّل إلي - لدهشتي ـ أنها تبكي ..

«2»

حنان

عندما ننتقل إلى بيتنا الجديد المطلّ على نهر دجلة في حارة الابريين عند مدخل جسر الكرخ الأسفل، تقول لي أمي وهي تختزل ابتسامتها:

- ستكون الفرحة فرحتين

أعبّر عن دهشتي دون أن أقول شيئاً.. تدرك ذلك وتردف:

- كأنك لا تدرين !

أظل على صمتي، فيستفزّها ذلك.

- إنكن معشر البنات تعرفن كيف تتظاهرن بغير ما يدور هنا في القلب. إنكن قادرات على أن تظهرن باردات كقوالب الثلج المحمولة من الشمال، رغم اشتعال النار هناك!

تغريني لهفتها على ألاّ أبوح بشيء، أن أضمّ قبضتي على ما يعتمل في الأعماق، فأريد أن استفزها أكثر:

- لست أدري عم تتكلمين يا أماه!

ترمي بنفاد صبر آخر ورقة في جعبتها وهي تقول:

- عبد العزيز!

- ما به؟

- ذهب ضحى اليوم إلى حانوت أبيك ولمّح له حول الموضوع.

- وما علاقتي بالأمر كلّه؟ عشرات المرات وعبد العزيز يزور أبي

في دكانه.. وغير عبد العزيز، مئات آخرون.. محلاّت الورّاقين كما تعلمين ملتقى لكل المعنيين بهموم العلم والمعرفة، وهم - بحمد الله - كثيرون.

تصرّ على اختراق لا مبالاتي وكأنها تخمّن ما الذي يشتعل خلفها:

- ولكنه لمحّ له حول الموضوع.

أعرف تماماً ما الذي تريد أن تقول ولكني لست على استعداد كاف لأن أحكي لها عن كل شيء قد أحكي لها في فرصة أكثر مواتاة.. أما الآن.. ابتعد عنها خطوات باتجاه درابزين الشرفة المطلة على النهر ..

عصراً تكون الزوارق، والمراكب الصغيرة، والسميريات قد غدت على استعداد لبدء رحيلها اليومي في دجلة. بعضها ينطلق شمالاً في مواجهة التيار صوب الجسر الأعلى والمسناة الناصرية والإمام الأعظم.. بعضها الآخر ينساب جنوباً باتجاه قصر التاج ودار طراد الزينبي، مختزناً طاقة راكبيه لحين العودة. والأطفال يتقافزون فرحاً، والنسوة ينقلن المتاع، والشبّان يتصايحون نزقاً ونفاد صبر. أما الرجال الأكثر تقدماً في العمر فإنهم على استعداد دائماً للمزيد من الانتظار. لقد تعلموا الصبر من دورة الزمن الرتيب.

وبهتافات الفرح والمسرّة يبدأ المهرجان اليومي الذي تمتد بداياته الأولى إلى عهد الرشيد.. تنطلق المراكب والزوارق والزبازب والسميريات كل في اتجاه. وللحظات، كما لو أن يداً نثرت على صفحة النهر أكداساً من الأزهار، تبدو دجلة وقد تزيّنت بألف لون ولون.. تخفق بالمسرّة هي الأخرى، فتداعب المراكب والسميريات.. حيناً تقذف حافاتها برشقات الماء وحيناً بأرجحتها ذات اليمين وذات الشمال، فما يزداد الناس إلاّ فرحاً وتقافزاً وصراخاً.. أنسى كل هواجسي وهمومي وأغرق معهم في مواسم الفرح هذه.

لقد عرفت يا أبي كيف تختار بيتك في هذا المكان الجميل، بعد عشرين عاماً من التخبّط في أزقة الكرخ والرصافة والتنقّل في الحارات. ها قد انتهى بنا المطاف أخيراً إلى ما كنت تحلم به منذ سنين ..

أمي تيأس من كسر القفل المحكم والدخول إلى حنايا الفؤاد فتتركني وتدخل البيت. ومواكب البغداديين تمضي بعيداً فلا يكاد يرى منها إلاّ أضواء المسارح والقناديل والشموع وهي تنقدح بين لحظة وأخرى استعداداً لزحف الظلام. وبقايا أصوات تجيء من هنا وهناك لا يكاد يُفقه منها شيء وأنا ـ في صمتي ـ أقف وحيدة في مواجهة السؤال الذي يحيّرني.

تناديني أمي مرة ومرتين فلا أرد عليها، كأن صوتاً آخر يفوق كل قدرتي على الردّ، يأسرني ويستبقيني.

هذا العالم الآمن السعيد.. هذه الدنيا العامرة بالبهجة والفرح.. هل يقدّر لهما الدوام؟ وإلى متى؟ وتنتابني قشعريرة أرتجف لها قليلاً.. أحاول أن أضلّلها فأردّها إلى نسمات النهر الشرقية التي أخذت تلفح وجهي مع بدايات الليل. ولكن اللعبة لم تنطل عليها، فترشقني كرة أخرى في محاولة لتأكيد وجودها. ها هي ذي تنبعث من الداخل، أتراه الخوف من المجهول؟

أحاول أن انتزع نفسي من الهاجس الملحّ، أن أعود ثانية إلى البيت وأمي ودجلة والمراكب والناس.. أن أنتمي كما الآخرون تماماً إلى سطح العالم السعيد، الهادئ الآمن، وأنا أحياه طولاً وعرضاً، ولكن البعد الثالث يشدّني دائماً إليه ويستبقيني في تياره الآسر كحلم ملحّ يجد الإنسان، بعد محاولات مضنية، ألاّ جدوى من الاستسلام لسيله المتدفق.

إن الخليفة نفسه لا يكترث، وهو لا يزال يعيش طول الحياة وعرضها، لا يزال سعيداً، وأنت يا حنان كأنك تحملين همّ الدنيا على

رأسك.. ما الذي سيحدث؟ إنه مجرد خبر قد يصدق وقد يكذب. وقد لا تكون المسألة كلّها في أقصى حالات الشؤم، أكثر من هجمة موقوتة، أو حرب بين الخلاقة وخصومها، وبعدها تتلاشى الهجمة وتكفّ الحرب كعشرات، بل مئات غيرها. والذي يبقى هو الحصن الذي تجذّر في الأرض على مدى يزيد عن القرون الخمسة. والذي يبقى - أيضاً - هو فرح الناس ولعب الأطفال وعبث الصبية وكدح الآباء وحنان الأمهات.. الذي يبقى هو هذا المهرجان اليومي للبهجة والمسرّات.. استقبال الفجر الذي يطل على بغداد بألف وعد ووعد، ووداع الغروب الذي يلفّ دروبها وحاراتها وأسواقها بردائه الليلي الأملس فيدفئها ويحميها.

ولكنهم قادمون.. يعود الهاجس لكي يستفزني كرة أخرى. فهذه المرة، هدر صوته في أعماقي، ليس ككل المرات ..

استعيذ بالله، وأحصّن روحي بكلماته، ليس ثمة إلاّك عندما يجتاحنا الخوف. أنت الفرح حينما يحاصرنا الحزن، والأمن حينما يتوعدّنا الرعب. هكذا علّمني أبي. ولقد جرّبت ذلك كثيراً ونجحت في الاختبار! ولطالما قال أبي لضيوفه وأصدقائه: إن المؤمن الحق لا يحزن ولا يخاف. وكانوا يتساءلون دائماً: كيف؟ فيكون جوابه: إنه فوق الحزن والخوف. ويعود السؤال الملحّ: كيف؟ فيجيء الجواب المطمئن كما لو أنه منظور يراه أبي ويلمسه: الحزن والخوف حالتان عابرتان. ثمة سبب هنا وهاجس هناك. هذا يفجر حزناً وذاك يثير خوفاً، فإذا أنت استطعت أن توقف الهواجس والأسباب، أن تشلّ قدرتها على الفعل والامتداد، إن قدرت على الانفكاك من أسرها تجاوزت المخاوف والأحزان. ولن يكون ذلك إلاّ بالإيمان.. بقوة الروح.. إنها الحالة الوحيدة الباقية الدائمة القادرة على الامتداد طولاً وعرضاً وعمقاً.. كل شيء زائل إلاّ هذا. وازاء ذلك يبدو الإيمان هو الحقيقة

الوحيدة الباقية وما عداها فظنون وظلال. ومن أجل ذلك كان المؤمنون في العالم الوحيدين الذين لا يخافون ولا يحزنون.

يبتسم أبي ابتسامته الهادئة المديدة التي تظلّل وجهه بالضوء، وهو يرى السؤال لا يزال معلقاً على ملامح ضيوفه وأصدقائه.. ولكن أي إيمان هذا؟ ثم ما يلبث أن يردّد بينه وبين نفسه كلماته التي طالما ردّدها وكأنه يتلقاها من مكان بعيد: «أنت مني، أنت تليني، وكل شيء في الوجود يأتي بعدك. لا شيء يقدر عليك. إذا عرفت مقامك فأنت أقوى من الأرض والسماء، أقوى من الحروف والأسماء». وحينذاك فقط يدركون أن هناك فئة من الرجال ليست ككل الفئات، وأن ثمة في موازاتها طبقة في وجدان الناس ليست كالطبقات، وأن التعامل مع العالم لدى هذه الفئة وعبر تلك الطبقة المغيّبة البعيدة، هو الذي يفعل الأفاعيل، هو الذي يجعل الإيمان قادراً على وقف الأحزان والمخاوف والآلام والمرارات.. وحينذاك ـ فقط ـ يكفّون عن السؤال.

أدلف إلى فناء البيت.. لم يبق على عودة أبي من حانوته سوى نصف ساعة، أو ربما أقلّ. ورغم أن الدفء يغمر المكان إلاّ أنني أحسّ بلفح البرد يسري في أوصالي.

بيتنا ليس كبيراً ولا متميزاً بتصميمه عن الدور الأخرى في الحيّ، ولكنه حديث عهد بالبناء، لم يزل آجره المغطى بالكلس رطباً ندياً، وهو رغم خلوّه من الحديقة التي تمنحنا الظلال والرياحين والثمار، كما هو الحال في العديد من الدور المجاورة، فإن ما يعوّضنا عنها السرداب الرطب الذي نأوي إليه في ظهيرات بغداد القائظة.. يطل على النهر، وهذا هو المهم، في واحدة من أجمل بقاع الكرخ وأكثرها انفتاحاً وقرباً من الجسر.. المدخل المسقوف الذي يفضي إلى الفناء الرئيسي المكشوف.. الغرف التي تتوزع على أطراف الفناء. وثمة الرواق المظلل بالخشب المنقوش والذي تسنده ثلاثة أعمدة مطلية باللون الأخضر

الفاقع ومتصلة في جهاتها العليا بتيجان بديعة الصنع، وقناديل موزعة بعناية لإنارة الفناء في الليل.. الغرفة العلوية اليمنى التي احتجزها لنفسي تفضي إلى شرفة صغيرة تطلّ على النهر، ويعرف كل من يقف فيها كيف تكون بهجة الشروق وكيف تتلقاها الرصافة عبر الجهة الأخرى من دجلة.. هنا حيث يتاح لي أكثر من الطارمة الأرضية الواسعة المتصلة بالفناء المكشوف أن أخلو إلى نفسي، وأن أمارس متعتي الغالية: القراءة التي تعرّش في حنايا عقلي ووجداني، ليس فقط لأن أبي يملك حانوتاً للوراقة في سوق الكتب، ولكن لأنه هو الآخر قارئ ممتاز تجري الكلمة في عروقه.

وأتساءل، وأنا أصعد إلى غرفتي في الدقائق الفاصلة التي تسبق عودته: ترى أليس من الأفضل أن أطيّب خاطر أمي بعد إذ تعاملت معها بشيء من النكران والجفاء؟

أنزل مسرعة إلى المطبخ الذي يقبع في الفناء قريباً من البئر، حيث كانت تعدّ العشاء. تفغمني رائحة القطائف المحشوة باللوز والسكّر وهي تتشرب دهن الجوز في المقلاة بهدوء.. يفاجؤني أخي وهو يختطف إحدى القطائف بعيداً عن رقابة أميّ المنهمكة بإعداد الأطباق.. ينفخ عليها ينقّلها بسرعة ورشاقة بين يديه علّها تبرد قليلاً قبل أن يلتهمها.. أصرخ، فرحة بعودته قبل العشاء، على خلاف المعتاد ..

ـ سوف تراك!

تلتفت متسائلة:

ـ ما الذي يجري أيها الأولاد؟

أقول لها متحرّشة به:

ـ انظري، سوف تنفد القطائف قبل أن يصل أبي ..

بنظرة حنان توزّعها مناصفة بيننا تقول:

ـ إذا وعدني أخوك بالعودة في مثل هذا الوقت مساء كل يوم فله

أن يلتهم المقلاة كلها وألا يترك قطعة واحدة ..

يجيب الوليد وهو لا يزال يزدرد قطعة أكبر من قدرته على استيعابها :

ـ إنك تعرفين كيف أن الوقت لم يعد ملكي وبالتالي فإنه ليس بمقدوري أن أعدك، ولكنني سأحاول.. هات قطعة أخرى فإن الجوع يفري معدتي ..

تشير إلى المائدة المتواضعة وسط المطبخ والتي لا تكاد ترتفع عن الأرض إلا قليلاً :

ـ ها هي ذي أمامك فخذ منها ما تشاء.. و.. أقاطعها :

ـ وأبي؟

ـ إنه كما تعرفين لم يعد يحب الحلويات الدسمة، أصبح يفضل عليها المهلبّية أو العصيدة.. إن للزمن أحكامه ..

وأقول في نفسي: ها هو ذا أبي يشيخ، رغم أن روحه تحدّت المستحيل وتجاوزت حصار الزمن، وتقلبّات الليل والنهار.. شابة تظل روحك يا أبي، والعنفوان الذي يضطرب في جنباتها يخيّل للمرء أن الإنسان لم يخلق لكي يموت، وأن الأشياء كلها تشيخ: التاريخ والعالم والدول والإمبراطوريات والوجود والمطامح والأحلام.. كلها تهرم وتتآكل وتدلف إلى الفناء.. لكن الإنسان يعرف كيف يتحصّن ازاء التبدّلات، كيف يعلو على التغيّرات التي تأخذ بتلابيب الدنيا ..

ولست أدري لم أتذكر بغداد، ونذر الفناء التي تطل كالشؤم من الأفق الشرقي.. تلوّح لها من بعيد.. تدوّم في سمائها القريبة متوعدة بالويل وأقول: أليست هي، كما الأحداث والأشياء، محكومة بالتاريخ؟ بالنذير الإلهي الذي يتعاشق مع كل ذرة في هذا الوجود فيصيّره، بعد الزهو والاخضرار، متيبّساً، ثم يجعله حطاماً؟

أستعيذ بالله، وأنا أتلقى رشقة من الحزن الآتي ـ لا أدري ـ من

أين؟ وأتحصّن مرة أخرى بأبي.. بقوة روحه، وبنظرته المطمئنة التي تعلو على ما هو كائن من أجل التشبثّ بما سيكون.. تنفصل عن كل ما هو زائل فانٍ، لكي تظل معلقة بالوعد القادم من فوق.. وهو، على أية حال، ليس كالوعود.. إنه يعرف كيف يجابه هموم الدنيا ويمنح الإنسان السكينة والأمن والفرح والرضا ..

يكفي أنه يجرّد حيثياته من كل الأسباب في هذا العالم ويمحضها لله!

«3»

عبد العزيز

اجتاز جسر الكرخ ميمماً وجهي صوب المستنصرية التي تمتد إلى الشمال منه عند الضفة الأخرى، مشرفة على دجلة بمعمارها الشاهق ذي الأدوار العالية والأقواس الفارهة والأروقة الطويلة والأواوين العملاقة والواجهات المدهشة بزخارفها الهندسية والنباتية التي تتأبى على الصمت والفراغ.

إنها رحلة كل يوم.. منذ أكثر من ست سنوات وأنا أبكّر في النهوض كي أتناول فطوري على عجل والحق دروس شيوخي هناك.. استيقظ وأهلي بعد نائمون. وبقدر ما أجد انتزاع نفسي من دفء النوم صعباً قاسياً، أجد في الدروس العزاء والسلوان.. معها أنسى البرد والحرّ والمشقّة وهجران المنام. ليست كلها، إذا أردتُ الحق، فبعضها ما كان يهمني أبداً. أتلقّاه كعبء ثقيل. ولكن دروس التفسير والأصول والمنطق واللغة والبلاغة والفلسفة.. الفلسفة بالذات، تأسرني.. شيوخها الكبار الذين يصعب على المرء.. بل يغدو مستحيلاً.. أن يلاحق ايماضات عقولهم التي تستمد شعاعها من مكان ما في الكون، بعيد، لا تطاله الأماني والأحلام. ولطالما دهشت لهم وهم يجمعون بين عمق المعرفة ورهافة الإحساس. وكنت دائماً أقول لأصحابي أن شيوخي هؤلاء يعرفون كيف يجعلون المعادلات والجداول والأرقام تقول شعراً. أتراها قراءاتهم التي كلّت لها أعينهم وذوت أجسادهم؟ أتراه العصر

نفسه الذي يتحول العلماء فيه إلى فرسان ينازل بعضهم بعضاً في حلبات التدريس والتأليف؟ فمن لا يعرف كيف يقاتل يضيع؟ أن تكون عملاقاً فهذا هو السبيل الوحيد لكي تأخذ مكانك في الساحة ويشار إليك بالبنان، أو فاخرج من الحلبة وأبحث لك عن عمل.. أي عمل سوى العلم، وإلاّ أصبحت ظلاً لمن هم أطول قامة منك وأشد ذراعاً.

أملك طموحاً يبلغ حافات الهوس، أن أصير واحداً منهم، أن أتحدى المستحيل لكي أصير واحداً منهم. ألف إحساس يجتاحني وأنا أتعامل مع الكلمة عندما يقولها الأستاذ أو عندما أقرؤها في كتاب. والنداء ذاته يتردّد في جنبات نفسي بالإلحاح الممض والعذب الذي ما خفّت حدته يوماً.. أن أصير واحداً من هؤلاء.

يخيّل إلي، ولعل هذا ما يشعل الفتيل في نفسي، أنهم رغم معاناتهم، سعداء سعادة من نوع خاص يصعب وصفه، لأنها لا تقاس بالطول والعرض والارتفاع. ومن عجب أنني كلما أرى الواحد منهم يذوي ويزداد نحولاً.. كلما ألمحه وهو يفقد قدرته على الإبصار شيئاً فشيئاً.. كلما أعاين شعره الأسود الفاحم يفيض بالضوء ويشتعل شيباً، أدرك أنهم، بتجرّدهم الكامل للعلم، بفنائهم فيه، قد نسوا، كما المتصوفة تماماً، ذواتهم وذابوا وجداً في المحبة.. إنه ليس العقل وحده ها هنا: المجرّب والمتذوّق والمحبوب، ولكنه الوجدان البشري، كينونة الإنسان كلّها هي التي تتعلّم، وتقرأ، وتعرف، وتقول، وتحلّل، وتصير.. إنها المعرفة الصافية النقية المتألقة كالبلّور الخالية من كل كدر أو شائبة والمحمولة إلى الإنسان بقوة الكلمة.

من عجب، أنني ما أن أرى ذلك، وألمسه، وأنا أتلقى دروسهم وأتعامل معهم، داخل المدرسة وخارجها، أزداد تشبثاً بالهاجس الملحّ الذي يكاد يفترس حياتي المعتادة ويأتي عليها من القواعد. واقول في نفسي: لا بأس، فإنه الممر الصعب الذي لابدّ من اجتيازه، وبعدها

يكون التحرّر والانفلات حيث لا شيء سوى الكلمة.. ويومها، وحين تنسحب كل مواضعات الناس العاديين إلى الظل، حين يصير النوم والطعام والشراب ضرورات فحسب لا تتجاوز حدودها الضيقة المرسومة لها، سيكون التحرّر من الأسر، والعقل وحده سيكون المطاع، ولن يصبح، بعدها، للمطالب الدنيا أيما قدرة على الأمر والنهي. فالكلمة يومها هي التي تطعم وتسقي، وتسخو بالملذات!

أعبر الجسر على عجل، متمنّياً للحظات أن اجتاز درب دينار الصغير وأن أتحوّل قليلاً إلى اليمين لكي أدخل مطعماً شعبياً هناك اشتهر بهريسته اللذيذة، فآكل كما يأكل الناس، ولكنني ما ألبث أن أتراجع خشية أن يسرقني الوقت وأن تفوتني الدقائق الأولى من دروس الشيوخ!! لكأن تلك الدقائق هي المفاتيح، عبرها يقول الشيح ما تنفتح به المغاليق، وأحياناً يزداد رتاجها إحكاماً فيكون ذلك أشبه بالتحدّي الذي يدفعنا نحن الطلبة الجادّون، المندهشون، لفك الطلاسم وكسر الألغاز.. الدقائق الأولى طقوس صوفية في ساحات العقل، وما لم تأخذ منها نصيبك وتعرف بدءها كما يحدّده الشيخ، فلن تصل أبداً ..

ولطالما جرّبت بنفسي بعيداً عن المستنصرية وشيوخها وأروقتها، جرّبت أن أتعامل مع هذه الآية الكريمة أو تلك، مع هذا المقطع من شعر المتنبّي وأبي تمام والبحتري وأبي العتاهية أو ذاك.. مع هذه الكلمة العربية أو تلك.. مع هذه المفردة أو التركيب البلاغي العذب أو ذاك.. فما اكتشفت على كثرة قراءاتي سوى جوانب محدودة مما تريد أن تقوله.. ثم، إذا بي بين يدي الشيوخ تتفتح أمامي المغاليق، وأشعر أنني أملك حضوراً، أنا الآخر، وأن بمقدوري أن أشاركهم لذة الكشف عن المغزى، والتلذّذ بالمذاقات، والايغال في المجاهيل.

وابتسم بيني وبين نفسي بشيء من السخرية، وأتساءل، وأنا أتردّد لحظات، بمجرد عبوري الجسر قبل أن انعطف شمالاً لكي أدلف إلى

البناء الكبير: هل سيقدّر لك ان تأكل الهريسة، أو الرؤوس والأكارع يوماً كما يأكلها الناس؟ وأعزّي نفسي، ولعلّي أخدعها، لا أدري، بأنهم متواضعون أكثر مما يجب، ولعلّ ملذات تافهة كهذه هي أقصى ما يشتهون.. أما أنت فإن أمامك صنوفاً من الطعام ليست كهذه الصنوف ومذاقاً ليس كالمذاقات.

أسمعتم عن إنسان يذوب وجداً في ساحة العلم؟ أنا هو ـ إذن ـ ذلك الإنسان الذي يكافح لكي يعلو على النداءات الصغيرة من أجل أن يصير شيئاً وأن يقول الناس: ها هو ذا الأستاذ!

وأغذّ السير، مباعداً بين خطواتي، ليس من أجل الوصول إلى قاعة الدرس هذه المرة ولكنه الهروب من الهاجس الذي طالما عذّبني.. يجلس إلى جواري، في الساعات الأولى، بين الحين والحين، شاب مثلي في منتصف العشرينيات من عمره، يدعى الوليد.. لا أدري كيف تأسرني حيويته الفائقة.. مثلي تماماً، يبكر في الحضور، ولا يدع درساً واحداً يفوته مهما كانت الظروف. عبر لقاءاتنا المتكررة في قاعات الدرس وأروقته صدرت عنه عبارة لم أرتح لها. قال: ليس العلم هو كل شيء يا عبد العزيز. التفتّ إليه دهشاً وكأنه قد اخترق قدسية الأشياء، فقال بهدوء: هناك مع العلم أمورٌ أخرى لا تقل أهمية. يومها عدت إلى البيت قلقاً حزيناً، ليس لأن الوليد هزّ قناعاتي، أبداً، فما هي من النوع الذي يهتز بهذه السهولة، وهي تنام وتستيقظ وتأكل وتشرب معي، ولكن لأنني خشيت أن أفقد الوليد وقد اعتزمت أن اتخذه صديقاً.

كان يجلس إلى جواري، ويوماً بعد يوم أزداد اقتناعاً بأن هذا بالذات هو ما أبحث عنه. إن الوحدة مطلوبة والعزلة مغرية، ولكنهما إذا تجاوزتا حدودهما المعقولة انقلبتا مللاً وتشتتاً. وحياة العلم كالطعام، فإذا لم ينقدح فيها العقل بالعقل، وينسرب في شرايينها ملح الصداقة والألفة والمحبة، فإنها تفقد مذاقها.

يصير الوليد بمرور الوقت هو الملح الذي يمنح حياتي طعماً

أشهى.. أجد فيه ما افتقده دائماً في نفسي، بعبارة أخرى، ما أرغم نفسي على التخلّي عنه: إنه مع الكلمة، وبموازاتها، يمكن أن يحيا الإنسان! لكن هذا لا يزحزحني شعرة واحدة عن مساري، بل لعله يزيده عمقاً ووضوحاً. فأن تكون وحدك منطوياً على قناعاتك الموغلة حتى النخاع، قد لا تدرك الملمح الذي تتشكل به كما لو وقفت قبالة الآخرين.. واحداً متميزاً عن الآخرين وعنك، يمكن أن يكون مثلاً مغايراً. إن هذا لن يعمّق الخطوط التي ترسم شخصيتك فحسب، ولكنه سيزيدها تميّزاً وتشبثاً. وهكذا، وبمرور الوقت أجدني في حاجة أكثر فأكثر إلى الوليد.. وسرعان ما تصير لقاءاتنا جدلاً متواصلاً لكنه جدل عذب لذيذ، كنت أرثي، وأنا ارتشف كأسه حتى الثمالة لأولئك الذين ارتضوا أكل الهريسة والأكارع والرؤوس على مقاعد المطعم المتواضع في درب دينار الصغير المجاور للمستنصرية. كنت أرثي حتى لأبي وأمي وأخوتي الذين يعيشون كما يعيش الناس.. ينامون ويستيقظون ويأكلون ويشربون.. والوليد يصبح كحجر القدح الذي يشعل النار في الأشياء الجافة. إنه يتفجّر حيوية. يطلب العلم؟ نعم. يعيش معادلات العقل ويندفع في مساراته الموغلة؟ بكل تأكيد، لكنه لا يكتفي بذلك، ويردّد: إن علينا أن نمنح حياتنا طعوماً ومذاقات أخرى، فالنداءات كثيرة يا عبد العزيز وكل عذب حلال! ثم ما يلبث أن يغمز بعينه ويقول متحدياً:

ـ سأرغمك عصر اليوم على اصطحابي إلى سباق الخيل عند باب كلواذى قريباً من بساتين النخيل. سترى صديقك كيف يرمي من بعيد فيصيب الهدف وكيف يمارس ألعاب الفروسية ويكتسح خصومه.

يضحك بنشوة غامرة ويضيف:

ـ إنك لم تر الشهباء بعد، فلست وحدي الذي يكسب الجولة في كل مرة على أية حال، ولن أكون وفياً معها إن نسيت إصرارها العجيب على الفوز! ولسوف ترى.

أحاول أن استفزّه:

ـ لا يعوزك سوى أن تمارس اللعب بالطيور.. إنه الهواية المفضّلة هذه الأيام!

يجيبني بأريحية:

ـ أما هذه.. فلا

أهم بالكلام، فيقول مرة أخرى:

ـ النداءات كثيرة يا عبد العزيز.. وكل عذب حلال

ـ ولكن ليس على حساب المعرفة!

ـ الخبرات الأخرى جهد معرفي بمعنى من المعاني

ـ أبداً.. فإن أية لحظة توظف في سبيل غير سبيلها هي نوع من البذر.. من الابتزاز، وحياتنا المحدودة لا تحتمل البذر والابتزاز ..

ـ إنك ترى.. فها أنني وآخرين غيري، من طلبة المستنصرية يتعلمون ما فيه الكفاية، بل إن بعضهم يوغل في تخصّصه حتى يصير حجة فيه وعلما، ولكنهم ما نسوا أشواق الروح، بل ـ وأرجو الاّ تنفعل ـ لم يهملوا مطالب الحسّ والوجدان.. إنني لا أستطيع أن أتصوّر حياة تخلو من الفروسية والرمي واللعب بالجوكان ..

أقاطعه متمّماً بنبرة ساخرة:

ـ والسباحة والمصارعة والشطرنج!

ودون أن يكترث لنبرتي يجيب بحماس:

ـ هذه أيضاً.. لمَ لا؟

ـ العمر لا يتّسع لهذا كله.. إما هذا أو ذاك. أتذكر يوم أرغمتني على أكل الهريسة؟ جررتني جرّاً عبر الشارع الضيّق لندخل الدكان ونتناول الوجبة.. لن أكتمك: انني لم أستسغ لها طعماً. كنتُ وأنا أزدرد اللقيمات أفكر في معضلة لغوية كلّفني شيخي بأن آتيه بحلّها

صبيحة اليوم نفسه.. لم أكن أنا الذي آكل وانما عقلي وهو يتعامل مع أصول الكلمات وتصريفاتها والأفعال المنصبّة عليها.. فأين هي ملذّات الحسّ؟

ـ لا تبالغ يا رجل، فان الإنسان العاقل هو الذي يعرف كيف يوفّق بين وجباته ومعضلاته.. أكل الهريسة يا عبد العزيز لا يمنع من التفرّغ لخصائص إبن جنّي ولا التلذّذ باستنتاجات الجرجاني البلاغية في نظم الكلمات.

يضحك الوليد كثيراً كأنه يريد أن يبعدنا قليلاً عن حلبة النزال.. إنه يعرفني جيدا. لا أملّ من الجدل ساعات طوال، ولكن قدرته على إخراجي من الحلبة تملك فعلاً سحريا.. لقد أحببت صديقي الوليد، وأسرتني محبته النقّية كالبلّور فلم أعد أستطيع أن أعصي له أمرا.. ولكن هذا لم يكن، ولن يكون أبداً على حساب قناعاتي الخاصة.. إنه ملكوت العقل والعلم والمعرفة، وكل ما يضيفه الوليد فلن يكون أكثر من الملح الذي يمنح حياتي طعما ..

«4»

سليمان

استأذن الزائرين وأغلق الدكان وأيمّم مشرّقاً شطر جامع الشيخ عبد القادر الجيلاني.. في رحابه أجد العزاء والسلوى.. أنسى هموم البيت والأولاد.. أتجاوز كدح الحياة الدنيا وأتلقى دفقات من أفراح الروح وأهتف: «زجّ بي في الأنوار»! وأسمعه ينقل عن شيوخه كما لو كان قبالتي، خطاب الله لعباده المقرّبين، فأزداد انفكاكاً من الأسر وأنطلق رشيقاً متخففا من كل قوى الشدّ، إلى فوق: «يا عبد أنت لا تملك إلاّ ما ملكتك. لا تملك نفسك فأنا خالقها. ولا تملك جسدك فانا سوّيته وأنت بي تقوم وبكلمتي جئت إلى الدنيا. يا عبد قل: لا إله إلا الله ثم استقم فلا إله إلاّ أنا، ولا وجود حق إلاّ لي، وكل ما سواي مني، من صنع يدي ومن نفخة روحي. يا عبد كل شيء لي فلا تنازعني مالي. رُدَّ كل شيء إليّ أثمّره بيدي وأزيد فيه بكرمي. أسْلِم اليّ كل شيء تَسْلَم من كل شيء».

ومنذ بدأت الشائعات المقلقة تغزو بغداد، حاملة على جناحيها الأسودين شؤم المجهول، وأنا أتشبث أكثر بأذيال الشيخ الذي استعلى على منغّصات الخوف والحزن والألم، وصعّد في المراقي.. ما أعذب كلماتك يا عبد القادر وهي تتدفق كالشلال في الوجدان، ممطرة المن والسلوى، متدفقة باللبن والعسل والخمر المصفّى.. ما أروع كلماتك أيها الباز الاشهب وأنت تنقل عن شيوخك: «يا عبد، ليس بيني وبينك

بين. أنا أقرب اليك من نفسك. أنا أقرب اليك من نطقك، فانظر الي فإني أحب أن انظر اليك!».

لم يعد سوق الكتب كما كان قبل سنين يا شيخي، وأنا لم أعد أطيق البقاء فيه طويلا. طالبو الكتب والأسفار يقلّون يوما بعد يوم والزوّار يزدادون عددا، يجيئون إلى الدكان وهم يحملون الهاجس نفسه: ما الذي ستشهده بغداد؟ ويتوجهون بالسؤال الواحد الذي أخذ يحاصرني ويضيّق عليّ الخناق: متى سيجيء النمل الأسود فيعتصر التين والزيتون؟ لا أكتمك القول إن صبري يوشك أحياناً على النفاد، وإني أجتاز بين الحين والحين حالة لا أعتقد إلاّ أنك تعاتبني عليها، ولعلّ عتابك الذي أخشاه يتحول إلى غضب قد ينوء به ظهري. إنني أتمنى - أحياناً - أن تتحول الشائعات إلى حقيقة وأن أشهد بأم عيني زحف الجراد القادم من الشرق لكي أعرف تماما ما الذي سيأتي عليه! أن تخاف المجهول.. أن تذهب بك الوساوس إلى حافات الهول، أمرّ على النفس من وقوع الهول نفسه.. ها هنا يعاني الإنسان لحظات من عمر الزمن ثم يتضح كل شيء، يتكشف المصير على مداه. أما هناك، ساعة الانتظار المعلّق بين السماء والأرض، فان حركة الزمان تتوقف، ولن يكون معها، لن يكون قبلها أو بعدها أيما شيء سوى الانتظار. بل إنه ليس ثمة قبل وبعد. انها اللحظة الواحدة التي تعيد نفسها كالمطرقة نزولاً وصعودا.. كناقوط الماء الذي اذا ما ركزت حواسك عنده أصبت بالانهيار!

السماح السماح يا شيخي.. لقد قرأتُ كتبك كلها وعشت كلماتك حرفاً حرفا.. وأنا أعرف جيدا ما أردتُ أن تقوله. إن مغزى مصنفاتك كلها، وجوهر تعابيرك المشتعلة كالجمر كان يرسم كلمتين أردت بهما أن تحرّرنا وأن تمضي بنا خفافاً ونحن نتلقى دفء التعاليم: لا تحزنوا! فما ثمة في عالم الفناء ما يدعو للحزن.. لا تخافوا، فالذي يأوي الى كنف الله.. ممّ يخاف؟ «أنت مني، أنت تليني، وكل شيء في الوجود

يأتي بعدك. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك. فأنت أقوى من الأرض والسماء.. أقوى من الحروف والأسماء».

العفو.. العفو.. يا عبد القادر فقد تكفّ شيئاً من غضبك عليّ إذا علمت أنني ما خشيت يوماً على تجارتي أو مالي.. ما خشيت على نفسي ومصيري، ولكن ورائي زوجة واولاداً أخشى أن تضيّعهم الفتنة القادمة.. ورائي عرضاً أجدني مسؤولاً عنه أمام الله.. قبالتي المعارف والأصدقاء.. آلاف الناس البسطاء الآمنين يحزنني أن اراهم وقد تناوشتهم السيوف وأتت عليهم المذبحة التي تتشكل في طوايا الغيب.

أرتطم أكثر من مرة بالسابلة، أنحرف، بغير ما وعي، عن درب الخبازين الذي يقودني إلى الجامع وأدلف إلى أزقة جانبية تفضي إلى قبر العاقولي على يسار الدرب.. أتذكر انني ضللت السبيل فأعود للبحث عنه ثانية.. والناس هم الناس.. عشرون عاماً وأنا أجتاز الطريق نفسه فأجدهم هناك يكدحون، ويسترخون.. يتحدثون ويصمتون.. يجدّون ويلعبون.. ويضحكون ويبكون.. ولكن ما لي أراهم الآن على غير الحال التي كنت أراهم فيها على مدى عشرين عاما؟

وأتذكر، لا أدري لماذا، الشاب الذي أخذ يتردّد على دكاني سائلاً عن هذا الكتاب أو ذاك، مقلّباً صفحات المجلّدات والأسفار، يكاد وهو يعاين سطورها ان يلتهم كل ما تنطوي عليه في دقائق معدودات. ولكنه ـ لدهشته ـ ما يلبث أن يؤوب لنفسه فيتذكر أنه لا يملك أن يفعل ذلك، انها تحديات الزمن وعوائق القدرة البشرية، وما يريده العقل شيء وما يقدر على تحقيقه شيء آخر تماماً.. كنت ألحظ معاناته، وأحياناً أتسلّى بها فأحسّ بأنني عرفت كيف أجتاز المعادلة الصعبة فلم أسمح لمملكة العقل أن تأسرني فهناك، فيما وراء تخوم العقل، مملكة أخرى تتدفق عليك في سماواتها أنوار العرفان، مختزلة حيثيات الزمن والمكان، فما ثمة جدار يصدّ العقل عن المضي في الطريق.. إنه الوهج الذي يفتح المغاليق أمام كل أسرار الوجود

بكلمات، وربما بكلمة أو إشارة واحدة.. هكذا علمنا الشيوخ والمريدون.. «العلم كله طرقات.. ما إلى المعرفة طريق ولا طرقات.. المعرفة مستقر الغايات ومنتهى النهايات.. إذا استقررت في المعرفة كشفت لك عين اليقين».

يعرّفني به الوليد ..

- إنه أخي وصديقي: عبد العزيز العاقولي أبتسم وأنا أمسّد على لحيتي وأمد إليه يدي مصافحاً:

- لقد عرفته قبل أن تذكرني به

يدهش الوليد:

- وكيف؟

- رأيته مراراً وهو يقلّب صفحات الكتب بنفاد صبر

يقاطعني عبد العزيز متسائلاً:

- كيف، والكتاب نفسه بالنسبة لي هو المحيا والممات والطعام والشراب ..

أجيبه وأنا أتلذّذ بالابتسامة نفسها:

- لهذا السبب بالذات ينفد صبرك!

يحاول مقاطعتي مرة أخرى فيربّت الوليد على كتفه ويقول ضاحكاً:

- قليلٌ من المران يا عبد العزيز ولسوف تعرف يوما لغة أبي وهو يتحدث إلى الآخرين..

وأقول مستدركاً:

- لا تبالغ.. فأنا - وحاشا لله - لا أملك لغة خاصة بي.. على العكس، فإن الموغلين في محبة الله، المأخوذين بالعشق الكوني، طالما وجدوا في اللغة عائقاً يصدّهم عن التعامل المباشر مع الحقائق والأشياء. عن الوقوف قبالة الجوهر والمغزى، وطالما نقلوا عن شيوخهم هذه المرارة التي يحسّون بها وهم لا يجدون الكلمات التي

تمزق الأستار وتكشف عن الحقيقة.. وتوقهم إلى اللغة التي لا تكون وسيطاً بينهم وبين الكشوف المدهشة.. وسيطا يعجز عن التعامل مع هذه الكشوف، وانما تصير هي نفسها كشفاً.. جزءً من الحقيقة حيث تتساقط الحجب وتتلاشى الفواصل والأبعاد. وهم طالما ردّدوا شكواهم بكلمتهم المعروفة: «كلما اتّسعت الرؤية ضاقت العبارة». أتريد يا عبد العزيز أن تعرف بعض ما يردّدون؟

يقول متلهّفاً:

ـ بالتأكيد، فإنني أودّ أن أوغل قليلاً في عالمكم المترع بالرموز والأسرار.. أن أتعرّف عليه.

ـ ها أنت ذا تحصر المسألة كرة أخرى في حيّز المعرفة.. إنها يا بنيّ أكبر بكثير وأعمق بكثير.. اسمع.. انهم ينقلون عن شيوخهم: «الحرف يعجز عن أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عنّي؟» «أنا الله لا تحيط بي الحروف ولا تستوعبني الكلمات» وهم يتوجهون بالخطاب إلى كل مريد صادق بهذه التعاليم: «الق العبارة وراء ظهرك، والق المعنى وراء العبارة، وادخل اليّ وحدك ترني وحدي».. وهذا يكفي.. اليس كذلك؟

يدخل رجل ويسأل عن «رحلة ابن جبير» فأشير إلى الجهة التي يقبع بها المخطوط، والتفت إلى عبد العزيز فإذا به يكاد يلتصق بأحد الرفوف وهو يتابع بنهم حوافي المصنّفات الخاصة بالفلسفة وعلم الكلام. أحاول أن أقول له إن عليه، من أجل إدراك أعمق للحياة، أن يقرأ كتب الرحلات، ولكنني لم اشأ أن أقطع استغراقه.

يستبقي بيسراه «جمهورية أفلاطون» وينتزع نفسه بصعوبة من بين الأسفار، ويتقدم إليّ مشيراً إلى الكتاب.. أعرف أنه يسأل عن ثمنه فأجيبه:

ـ دعك من هذا، لقد دفعت من قبل ما فيه الكفاية ..

ـ ولكن

ـ ليكن عربون تعرّفي عليك ..
ثم مستدركاً :
ـ وإن كنت أتمنى أن يكون العربون غير هذا الكتاب!
ويقول بجدّية :
ـ «آراء اهل المدينة الفاضلة» مثلاً؟
أجيبه وأنا احدّق في البعيد :
ـ ولا هذا!
يقتحم الوليد حديثنا، وكان منهمكاً لدقائق مع أحد المشترين.. يجرّ عبد العزيز من ذراعه وهو يقول :
ـ اذا وقف الكتاب بينك وبين مواعيدك للناس فسأقول لك وداعا ..
ـ هوّن عليك، فأمامنا أكثر من نصف ساعة ..
ـ لكنها لا تكاد تكفي لعبور الجسر وحده.. إنك تدري زحمة العبور في هذه الساعة بالذات ..
يودّعني عبد العزيز ويغادران المكان.
مشاعر متناقضة تتناوشني وأنا أقارن بينه وبين الوليد.. إن ابني يريد أن يعيش حياته كاملة دون أن يجرّه العقل الى أسْر المحدود، ومع ذلك فانه بين طلبة العلم اشدّهم ذكاءً وتفوّقاً.. وأنا سعيد بهذا، ويزيدني فرحا أنه لم يتخلّ لحظة عن تلبية نداء الروح.. ان الوجد يتقاذفه أحياناً بين شطآنه النائية فأكاد أقول ها قد وصلت يا بنيّ وأنادي شيخي من مكان بعيد :
ها هو ذا ابني ينتمي اليك، لكنني ما ألبث أن افاجأ بأنه نزل الى الساحل وخلّفه وراءه في محاولة أخرى للالتحام بالحياة.. عجيب أمر الوليد.. إنه يعرف كيف يتلذّذ وهو يأكل ويشرب.. يستمتع وهو يقرأ ويدرس ويعرف كيف يكون سعيداً وهو يصلّي ويصوم ويصعّد في دروب الروح بخفة ورشاقة وهو ينظر الى فوق.. الى القمم البعيدة والسماوات

العليا.. وهو يعرف أنه هناك يمكن أن يجد نفسه، مفارقاً كل عذابات الدنيا وهموم الإنسان التي يعرف منشارها كيف يفترس الحياة، لكنه ما يلبث أن ينزل ثانية، وبالسعادة نفسها يتعاشق مع الكتلة ويستجيب لنداءات الوجود ويلتحم بالحياة ..

أرتطم بأحد المارة فاتنبّه.. أعتذر بابتسامة تأمل بالعفو وما ألبث أن أندفع إلى هدفي.. وهدفي هو حضرة الشيخ عبد القادر.. ليست هذه هي المرة الأولى التي أضلّ فيها الطريق وأرتطم بالناس.. مراراً حدث هذا.. وكنت دائما أقول: ان الذي يعرف الطريق الواصل إلى الله يضلّ دروب الحياة الدنيا التي يألفها الناس ويعاينونها شبرا شبرا.. هذه تقاس بالذراع وتلّمها النظرات وما تلبث الخطوات أن تأكلها حتى النهايات القصّية.. لكن دربك يا عبد القادر يندّ عن القياس.. يتأبى على العيون ويستعصي على الخطوات.. دربك يا شيخي يمتد طويلاً متنائياً موغلاً في الآفاق التي لا تطالها العيون ولا تبلغها الخطوات.. دربك يتلوّى كشعاع لا يكاد يرى عند حافات الأفق الشرقي ممتزجاً بالضوء والنور، معجونا بدفق المحبة، مزدهراً بالفيض الذي تذوب فيه الرؤية والخطوات.. وتتلاشى فيه الموازين والأبعاد فيتمحّض للعشق الذي يعلو على كل عوائق الكتلة لكي يجد نفسه قبالة الله ..

أصل الجامع أخيراً.. لستُ مجهداً رغم طول الطريق الذي اجتزته.. لكن قلبي يدقّ فيعيبني.. قلبي وهو يتهيأ لدخول الحضرة يحسّ أنه يدخل ساحة الامتحان العسير، وأنه ان لم يتحقق بالدرجة العليا التي يرضى عنها الشيخ.. يمنحها باسم الله، فانه سوف يتعذّب. إنه يدقّ يا عبد القادر فافتح الأبواب. ألست أنت القائل: «تعالوا نؤمن ساعة.. والموعد الله؟» ..

وأصرخ، وأنا أرى تلامذة الشيخ يتقاطرون من كل مكان، يريدون أن يدخلوا الحضرة قبلي: يا الله.. أقولها بروحي، أستلّها من أعمق خلية في وجداني فما ألبث أن أحسّ بأن دعوتي قد استجيبت وأن

قد انفتح الباب، وأن صوتا لا أكاد أتبيّن مصدره يقول لي هنيئاً لك يا سليمان فادخل فان عبد القادر بانتظارك ..

تنتابني قشعريرة تردّد وخوف، فأحتمي مرة أخرى بصيحة: يا الله.. فيعود الصوت لكي يقول: لا تخف يا أبا الوليد فأنت في الساحة التي لا خوف فيها.. لا تحزن فليس ثمة هنا ما يثير حزناً واشفاقاً.. أدخل.. وأدخل، وشلاّل الضوء القادم من فوق يغسلني، يطهرني ويضعني خفيفاً رشيقا قبالة ملكوت الله.. وأقول في نفسي وأنا ارتشف رحيق المسك المختوم: «زُجّ بي في الأنوار».. إنها فرصتك يا سليمان فتقدم بشكواك.. فترتجف شفتاي وأنا أتمتم بحياء منكّس الرأس وقد تعرّت روحي فيما لم يعد يفصلها أيما عائق عن الاندماج في النبض الكوني المسبّح بحمد الله.. وأنا أتطوّح في الممرات السماوية والتخوم البعيدة، متواجداً مع كل ذرة في هذا العالم تخفق باسم الله.. والكل ينادي: لا إله إلاّ الله.. أجدني بين يدي شيخي حينا بعد حين.. يربّت على كتفي وهو يسبح في النور ..

ـ قل يا سليمان.. قل

فأقول:

ـ بغداد يا عبد القادر!

ينظر إليّ متسائلاً، فاردف:

ـ يوشك أن يأكلها الجراد.. فماذا تقول؟

يردّ وهو ينظر إلى فوق:

ـ قولوا: «لا إله إلاّ الله» ..

أريد أن أسأله كرة أخرى لكنني أستحيي.. فان ما يقوله عبد القادر يكفي ذاته بذاته.. فقليلاً من الصبر يا سليمان وإلاً ما استحققت أن تظل لحظة واحدة في الملكوت ..

« 5 »

الوليد

أنزلق عن ظهر الشهباء كي أتمدّد على رمل الصحراء فما يلبث أن يأخذني نوم عميق، يقطعه بين الحين والآخر عواء ذئب أو نباح كلب.. أمدّ يدي بين لحظة وأخرى، وبردّ فعل سريع، إلى جنبي متحسسّاً قبضة السيف فلعل الخطر يكون قريبا. يقطع نومي ـ أيضاً ـ ولكن من داخل سيّاله المخدر هذه المرة، حلم أو كابوس.. مراراً أراني أصرخ في وجه عبد العزيز الذي أخذت ملامحه تتغير بسرعة مخيفة فيفقد خطوطه التي أعرفها جيدا ويتحول إلى شيء آخر يجعلني أرتجف رعبا.. لا تصله الصرخات التي أقذفها بوجهه وهو ينظر إلي بعينين غرانيتين لا تنطقان بشيء.. صرخات لا تتجاوز أوتار حنجرتي ثم ما تلبث بعد لحظات أن تختنق هناك.. ما الذي بمقدوري أن أفعله قبالته، حتى لو ردّ علي، سوى أن ازداد يأساً وعجزا وخوفاً، ويتنامى هو هيمنة وجبروتا؟ يحيط به ويمتد خلفه صفٌ طويل من المغول الذين تتلامع حافات سيوفهم الزرقاء كما يلتمع البرق في الأفق المعتم.. كلهم ينتظر الإشارة لكي يوغل في الدم.. وأسمعه يقول لهم مشيراً إلى والدي: هذا يكفي.. الآن على الأقل.. وأستيقظ من نومي فزعا وأنا أصوغ عتابي المتراجع بصعوبة: لقد فعلتها إذن يا عبد العزيز، أهذا ما علّمتك إيّاه الكلمات؟ .

تلفحني نسائم الفجر الندية محّملة برائحة الرمل.. والصحراء تمتد قبالتي موغلة في الأقاصي، تمتص بشغف دفقات الشعاع الوانية فتخلع

رداءها الرمادي الذي ألقاه عليها الليل، وتكشف عن لونها الذهبي الأصيل. وها هو ذا الرمل المغسول يستردّ بسحر الضوء بريقه المعهود كرة أخرى.. إنها لعبة الليل والنهار، تجد في ترامي الصحراء فرصتها للتعبير، لكسر حاجز الصمت اللا نهائي.. التشابه الذي لا أوّل له ولا آخر، وجعله يقول، بلغة الألوان وخفقان الشعاع، أشياء كثيرة.. كثيرة جداً.

ولكن بمجرد أن أستردّ وعيي بالأشياء والظواهر والموجودات، تخترقني الذكرى المترعة بالقسوة كرة أخرى.. هذه المرة ليست حلماً أو كابوساً أقول في نفسي، فها هيذي مفرداتها تتشكل أمام عيني.. نولها يروح ويجيء قبالتي لكي ينسج الحدث الدامي.. فأين المفر؟

ها أنا ذا أوغل في المكان فانجو ـ ربما ـ من السيف الذي كاد أن يمسّ رقبتي، لكن كيف النجاة من سكّين الذكرى التي تتبعني كظلي؟

ما يخفف عني بعض الشيء ثقل المعاناة المبهظة.. ما يلقي الماء البارد على النار التي تشتعل تحت الجلد، منذرة بحصار الندم الذي لا يطاق، أنني في الأيام، وربما الأسابيع الأخيرة بدأت أحذر عبد العزيز.. صرت أتوقع في طبقة ما من نفسي قد تكون غائبة عن العيان، أن شيئاً ما سيجيء من ناحيته.. شيئاً معتماً.. عملاً ما لا يسرّ على أية حال.. فلما وقعت الواقعة وانكشف الأمر وتمكنت من الافلات، أخذ وعيي يكشف بطريقة قاسية، كأنه يمزق القناع عن وجه مخبوء، حشداً من الوقائع والجزئيات، راحت دونما أي جهد ذهني مني، تنبني وتتشكل لكي تفصح في نهاية الأمر عما تصوّرته أمراً مفجعاً لا يقل هوْلاً عما فعله المغول في بغداد.. أن يجيئوا هذه المرة بصحبة عبد العزيز نفسه.. الصهر والصديق.. أن يتلقى أبي لدغة الأفعى من الجحر الضيّق الذي ما خطر له على بال.

وأتساءل، كما لو أنني أتجرع حفنة من العلقم: ليس أبي وحده

ولكنها الأم والأخت، أتراهم قدروا على الافلات؟ وأصرخ في قلب الوعي هذه المرة: لقد فعلتها يا عبد العزيز.. فلماذا؟

وأتذكر، مرة أخرى، وأنا أغرس يدي بعصبية في رمل الصحراء، أضغط عليه ثم ادعه ينساب بهدوء عائداً إلى الأرض، والشهباء تقربص على بعد خطوات، تصهل بهدوء، وتتلفت مندهشة لكل صوت قد يأتي من هنا أو هناك.. أحياناً تتحفز للنهوض، وكأنها تعطيني الإشارة، لكنها ما أن تطمئن قليلاً حتى تعود إلى استرخائها لاصقة بطنها في الرمل، محدثة فيه هي الأخرى ثغرات هشّة بحافرها الصلب.

أنقّب عن اللحظة التي أحدثت أوّل شرخ في علاقتي الحميمة به.. ثم تتتابع بعدها اللحظات وتتكاثر الشروخ حتى تغدو وبمرور الوقت خندقاً عميقاً ما كان بمقدور أي منا عبوره إلى الآخر، بل سماع صوته، لكن تبقى اللحظة الأولى هي التي تفجّر كل هذه التداعيات والانكسارات.. ربما لم يأبه لها هو بما فيه الكفاية، لكني من جهتي توجست منها خيفة وحسبت لها ألف حساب، رغم انني كنت أسعى إلى دفن مخاوفي في بحر المحبة التي غمرتنا بالدفء أيام المستنصرية، والمحاضرات التي تحرّك الجماد، والجدل المحتدم، والشيوخ الكبار، والانتصارات الدراسية الباهرة.

بعدها، وإزاء الحزن الذي كان البغداديون يتجرعون مراراته لحظة بلحظة في رحلة الليل والنهار، الرعب المغولي القادم الذي كان يدقّ أبواب بغداد.. قبالة التآكل الذي كان يهدّد بافتراس سعادة الناس وفرحهم وأمنهم ويتوعد أمانيهم بالويل.. قبل عبد العزيز أن ينفصل عن الحدث شيئاً فشيئاً.. أن يعاينه عن بُعْد كأنه لا يعنيه.. كما لو كان موضوعاً للبحث والدرس.. كانت النار تدمّر الأهل والولد والأخوة والأصدقاء، وكان الخوف يلاحقهم في اليقظة والمنام وعبد العزيز بارد كالجليد، ينظر من بعيد دون أن يمسه الخوف أو تلفحه النار.

مراراً حاولت أن أُسمِعَهُ صوتي، أن أجرّه قليلاً صوب البؤرة التي استقطبت كل الهموم الشخصية، صهرت أحلام الناس وأمانيهم، وضعتهم على حين غفلة، ورغماً عنهم، على صعيد واحد قبالة تحديات الرعب والموت والزوال.. فما قدرتُ أن أزحزحه عن موقعه الذي تحصّن فيه شبراً واحداً.. وقلت في نفسي: هذا أوّل الوهن.. انه اللحظة يتشكل بالصيغة التي تمكنه من العبور إليهم.. من عدم رفضهم على الأقلّ. وقلت أيضاً: ان عبد العزيز لم يعد بغدادياً وإلاّ ما كان يظل هكذا في دائرة الأمن والحلم التي رسمها لنفسه دون أن تلطخ ثيابه أوحال الخوف ولعنة الوباء ..

وأتذكر.. كيف أنني منذ بدايات تعرّفي عليه خشيت أن يجرّه نداء العقل المنفصل عن أي ارتباط من أي نوع كان بالروح والوجدان.. بعيداً باتجاه العزلة التي يصير فيها الإنسان هو العالم ويشكل قوانينه وقناعاته على هواه، فيما يتصوّره أرقاما ومعادلات لا يخترقها الظن أو المزاج ..

ورغم محاولاته الدائبة لاقناعي.. رغم توظيف كل قدراته في الجدل لتبرير موقفه، رغم توسلاّته ـ أحياناً ـ أن أكفّ عن جلده وتعذيبه، فانني تصوّرته موقفاً خارج دائرة الأخلاق بمعنى الكلمة.. انقلاباً على القيم والمباديء التي تعلمناها معاً في سوح المستنصرية نفسها.. لم يكن ثمة أيما إشارة في عقلي أو وجداني تجعلني أترفّق به قليلاً وأمنحه العذر.. كنت موقناً أن المسألة ليست أمراً شخصياً بيني وبينه، لكي أغفر وأصفح ولكنها أكبر من ذلك.. وبعيداً عنه بكل المقاييس والحسابات.. لعلي كنت مبالغاً في هذا.. لكن، وقتها، كانت الرؤية توغل في قناعتي حتى النخاع، وكان ردّ فعلي عنيفاً حقاً دون أن أحسب أيما حساب لما قد يتمخض من ردّ فعل ـ بالمقابل ـ اشد عنفاً وإمعاناً في الخطيئة.

مراراً وَصَمْتُهُ بالخيانة واعتبرت مجرد وقوفه ببرود قبالة السيف

المغولي وهو يجول في رقاب البغداديين جريمة مزدوجة.. مزدوجة؟ أبداً.. وانما هي طبقات صدئة يعلو بعضها بعضاً وتزداد تكاثراً بمرور الأيام.. وكل صفحة من صفحاتها لا تكاد تقول غير الشيء نفسه.. سوى الكلمة ذاتها: الخروج على إرادة الأهل والأرض ونداء العقيدة والمصير، والتحوّل - عن عمد أو غير عمد فالأمر سواء - إلى أداة بيد الطغيان.. تبرير سيء للجريمة.. سيف آخر يمارس القتل على طريقته الخاصة.. قبول لقهر التاريخ وهو يجنح بعنف صوب الدم والخطيئة.

وللحظات تقف حنان قبالتي، تعاين بحذر وتوجسّ موقف خطيبها الذي لم يتكشف في الأيام الأولى.. ولعلّها كانت تتعمد هذا من أجل الاحتفاظ بنقاء العلاقة وصفاء الوعد.. لعلها كانت تكافح من أجل اعطاء مساحة أكثر امتداداً لزمن الخطبة وأن تتشبث أكثر بالمحبوب.. ولكن عبثاً.. فها هو ذا يندفع باغراء قوة لا ترحم في الاتجاه الآخر.. وبمرور الوقت وجدت نفسي مرغماً على أن ألمّح لها بما هو كائن وبما يمكن أن يكون.. لم أشأ أن أدمّر أمنها الذاتي بالصراحة التي قد لا تحتملها للوهلة الأولى.. ولكنها ما لبثت أن أخذت تفهمني من خلال الايماءات التي كنت أتعمّد أن أضمّنها كلماتي ..

وبمرور الوقت راحت تعتصم بالصمت.. تتدثر بالكآبة والعزلة.. ما كان يوجعني أنها صبرت على آلامها أكثر مما يجب.. لم تقل شيئاً.. لم تحاول مرة أن تتأوّه.. لم تشتك أو تفاتح أحداً بما كان يقوّضها من الداخل.. لو قالت مرة: آه.. لأعانتني على تحمّل أوجاعي.. لكنها لم تقلها.. كانت بصبرها الثقيل كالجبال الراسية تشعل الندم في أعماقي. وأقول في نفسي: لو أني لم أقل لها عنه شيئاً.. ثم ما ألبث أن أعزّي نفسي بأنها كانت ستعرف على أية حال.. رؤية أبي النافذة وإحساسه الذي لا يخطيء كانا سيقولان لها كل شيء.

أحسّ باعياء بالغ حيث تجرّني الذكرى إلى البدايات النائية

كالحمى التي لا فكاك منها. ورغم انني كنت قد شبعت نوما، أحاول أن أغمض عيني ثانية في محاولة للهروب.

الشمس ارتفعت كثيراً، متباعدة عن حافات الأفق الشرقي للصحراء.. أصبح دفئها لذيذاً.. ومع ذلك أحسّ برجفة البرد تسري في أوصالي، تخترق الاحساس بالدفء ..

تطرده.. وتستقر هناك.

«6»

حنان

يصعب على المرء أن يتذكر لحظة لم تسقط في إحساسه شيئاً ما.. انطباعاً يبدّل ويغيّر في نسب الأشياء، أو على الأقل انعكاساً بغرس في الذاكرة ملامح التجربة وخطوطها ومنحنياتها.. وكثيراً ما كان عبد العزيز يقول عنها انها لحظة الفصل، وانها استطاعت أن تنزلق به صوب ما كان يخشاه.. وكان يضحك وهو يتحفز للردّ، لأنني ما كنت أعتبر موافقتي عليه استدراجاً بأي شكل من الأشكال حتى لو أخذ بعداً ميتافيزيقيا كما كان يقول هو نفسه فيما لم أدرك مرماه. ثم ما يلبث أن يتنهّد وكأنما يحدّث نفسه: لحظة الجسر! لقد كانت عبوراً من نوع ما صوب ضفة ما كنت أقصد الذهاب إليها!

ـ دعنا من كلماتك الغامضة ..

كنت أقاطعه

ـ وحدّثني بالوضوح الذي أدركه عن تلك اللحظة ..

والحق أنني سمعتها كثيرا، حتى أنها جاوزت حدودها الزمنية الضيقة لكي ما تلبث أن تغدو انفتاحا على الأبدية.. طويلة ممتدة لا نهاية لها.. أن يراني على الجسر فجأة هكذا، بخماري الأرجواني، وهو يتخبط في محنته وعذابه، وأن أكون، من حيث لم أرد، شارة الخلاص.

لقد كان هذا يرضي غروري كامرأة ولذلك كنت أستعيد معه نبضي الرؤيا.. وأركض معه نحو نقطة البداية للإمساك بها.. وكان كثيراً ما

يستجيب لي، بعد أن يحيط التجربة ـ كعادته ـ ببخور الطلاسم والألغاز، إلا انني كنت أعرف ما كان يريد أن يقوله، وأصل قبله إلى النهاية التي آل إليها كل شيء.. أن يذهب بعد أيام قلائل إلى دكان أبي لكي يطلب يدي.

ـ كنتُ أتوقع كل شيء.. أن تقفل المستنصرية مثلاً أبوابها، وأن يقال لشيوخها كفوا عن التفكير، خلا هذه: أن تكون الفتاة التي ذهبت لخطبتها أخت صديقي الوليد!

هكذا كان يقول.. ولم تكن مفاجأة أخي ودهشته أقل عنفاً.. وصرخ بأعلى صوته:

ـ أنت؟

فأجاب عبد العزيز:

ـ لقد فعلتها إذن أيها الصديق المشاكس وأرغمتني على اتباع تعاليمك!

ـ ومن قال لك إنني موافق على عرضك المفاجيء هذا؟

ـ ليس الأمر بيدك على أية حال، فها هو ذا أبوك يقف على بعد خطوات إنه صاحب القول الفصل!

ـ وإذا اقنعته برفضك؟

ـ لن تستطيع

ـ إذا قلت له إنك متزوج وأنه ليس بمقدورك أن تعدل بين الاثنتين!

ـ لا أفهم ما تقول!

ـ لن تقدر يا عبد العزيز على الإمساك بالعصا من أوسطها.. على وضع رمانتين كبيرتين في كفّك في وقت واحد

ـ أيضاً.. لا أفهم ما تقول!

ـ لقد تزوّجت المعرفة منذ زمن بعيد وأخشى الاَّ تعطيك هذه

العلاقة الحميمة أيما هامش لعلاقة إنسانية من نوع ما.. علاقة تنطوي على قدر مناسب من الدفء والمحبة ..

ـ دعنا من أوهامك.. ثم ألستَ أنت الذي تحدّيتني؟ ألا يكفيك أن تكسب التحدّي وأن أجيئك منكسراً؟

ـ ليس على حساب أختي ..

ـ ماذا تقصد؟

ـ إنني المح الآن ما الذي سيحدث.. تماماً كما لو كان يتشكل قبالتي في الأفق القريب.. أيام.. قد تمتد شهوراً تشتعل فيها نار الشوق ويتألق جمر الوجدان الخابي وليس ثمة وراءها شيء.. ستنطفيء النار ويتلاشى الجمر ويعود عبد العزيز إلى ناره القديرة دائماً على الاشتعال، ولكن الباردة كالجليد.. متعة الاكتشاف العقلي وهوس التعامل المنطقي مع العالم.. بعدها تكون أختي مجرّد شيء في حياتك، ربمّا، واعذرني، خادمة تهيء لك الطعام وتغسل الأواني وتنضّد غرفة الاستقبال لملاقاة الضيوف وإشباع حاجتك التي لا تنتهي للجدل والنقاش ..

ـ انني لم أعد أفهمك.. ألأنها أختك؟ ألم تغرني أنت باجتياز التجربة رغم أنك لم تمارسها بعد؟ ألم تحرّضني على كسر الجليد بحثاً عن المياه الدافئة؟ ألم تطلب مني أن أنتشر على مساحة أكبر وأن أعيش حياتي بالتنوع الذي لا يصيبها بالعقم؟ فها أنا ذا بين يديك ..

ـ أعرفك جيداً يا عبد العزيز.. فما هي إلاّ محاولة للاختبار لن تستمر طويلاً ولسوف ترجع ثانية إلى عزلتك.. ومع ذلك فلن أقف في طريقك.. ها هو ذا أبي فقل له ما تريد ..

ومراراً حدّثني عبد العزيز عن ردّ فعل أبي، وعن قبوله في نهاية الأمر.. لعلّه دهش لمنطقه، وثقافته الواسعة، ونهمه الذي لا يبرد للمعرفة.. إنه واحد من تلك النماذج التي أخذت تشهدها بغداد منذ أن كتب لها أن تصير أم الدنيا.. بعضهم يجيء إليها من أقصى المشرق

وبعضهم يجيء من أقصى المغرب.. بعضهم يختار أن يظل فيها وأن يدفن في مقابرها.. وآخرون يمرّون كالشهب المشتعلة عند حافات السماء، يشعّون في أفقها القريب ضوءاً ثم ما يلبثون أن يغيبوا.. وفي كل الأحوال فإن بغداد أصبحت ساحة الألق العقلي حيث يحتك المنطق بالمنطق وتتحاور الحجة مع الحجة ويلتقي البرهان بالبرهان.. وغدت المستنصرية بالذات القلب الذي ينبض بايماضات الفكر والبؤرة التي تتجمع في اروقتها أشعة الدنيا ..

لم يقلّب أبي الأمر على وجوهه، كما فعل أخي، لقد كان يكفيه أن يكون صهره فرصة لجعل الكتب المرصوفة في خزائن الدكان تقول.. تحكي.. تتكلم.. يكفيه أن يجعل مؤلفيها الذين ماتوا منذ زمن بعيد ينهضون ثانية لكي يشاركوا في الحديث.. يكفيه هذا لكي يقول لليد التي امتدت تطلبني: ها هي ذي أمامك، خذها على بركة الله!

والبداية هناك.. لحظة الجسر أليس كذلك؟ يعود عبد العزيز لكي يستفزّني فأحاول أن أتذكر، أن أمسك ثانية بسيّال الزمن المتدفق لكي أقف معه عند الحافة الزمنية نفسها، أن أمسك بها معه وأضعها، كالقلادة ذات الزمردة الخضراء المدهشة، في عنقي. وأقول له:

ـ دعك من هذا وتعال لنفكر في المستقبل، فان أمامنا الكثير ..

ـ هذا صحيح ولكن ليس الآن.. ثم انني أحس وأنت تتحدثين مع أمك حول المطالب والضرورات القادمة، بشيء من الاختناق.. بحصار الأشياء الذي لم آلفه بعد ..

ـ أي حصار هذا؟ إنك عما قريب ستصبح مسؤولاً عن بيت يتطلب أن تتفرغ له.. يتنهّد عبد العزيز وتجتاز ملامح وجهه موجة من الاكتئاب

ـ هذا صحيح، ولا اعتراض عليه.. ولكن ليس الآن ..

لا أعرف ما الذي يريده بالضبط.. وتلقيت من الوليد إشارات من

بعيد ما أدركت مغزاها ولكن ها هي ذي بعض معانيها تتكشف أمام عيني وسط دوّامة من الغموض والضباب. وأقول في نفسي: لن أسمح لها أن تعكر حياتنا أبداً.. أن تسمّم الهناء الذي ينتظرنا والوعد الذي يطلّ علينا هناك على بعد خطوات ..

أبي من جهته كان صّمام الأمان ولطالما قال لي إن الزوجة الصالحة هي التي تتمحّض لزوجها، وما دام عبد العزيز يريد أن يواصل طريقه مع المعرفة فامنحيه الفرصة وأعينيه عليها.. وحينذاك سيغدو طموحه جزءاً من طموحك وستتوحّدان معا في ساحة الكلمة، ولن يكون بعدها ثمة مشكلة أو سوء تفاهم على الإطلاق!

«7»

عبد العزيز

لم يخطر ببالي يوماً أن اتزوّج، أن أحمل على كتفي هموم المرأة والأولاد، وكنت اشفق على أصدقائي الذين جرفهم التيار فضاعوا في غمار النداءات اليومية العابرة.. أية ضرورة هذه التي تبعدني عن العشق الوحيد في هذا العالم؟ عن التعلّق المتفرّد الذي لا يحتاج إلى تبرير.. أن أقف قبالة الفكرة فاعاينها بشغف كما يقف الشاعر أو المبدع أمام قصيدة عذبة أو رسم جميل.. إن إغراءها هو الاغراء، وهي إذا لم أكن مبالغاً، الزوجة والذرية.. بعض أصدقائي كانوا يقولون لي: دعك من هذا كلّه، ولكن الا تخشى الانقطاع؟ كنت أعرف جيداً ما يقصدون إليه ولكني اختبرهم فأتظاهر بالغباء وأسأل: أي انقطاع هذا؟ فيجيببون بتسليم جاهز: أن تموت دون أن تخلّف ولدا ..

لم يخطر ببالهم، وهم يتشبثون بأحلامهم الصغيرة الملتصقة بطين الأرض أن كلمة تقال، فكرة تحسن صياغتها هي الامتداد الوحيد الباقي.. ما الذي تركه الكبار غير الكلمة؟ ما الذي أعطوه العالم لكي يزدهر وينبعث ويتجدد غير الفكرة القديرة على البقاء؟

الوليد يستفزّني هو الآخر.. الوحيد الذي احترمه.. من ثم فان استفزازه يحاصرني.. إنه ذكي، وهو يدرك جيداً ما تشبثت به دائماً وجعلته الدافع والمبرّر والهدف.. أن تعرف وتعرف وتعرف حتى تصير المعرفة النبض الذي يخفق، والبصيرة التي ترى، والحاسة التي تمسك

بالأشياء. لكنه، كما أخذ يتضح لي أكثر فأكثر، لم يقف عند هذه القناعة التي تكفي وحدها لأن يعيش الإنسان حياته من أجلها كاملة.. لطالما تجاوزها مستجيباً لنداءات أخرى. ورغم أنني لم أكن مقتنعاً بتوزيع اهتماماته على هذه المساحات الشاسعة.. رغم أنني خشيت دائماً مسألة الانتشار هذه واعتبرتها بشكل من الأشكال صيغة خادعة قد تقود إلى الشتات، رغم هذا كله فان الوليد طالما جعل الشك يخترق إيماني الراسخ كالرصاص لكي يحدث هزة في أسسه الموغلة ويجعلني - في الأقل - أتساءل عن إمكان متابعته ولو من أجل تفحّص طبيعة الحياة التي يريدها!

كان هو الآخر - رغم أنه لم يكن متزوجاً - يلوّح لي بالزواج كقدر لا مفر منه ولكنه قدر لذيذ يعطي الحياة قدرة أكثر على التجدد والخصب والانطلاق ..

- أي تجدّد هذا؟

أقول له متبرّماً، فيجيبني بالعبارة نفسها:

- لن أردّ عليك بكلماتي، ولكنك سوف تراني وتتبعني!

الحقّ أن شيئاً من التوجسّ والقلق، ولنسّمه الخوف، ينتابني أحياناً وأنا أتلقى تعليقه الذي طالما صفعني به.. ترى من منا المخطيء ومن المصيب؟ وبمجرد أن أتذكر ما تلّقيته ضحى اليوم نفسه في محاضرة الأستاذ الجوسقي وهو يقرأ بصوته العميق العذب قصيدة ابن سينا العينية ثم يبدأ بشرح أبياتها كما لو أنه يفك ألغاز الدنيا فيضعنا قبالة الوعي بالوجود. حتى لنكاد نذهل عن الزمن والمكان، ونضيع في تموّجاته الصوتية التي سرعان ما تتمحّض للعرفان وتشحذ قدراتها المتفوقة للايغال في رؤى ابن سينا ومعاينته للوجود، بمجرد أن أتذكر لحظات التلاشي الصوفي في باحة المعرفة، أنسى كلمات الوليد، وأتحرّر من المخاوف التي أسقطها كقطع من حصى صغيرة في قعر وجداني فعكرت المزاج للحظات. لكن، بعد قليل، وربما من وراء كل

محاولات المدافعة والتشبث بالموقف المتوحّد، يجيء الهاجس مرة أخرى.. وأقول في نفسي: دعك من هذا الآن فلعل وقته لم يحن بعد!

لم أكن أدري أنني كنت مخطئاً في تعليقي الزمني هذا.. في محاولتي للفرار، والتحصّن بدفاعات التوق للمعرفة التي تخيلت إستحالة اختراقها بأي نداء، ومن أي نوع كان، وانني كنت مخطئاً مرة أخرى في أن تحديد الوقت الملائم للخبرة ليس في أيدينا في معظم الأحيان، وانما هو فوق طاقتنا، أو بعبارة أدق، خارج حساباتنا، حيث يعرف كيف يخترق شبكتها من حيث لا نتوقع، ويتموضع في المكان الذي يريد.

وكنت مخطئاً، مرة ثالثة، في أن الفرار هو بحدّ ذاته بدء الطريق إلى غير ما نشتهي ونريد، وأننا نضع خطانا ونحن نفرّ مما نخشاه صوب هذا الذي نخشاه تماماً كما يفعل العصفور الخائف قبالة فم الأفعى المفتوح فيندفع إليه! ومن عجب ان انكسار قناعتي المتبلورة ـ كما كنت أظن ـ كحجر الماس الأصيل، يجيء هذه المرة أيضاً من الوليد ولكن بصيغة أخرى تماماً ..

لقد كانت هذه فيما ظننت أكبر مفارقة خبرتها في حياتي.. سبقتها بالتأكيد مفارقات شتى، لكن هذه، هذه بالذات، كانت تحمل تفرّدها وثقلها لأنها جاءت وكأنها معجونة بالدهشة التي تضع الأحمر والأخضر معاً في سياق واحد، مبررة المحاولة بأن الحياة نفسها هي في جوهرها تجاوز لمعادلات العقل وصرامة الأرقام.

أجتاز جسر الكرخ عائداً من المستنصرية.. كان الوقت عصراً وكان الوليد قد تركني كعادته، بعد أن يئس من إقناعي بالذهاب معه إلى باب كلواذى لمشاهدة سباق في لعبة الجوكان بين الكرخيين والرصافيين. كان واثقاً تماماً من الفوز، وقال وهو يطوّقني بذراعه:

ـ أريدك فقط أن ترى كيف أن المستنصرية لم تسرقني بعد.. ومن

يدري فلعلك تتلقى هناك، عند باب كلواذى، درساً آخر يغيّر بعض قناعاتك!

قبل يومين كان قد استدرجني إلى رحلة صيد في بساتين النخيل الممتدة وراء الإمام الأعظم. أحسست أن وقتي يضيع هدراً، وأن عتابا ينبجس في طبقة ما وراء خطوط الوعي المنظور. وقلت في نفسي: لقد عرف الوليد كيف يسرقني، ولن أفعلها كرة أخرى.

وأنا أجتاز الجسر، أحس بإعياء شديد، وبين لحظة وأخرى أحاول أن أحفّز طاقتي المستنفدة بتذكر الجدل الصاخب الذي دار بيني وبين الأستاذ حول مفهوم «الهبوط». . لقد بهرت الأستاذ والطلبة معاً، ومن أجل ألاّ يمسني الغرور حاول الأستاذ أن يشعرني بشكل غير مباشر أن وجهات نظري صحيحة إلى حد كبير ولكنها تحتاج إلى وقفة هنا وتعديل هناك.. كنت سعيداً حتى الأعماق وحاولت أن أرتشف انتصاري قبالة الطلبة والشيوخ حتى الثمالة. ولكني بمجرد أن أغادر المحاضرة ودونما أي سبب ظاهر أحس أني أتلقى صفعة قاسية من الاكتئاب، أخذت تحاصرني أكثر فأكثر حتى بدأت أشعر بالاختناق.. كثيراً ما كان يحدث هذا ولكن ليس بهذا العنف والفجاءة. وأقول في نفسي: لعلّه رد الفعل، أو الإلحاح في محاولة الإمساك بخيوط الفرح ما يجعلها تنفلت من بين أيدينا، ومن خلال الشد والجذب نفقد الفرح نفسه وقد ننحدر باتجاه الحزن والاكتئاب.. كان يحدث هذا وكثيراً ما كان يلوح من بعيد، وكنت أحياناً أتمكن من صدّه، إلاّ أنه في كثير من الأحيان كان يغلبني على أمري.. ولكن اليوم، جاوز الهاجس حدوده القصوى، ووجدتني في لحظات أكاد أضيع وسط أمواج متلاحقة من الهم والحزن.. ومن يدري فلعلها المفارقة، أو الوعد، أو القدر الذي يهيء الأسباب بحسابات أخرى مغايرة تماماً لحساباتنا من أجل أن يسوقنا من حيث نريد أو لا نريد، إلى المصائر التي قرّرها سلفاً!

عند منتصف الجسر، وأنا أكافح لكي انتزع نفسي من الانزلاق صوب القعر، وأصعد ثانية إلى فوق، خفيفاً متحرراً.. ألمحها على بعد خطوات تماماً.. لا تعيرني التفاتاً.. ولكن نداءً من نوع ما يرغمني على أن التفت إليها، أن أحدّق فيها لحظات.. لعلها محاولة أخرى للتشبث بالصعود.. بالعودة إلى التوازن، باستعادة الفرح الضائع.. لعلها رغبة الحياة التي كنت قد اعتقلتها طويلاً، فانتهزتْ فرصة دواري في اللجّة فأطلت برأسها لكي تأخذ نفساً طويلاً قبل أن تغوص معي إلى القاع.. لعلها صوت الوليد.. كلماته وهي تتجسد قبالتي، كما كان يقول لي دائماً، بعيداً عن حسابات العقل والمنطق لكي تجرّني إلى حافات الحياة، ليس على حساب العقل وإنما معه وبرفقته.

لم تتجاوز النظرة جزء من لحظة يصعب حسابها لكن ها هي ذي تعينني فعلاً على الصعود قليلاً.. على شيء من التحرّر الذي كافحت طويلاً للإمساك به.. والتفت ورائي مندهشاً.. كانت قد ابتعدت قليلاً، وكانت ذؤابة خمارها الأرجواني تتأرجح بفعل النسيم ملوّحة بما تخيّلته وعدا.. وكان علي أن اتشبث بهذا الوعد، أن أمسك به بكل ما وسعني من جهد كي لا يفلت من بين يدي.. أتراه الحبل الذي سيجّر مركبي الغارق إلى برّ الأمان؟

على أية حال، فان هذا كلّه لم يكن سوى أمراً اعتيادياً لا ينطوي على أية مفارقة أو دهشة. لكن، بعد يومين فحسب، وعندما عرفت أن هذه الفتاة التي التقيتها على الجسر هي أخت الوليد نفسه، أدركت أن الأمر لا ينطوي على بُعد واحد، وأن كل واحد منا في نهاية الأمر بل في بدئه كذلك، يتحرك في دائرة تتقاطع فيها الخطوط وتتشكل المساحات، حيناً بارادته واختياره، وأحياناً أخرى بعيداً عنهما.. وأن هناك ـ دائماً ـ من يشاركنا في اتخاذ القرار، بل ـ ربما ـ يرغمنا عليه!

«8»

سليمان

شيء يدور في نفسي، أقوم بأكثر من محاولة للإمساك به لكنه يتفلّت كسمكة تعرف كيف تناور وتنزلق بعيداً.. اتذّكر النقطة السوداء التي تقف قبالة العين الكليلة فتمنعها من الإبصار الكامل.. نتخيّل حينا أنها تلتصق بقرنية العين ونحسّ حيناً آخر أنها تنفصل عنها وتتراجع قليلاً لكي تظل معلقة في الأفق القريب.. شيء كنذير السوء الذي لا يكاد يرى، لكنه ـ على أية حال ـ يضغط على الحسّ والروح فيسبّب قلقاً من نوع ما، وقد يتزايد القلق، ولعلّه أحياناً يغيب ويتباعد، لكنه يظل ينقر كالعصفور في الأعصاب فيزعجها عن السكينة والاستقرار.

في البدء لم أعره اهتماماً، لكن زياراته اليومية تلفت انتباهي إليه.. إنه على ما يبدو يقف قريباً مني، يستفزّني.. ترى ـ تساءلت مع نفسي ـ ما الذي يريد أن يقوله؟ وهل في نيّته أن يدعني ويرحل من حيث أتى؟

بمرور الوقت أدرك أنه قد يقيم طويلاً وأن علي أن أوطّن نفسي على قبول ضيافته المقلقة، وأستعين عليه بالتوجّه إلى الله والانغمار في ملكوته الذي تتلاشى في سبحاته المتاعب والهواجس والهموم.. ولطالما تحققت بالأمن والسكينة، ليس مع هذا الهاجس فحسب، إنما مع كل ما مرّ بي عبر حياتي الماضية من متاعب وهموم.. أن تضع نفسك في تيار الوجود.. أن تسبح في الاتجاه نفسه مع ذراته ونجومه.. أن تندفع متناغماً متوافقاً في الفلك الأكبر الذي يقرّبك يوماً بعد يوم ولحظة بعد

أخرى من مبدع الملكوت.. والهاجس الذي يجعلك تندفع فرحاً منتشياً إلى هدف أبعد، أنك لست وحدك، فهناك معك آخرون هناك العشّاق والأشجار والشلالات والجبال والأنهار والوديان والنجوم والشموس كلّها تركض معك صوب هدفها المتوحد، متذكرة أنها والمصير على ميعاد.. أي حزن هذا الذي يمكن أن ينفرد بك بعيداً عن مهرجان الفرح الكوني هذا؟ أي خوف يمكن أن يتناوشك وأنت في حمى من يأمن عنده الخائفون؟ تردّد معهم: «جعلت الليل والنهار سترين ممدودين على الأبصار والأفكار وعلى الأفئدة والأسرار، وقد اصطفيتك فرفعت السترين لتراني، فأقويك على رؤية السماء وهي تنفطر، وعلى رؤية ما يتنزل فيها كيف يتنزل، ولترى كيف يأتي من عندي كما يأتي الليل والنهار!! ».

النكتة السوداء تظل تستفزني هناك، قريباً جداً، حتى كأنه ليس ثمة ما يفصلني عنها، ليس ثمة أي حاجز مكاني يجعل بيني وبينها مسافة تمكنني من الإمساك بها أو على الأقل معاينتها لإدراك كنهها والانصات إلى ما تهمس به.. وأنا أتناءى عنها، كأنني إذ أعيتني مدافعتها اتحايل عليها باعتبارها أمراً لا قيمة له.. منظورا عاديا في مجرى أحاسيسنا اليومية الصغيرة لا يلبث أن يتراجع لكي تحلّ محلّه عشرات من الرؤى والمتغيّرات البصرية الأخرى لكن، وبمرور الوقت أجدني مرغماً للإنصات جيداً، إن التناسي والإهمال ليسا هما المطلوبين في خبرات كهذه، لابدّ من الصبر على المتابعة ومحاولة الإمساك.. لابدّ من الاستمرار على المعاينة لمعرفة حجم الشيء الصغير الذي يستفزك، لابدّ من الايغال، إذا اقتضى الأمر، في طبقات النفس البعيدة بحثاً عن الأسباب، أو ربما تجاوز الذات ومعاينة العالم في الخارج حيث يمكن أن يكون الشيء قادماً من هناك، وهو على كل حال نذير من المجهول، والمجهول كما يحلو لنا أن نسمّيه في محاولة للتحايل أو الهروب.. ليس مجهولاً ولكنه قدر واقع قد يختبئ في طوايا الغيب إلا أنه يرسل بين

الحين والحين إشارة سرّية، رسالة غامضة، رمزاً من نوع ما لكي يقيم بيننا وبينه اتصالاً ويشكل فرصة للخطاب.. انما علينا أن نشحذ قدراتنا جيدا لمعرفة ما يريد أن يقوله.. هذه المعرفة التي يمكن أن تحرّر الإنسان شرط أن تنطوي على بطانتها الروحية وأدواتها التي تتجاوز عالم الاحساس المبهظ الثقيل إلى ما وراءه، هناك حيث تنفسخ العوالم وتنفتح النوافذ على حقائق الوجود، ويدوّم النداء القدسي في الفضاء اللا متناهي: «يا عبد، خلقت لك الأشياء كلها وأنا خير لك من كل شيء لأني صاحب الفضل فولّ الأشياء ظهرك وولّني وجهك! يا عبد.. من احببته من خلاّني وأحبّائي كلّمته بلا عبارة فخاطبه الحجر والمدر.. الرؤية يا عبدي هي أن ترى الله في الأشياء فتراها عاجزة بذواتها، قليلة الحيلة، مفتقرة، وجودها مستعار من الله الذي أقامها، فتعجز عن أن تدعوك بذواتها، وتعجز أن تقسمك وتشتتك وتفريك»!

أحاول أن ابذل جهداً مضاعفاً لتحديد مكان الشوكة التي تخزّني واستئصالها.. ترى، اتساءل مع نفسي: «هل سأقدر على ذلك؟» وكلمح الشهاب يخترق إحساسي خاطر يجعلني أستعيذ بالله.. ترى، أتساءل مرة أخرى: أيكون النذير خاصا بذواتنا المحدودة فنملك القدرة على التعامل معه بمجّرد تكشّفه للعيان؟ ألا يجوز أن يكون أكبر من ذلك بكثير، وبالتالي، ما الذي يستطيع أن يفعله هذا الإنسان أو ذاك؟ رعدة هادئة تجتاز جسدي كرعدة الحمى في لحظاتها الأولى فاستعيذ بالله كرة اخرى.

قبل يومين جاءني ها هنا أحد اخواني القدماء، قال وهو يدعك مسبحته بانفعال: إنهم اجتازوا أرض الخلافة مرة أخرى. وقبل أن أسأله أردف: وصلوا حتى جلولاء هذه المرة، وكعادتهم قتلوا ونهبوا وأحرقوا. ثم آثروا الانسحاب، رغم أن أحداً لم يتصدّ لهم بالمرة.. لا السكان ولا جند الخلافة.

سمعته يتنهّد وهو يبحث عن كرسي لكي ما يلبث أن يستلقي عليه منهكاً، وواصل

حديثه: يبدو أنها لن تنتهي على خير وأن الفتنة قادمة لا ريب فيها.

أعرف حسّان البطائحي جيداً، يحمل على كتفيه دائماً هموم الأمة، يتحسّس عن بعد ما الذي يجيء وما الذي لا يجيء.. يرصد الأحداث ثم يصدر حكمه.. انه صياد ماهر يعرف كيف يسدّد جيداً ثم يصيب هدفه.

منذ زمن بعيد تعرّفت عليه. كنا نذهب معاً لسماع الوعظ في مساجد بغداد وكنا نجلس معاً عند العمود الأقرب إلى المحراب في جامع الشيخ الجيلاني نتلقى العلم والعرفان، ونتشكل يوماً بعد يوم في تيارات العقل والروح.. كانت الشعلة تنقدح في العقل حيناً وفي الروح أحياناً.. كانت تشعل الوجدان أو تتخذ من جمر القلب مكاناً تتألق فيه.. كنا نتشكل، وكلما ازددنا عرفاناً أدركنا كم هي عظيمة، قديرة، مبدعة يد الله في ملكوته الكبير.. نتمحّض للشوق ونهتز وجداً ونحن نردّد مواقف شيوخنا ومخاطباتهم: «تطهّر للوقفة وإلاّ نفضتك، لا يكن عليك سلطان من شيء.. الأسماء لا فعل لها بذاتها وانما هي تفعل بذات الله.. اذا استيقظت فاستيقظ في التوكل علي، واذا أكلت فمن يدي، واذا شربت فمن يدي.. بي تحيا وإليّ تعود.. قل لسريرتك تقف بين يدي لا بشيء ولا لشيء، اجعل الملكوت الأكبر من ورائك واجعل الملك الأعظم تحت قدميك».. لقد تعلمنا كيف يكون الله ذو الجلال حاضراً في خفقان القلب ورؤية البصيرة واضطراب الأشياء.. ولطالما صرخنا معاً: «زج بنا في الأنوار.. ربي أنت في عين كل ناظر!».

ونغادر معاً باحة المسجد مستمدين من أعمدته القدرة على الثبات ونحن نتخاطر متمايلين كالسكارى خشية أن تسقط أرضاً.. من يرتشف خمر العرفان والوجد وهما ينسربان في حنايا العقل والروح ينسى كيف

يسير الإنسان بخطى قصيرة، مجتازاً مكاناً ضيقاً، متنقلاً بحساب الأذرع هنا وهناك.. من يرتشف محبة الله ورسوله، ينبت له جناحان كبيران يطير بهما في الفضاء، فينسى أنه كان يوماً يملك قدمين وأنه كان يسير على الأرض!

مَهَر العشق الكوني قلبينا وأصبح حسّان بالنسبة لي الأخ والصديق.. ما كنت أرتاح إن لم أره ولو لدقيقة واحدة في اليوم. يحدث أحياناً أن تمضي الساعات في الجامع وحسّان غائب، فما أن أغادر المكان حتى أهرع إليه في بيته لكي أسأل عنه، وحينذاك فقط أشعر أن بمقدوري أن أرجع إلى البيت أو الدكان متحققاً بالرضا والارتياح.

وتباعد رحيلنا في الزمن والمكان، وجرفتنا هموم الحياة، وأمطرت علينا الدنيا متاعبها. كنا قد استكملنا الدروس في جامع الشيخ الجيلاني ومضى كل منا إلى عمله لكن هذا لم يمنع (حسّاناً) من أن يزورني في السوق بين الحين والحين، أو أن يصطحبني لحضور مجلسٍ في مسجد الحظائر القريب من الورّاقين، وأحياناً، حينما يعيينا الجد ونشتاق للترويح عن أنفسنا نتسلل معاً إلى مجلس أحد القصّاصين، ونحشر جسدينا بين حشود المستمعين من عامة الناس وهم يفغرون أفواههم دهشين لمغامرة يجتازها عنترة أو سيف بن ذي يزن حيث يعرف القاص كيف يستثير انتباههم أكثر فأكثر فيبلغ بهم حدوده القصوى، ثم ما يلبث أن يريحهم بين الحين والحين بنكتة يتفنّن في إلقائها أو طرفة يسوقها. وأقول لحسّان وأنا أحس بالملل يتسلّل إليّ: لقد ذهب جيل القصاصين الكبار يا حسّان . ذهب إلى غير رجعة.. وأشير إلى الحكواتي قبالتي وأنا أقول: اين هؤلاء من المغازلي وأبي الورد؟ ثم ما نلبث أن نغادر المكان قبل أن تتكشف مصائر الأبطال.

والآن فإن هجمات المغول على حافات العراق تؤرقه على ما يبدو.. هذه هي المرة الثانية التي يجيئني فيها منفعلاً وكأنه، وهو يبثني

شكوكه، يحمل ادانة من نوع ما.. ضد من؟ لا أدري.. أغلب الظن أنه في تحذيره من الفتنة يسعى جاهداً لاتقائها بشكل من الأشكال، وإلاّ فان المصيبة قد تعظم والأفق قد يزداد عتمة، وقد يدوّم البلاء فوق رؤوس الظالمين والمظلومين، حيث لم تمتد يد أو ينطلق لسان لوقف الطاعون القادم.

كان يعطي هؤلاء الغزاة حجماً أكبر من حجمهم، قلت له في اللقاء السابق:

ـ هذه ليست المرة الأولى.. غمامة وستنقشع بإذن الله ..

ولكن الغزاة عادوا كرة أخرى، وذبحوا النساء والأطفال على بعد خطوات من بغداد.. ماذا أقول له الآن؟ ومن يشفع للخليفة عند الله وهو قاعد مستريح في قصره؟ وماذا يعني الدفاع عن موقفه، أو تبريره، أو حتى التهوين من شأن المهاجمين سوى أنه نوع من المشاركة في الإثم؟

وعلى حين غفلة أتذّكر.. وبدون ما إرادة أضرب بجمع يدي اليمنى على جبهتي، فينظر إلي حسّان دهشاً وكأنه يتساءل.. فأقول له: لا.. لا شيء. ولكني في طبقة ما من نفسي، وبقدر ما سرى شيء يشبه رعدة الحمى في أوصالي، أتذكر، لست أدري لماذا، تلك النكتة السوداء التي أخذت تتخايل أمام عيني عبر الأسابيع الأخيرة، فأحسّ في الوقت نفسه بقدر من الاطمئنان.. كمن يعثر على شيء ضائع.. أتراها هي؟

وأقول في نفسي وأنا أنادي على السوّاس كي يصبّ طاسة لحسان.. أن تمسك بالشيء المتفلّت فتلك هي الخطوة الأولى للسيطرة على ما يقلقك.. على ما يسبب لك الخوف. ثم ما يلبث الإحساس بالارتياح أن يفلت من بين يدي كرة أخرى وأنا اتساءل: انها مسألة خارجة عن نطاق ذواتنا، إنها أكبر بكثير، فالويل لنا إن لم نتداركها بكل ما نقدر عليه.. أترانا سنستعيد يومها القدرة على الإبصار الذي لا يعكره شيء؟

«9»

الوليد

مسّدتُ على عنق الشهباء بحنان، فصهلتْ بصوت خفيض معربة عن امتنانها.. انكببتُ أكثر حتى لامستْ شفتاي صفحة وجهها اليمنى لمحتُ دمعة تجول في عينيها قبل أن تأخذ طريقها إلى الأهداب.

وحيدان يا شهباء في عرض الصحراء.. ولقد سرتُ معك طويلاً، وأعرف انني تجاوزت بك حدود الاحتمال فصفحك الجميل.. حتم عليّ أن أختزل المسافات.. فمن يدري، لعلّهم في إثري، ولن أسمح لهم بأن يصلوا اليّ.. ولابدّ من تصفية الحساب.. ولكن ليس الآن ..

الصحراء والوحدة والخوف، تجعلني أتوحّد أكثر مع الشهباء.. أكثر مع الأرض والسماء.. أكثر مع كل ذرّة رمل تستفزّها حوافر فرسي لكنها تتلقّى الضربة برحابة صدر، فتعرب عن قبولها بالرشاش الرمليّ الجميل.. وأحسّ شيئاً فشيئاً أنني بحاجة إلى كلمات أبي.. إلى قناديله التي تنير الطريق للمحزونين والخائفين والمدلجين في الظلمات.. لا أدري ممّ كان يستمد زيتها العلوي، لكنني كنت متيقناً من أن لهبها الصافي كالبلّور لا يمكن أن تكدره هباءة من دخان، وأنه مستمد من هناك من فوق.. من الكوكب الدرّي السابح في أعماق السماوات.. من الشجرة المباركة التي تعلو على التحيّز للمشارق والمغارب ..

منك يا أبي استمدّ القدرة على مواصلة الطريق.. منك حيث تعلّمتَ من شيوخك الكبار كيف تمزّق الأستار وتقف وحيداً، متجرداً أمام الله ..

وانتابتني قشعريرة وأنا أصرخ: يا عون الله.. وأحسست حتى أعمق طبقة في كينونتي بأنني اتطّهر تماماً.. وأنني جدير بالوقوف مع أبي.. بالصعود معه، بعبارة أخرى، إلى ساحات النور القدسي، والآفاق المضيئة، والحافات القصيّة التي لا يطالها ليلٌ ولا نهار ..

ومرة أخرى امسّد بامتنان على عنق الشهباء.. مرة أخرى انكبّ لكي الثم صفحة وجهها بإلفة وحنان ..

مررتُ ببدوي يجتاز الطريق، وحيداً هو الآخر.. خطر على بالي أن أسأله من أين جاء؟ وإلى اين هو ذاهب؟ وهل ثمة قرية صغيرة أو مضرب للخيام يقوم في مكان قريب..؟ فلقد كاد علف فرسي أن ينفد، ومعه طعامي.. والماء أصبح عزيزاً بعد أن تقاسمته مع الشهباء.. ثم إنني أريد أن أعرف منه فيما إذا كان قد سمع (عنهم) شيئاً.. عن جرادٍ اسمه المغول يمضي مغرّباً لا يلوي على شيء.. يجب أن أكون حذراً، متوفّزاً كعصفور يلاحقه صيّاد لا يرحم.. لن أسمح لهم بأن يذبحوني.. ولابدّ من تصفية الحساب.

يا هذا.. ناديت على البدوي بأعلى ما أستطيع، فلم يردّ علي.. يبدو أنه لم يسمع ندائي.. إنه يلفّ رأسه بكوفيّته بإحكام، فمن أين لي بأذنيه كي أوصل إليهما صوتي؟

شددت اللجام، وانحرفت عن الطريق متيامناً كي أقرّب المسافة بيني وبينه.. وصرخت كرة أخرى، فتباطأ قليلاً، ثم ما لبث أن أدار صفحة وجهه نحوي.. ها هوذا قد سمعني.. اقتربت منه أكثر وأنا الوّح له بيدي مرحّباً.. فردّ على تحيتي بتلويحة منه.. سألته إن كان يعرف مكاناً آهلاً في جهة قريبة، آوي إليه وأتزوّد منه بالماء والطعام، فأعلمني أن بيني وبين أقرب مضرب للخيام مسيرة ساعات.. قلت له: لا بأس.. ولكن أين الطريق؟ فدلّني عليه وقد وضع لي حشد من العلامات كي لا أضلّ.. وحذّرني من أن أي خطأ أقترفه قد يجعلني أضيع إلى الأبد.. سألته:

ـ وهل سمعت عنهم شيئاً؟

ـ من؟

ـ أعداء الله

نظر إليّ مندهشاً وكأنه يستوضحني، أو على الأقل يطلب مني إعانته على الجواب ..

قلت وأنا اتذكر أبي الذي ربّما تناوشته سيوفهم:

ـ المغول!

ازداد الأمر إشكالاً عليه، فآثرت الصمت.. علامَ أسأله كرة أخرى؟ إنهم منقطعون عن الدنيا، فمن أين لهم أن يعرفوا ما الذي حلّ ببغداد، ومن الذي أمطر أحياءها بالدم؟

أعربت له عن شكري، وهو متشبث بفرسه يحدّق فيّ كالتمثال وشددتُ اللجام ميمماً صوب أولى علامات الطريق الذي دلّني عليه.. ليس ثمة خيار، فلابدّ من اللجوء إلى أقرب مكان للتزوّد بالماء والطعام، مستفيداً من بقايا ضوء النهار قبل أن تمتصّه الظلمات ..

وقلت للشهباء: لا بأس فان هي الآ ساعات قلائل قد نحظى بعدها بالريّ والشبع والنوم..

سلكتُ بدايات الطريق التي دلّني عليها البدوي خبباً، ثم ما لبثت أن شددت اللجام، فإذا بالشهباء تنطلق كالسهم، كما لو أنها تبدأ رحلة يوم جديد.. كما لو أنها لم تقطع مئات الفراسخ، وتجري عشرات الساعات.. أي طموح هذا يتملك الحيوان، كالإنسان تماماً؟! أية رغبة جارفة تسوقه إلى تجاوز كل حيثيات الجسد وشدّه وأوهاقه، متخففة، رشيقة، ماضية كالسهم إلى أهدافها، مركزة طاقاتها كافة من أجل الوصول؟!

وفي محاولة مني لقطع الطريق على الجوع والعطش والإعياء حاولت أن اتذكر جذور الحدث.. بداياته الأولى، كما لو أن مفرداته

تتشكل أمامي اللحظة.. ومن يدري فلعلّها هي التي تفرض وجودها علينا في لحظات الخوف والفراغ.. هل يستطيع أحد منا ـ مثلاً ـ أن يستدعي أحلامه وهو يجتاز بالنوم رحلة الليل والظلمة؟ هل يستطيع أحد أن يأمر الرؤيا لكي تتشكل قبالة وعيه؟ انها تجيء، أراد أم لم يرد، ولكنها ـ لحكمة يريدها الله سبحانه ـ تؤدي دوراً ما على أية حال ..

ولست أدري لم كانت بدايات التشكل تتمحور دائماً عند الخليفة الذي ذبحه المغول.. رغم أنه ـ في قناعتي على الأقل ـ لم يكن البدء والمنتهى.. لم يكن بأكثر من حلقة ضعيفة هشّة في سلسلة طويلة من الحلقات التي كسرها الغزاة.. وتذكرت عبد العزيز.. كان يصبّ لومه دائماً على الخليفة.. لعلّها محاولة منه للهروب والاختباء.. وأنا أعرف عبد العزيز جيداً.. إنه يبحث دائماً عن مشجب يعلّق عليه الأعباء الكبرى لكي لا يبذل هو أي جهد جاد، ولكي يتخلص بشكل ما من وخز الضمير.. من أجل أن ينصرف ـ كعادته ـ إلى عالمه المتفرّد الذي يأبى أن يكدّره شيء!

هجرة الخائفين إلى بغداد أفراداً وجماعات، تزداد يوماً بعد يوم.. وأمراء الأطراف الذين مسّهم لفح النار يبعثون إلى الخليفة مستغيثين.. ورسل هولاكو الذي لا يرحم تترى على بغداد، إنه يعرف كيف يواصل الضغط فلا يدع أيّما فرصة لالتقاط الأنفاس.. لعينٌ هذا الطاغية في أساليبه الخبيثة التي تدع الحليم حيراناً، والآمن خائفاً مرعوباً.. وأتذكر كيف أتيح لي، عن طريق أحد أصدقائي المقرّبين من الديوان، أن اطلّع على نصّ واحدة من تلك الرسائل الموجهة إلى الخليفة، كان هولاكو قد أرسلها قبل اجتياح بغداد ببضعة شهور، تضمّنت عتاباً وتهديداً.. هذا هو أسلوب الطاغية مع حكام الأرض.. ومع العتاب والتهديد دعوة لإعلان الطاعة والحضور لمقابلته في مراغة، وهدم حصون بغداد!

رسالة أخرى حدّثني عنها الشيخ الصرصري رحمه الله تتضمّن

تقريعاً شديداً وإنذاراً للخليفة بالاستسلام أو الاستعداد للحرب.. وقال صديقي وهو يتنهّد:

ـ أتدري بم ختم اللعين رسالته؟

وقبل أن أحرّك شفتّي قال وكأن كلمات هولاكو قد نقشت في ذاكرته بحبر كسواد الليل:

ـ «انني متوجّه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد»!

كنت أعرف أن هولاكو يبالغ كثيراً، وأن هذه واحدة من أساليبه الماكرة في تدمير معنويات الخصم.. لكنني كنت موقناً أنه قدير على أن يفعلها، وأنّ بغداد، إن لم تفق وتتدارك الأمر فستكون نهباً للجراد.

حاولت أن أقول هذا للشيخ الصرصري، لكنه كان مستغرقاً في حديثه فلم يعرني التفاتاً، وواصل:

ـ المشكلة يا بني أن الحاشية التي هي مناط الأمر في ظرف صعب كهذا، انقسمت على نفسها، وتناوشتها الأوهام والظنون فلم تستطع أن تمدّ يد العون للخليفة وتمنحه الرأي السديد، لكي يضع الدفّة في الاتجاه الصحيح.. ابن العلقمي الوزير ينصح بالملاينة، والدفع بالمال، وجعل الخطبة والسكة تحملان اسم هولاكو! والدويدار قائد الجيش يدعو للمقاومة والقبض على رسل هولاكو.. وهولاكو يواصل رسائله ضاغطاً أكثر على أعصاب الخليفة ..

قلت مقاطعاً:

ـ لكن الخليفة عرف كيف يستخدم الأسلوب نفسه!

سألني بابتسامة تنضح بالسخرية والمرارة:

ـ كيف؟

ـ بعث هو الآخر يهدّد هولاكو بملوك الأرض الذين سيهبّون من الشرق والغرب للدفاع عنه.. وبقدسية الخلافة والمصير الذي أحاق ويحيق بكل من أراد بها شرّا!! وبالملايين الذين هم رهن إشارته!

بالابتسامة الساخرة المرّة نفسها أجاب:

ـ ولكن الفارق كبير يا بني.. الفارق كبير!

كنت أعرف أنه كبير حقاً، وأن كلمات هولاكو تحمل مصداقيّتها إلى حدّ ما أما كلمات الخليفة فماذا تكون؟ ذلك هو منطق الأشياء.. كنت أعرف ذلك تماماً، ولكنني أردت استيضاحاً أكثر من شيخ مجرّب كالصرصري، لعلّه بشكل من الأشكال نوع من البحث عن حماية بعد إذ أصبحنا مكشوفين إلى هذا الحدّ ..

وقال الشيخ الصرصري بهدوء عميق مترع بالحزن:

ـ لقد حذّرنا كتاب الله من مصير كهذا.. وطالما نادتنا آياته البيّنات أن نمنح الغطاء الكافي لكلماتنا وإلاّ أصبحت كالورق الذي تعبث به الريح ..

استوضحته مرة أخرى، فقال، محاولاً أن ينهي الحديث:

ـ بالتحقّق بالقوة المادية يا بنيّ.. بشحذ السلاح يمكن أن نحمي الروح والقيم والمقدّسات، وبدونها لن نستطيع أن نفعل شيئاً ..

قلت متنهداً وهو يغادر المكان:

ـ آه لو أن رجلاً كهذا كان يقف في أحد المفاصل الحساسة للسلطة أكان يمكن لرسائل هولاكو أن تدمرّ أعصاب الخليفة، وأن تجعل قادته ووزراءه ينقسمون على أنفسهم فيتّسع الخرق الذي يتدفّق منه السيْل؟!

«10»

حنان

سألته إن كان يحبّذ إقامة حفل مناسب يوم القران، ندعو فيه الأهل والمعارف والأصدقاء، ونتحاشى كل عتاب.. وأشرتُ إلى دجلة التي تنساب بهدوء أسفل الشرفة، مضيفة بأن من المبهج أن نستأجر سميرية تمضي بالمدعوّين جنوباً، وقلت له:

ـ إنها فرصة طيبة أن نعينهم ونعين أنفسنا على التخفّف قليلاً مما يعانيه الناس هذه الأيام ..

قال وهو يلقي نظرة على الحافة الأخرى للنهر حيث تطل الأقسام العليا من المستنصرية:

ـ ها أنت قد أغنيتني عن الجواب!

لم أدرك ما يرمي إليه.. أردف:

ـ إن الوضع لا يساعد على إقامة مثل هذه الحفلات!

ـ كيف؟

ـ الناس قلقون يا حنان، والخوف يأخذ بخناقهم، ولا أعتقد أنّهم سيرحّبون بالفكرة.. بل أن أكثرهم يميل إلى الاعتذار عن الحضور.. إنهم يعتقدون أن البقاء في بيوتهم هو الموقف الأكثر سلامة في ظروف كهذه ..

قلت وأنا أدافع عما اعتبرته حقاً مشروعاً.. أن اتشّبث بالفرح الممكن، فقد لا يكون ممكناً في يوم ما:

ـ لكنها مجرد شائعات، وأنت تعرف ما يمكن أن تفعله الشائعة في مثل هذه الأيام.. إننا إن استجبنا لها فلربما تسوقنا إلى الشلل.. و ..

قاطعني مبتسماً:

ـ شائعات؟ أبداً.. إنهم قادمون يا حنان، والمسألة مسألة وقت فحسب!

ـ والخليفة يا عبد العزيز؟ وجيشه؟ أترى المغول سيحضرون حفلاً ترفيهياً في بغداد؟

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك!

ـ ولكن ..

قاطعني مرة أخرى:

ـ انظري جيداً.. ماذا بمقدور الخليفة وأصحابه أن يفعلوا؟ ثم أنهم حتى لو أرادوا القيام بعمل ما، فان حيثيات الفعل لن تجعلهم بأي شكل من الأشكال أنداداً للعدو . إنها معركة غير متكافئة بكل تأكيد ..

اعتصرتني موجة من الكآبة.. وفي محاولة للتحرّر منها حاولت أن أندفع إلى الطرف الأقصى من التفاؤل:

ـ الخليفة ليس وحده في الميدان.. هناك ..

للمرة الثالثة يقاطعني.. هذه المرة كانت تكسو وجهه ظلال سخرية لم أرتح لها:

ـ أعرف ماذا تريدين أن تقولي، لكنني أقولها جازماً: إن المعركة غير متكافئة ..

حاولت أن اسلك طريقاً آخر للهروب من حصاره، أو ما اعتبرته من جهة أخرى، مناورة منه للتملّص من إقامة الحفل الذي اقترحته عليه:

ـ الأمر ليس لي ولك فقط يا عبد العزيز.. الا يجدر أن تأخذ رأي أبي وأخي؟

قال وملامح السخرية المبطنة بقدر كبير من اليأس تكسو وجهه،

أو ربما اللامبالاة، أو شيء آخر لم أقدر على الإمساك به تماماً:

ـ لم تلحقي أمك بالقائمة!

اعتبرته أوّل استفزاز أتلقّاه منه منذ أن تعرّفت عليه.. لكنني قرّرت أن أتجاوزه، رغم أن الكلمات تعثّرت في حلقي، وسألته:

ـ ألا يمكن أن يكون للوليد رأي آخر؟

أجاب بكلمات متباطئة، تعمّد أن يطول الفاصل الزمني بين إحداها والأخرى:

ـ إنني.. مع.. أبيك.. بخصوص.. الشكليات.. في موضوع.. كهذا وأنا أعرف.. أباك.. جيداً.. إنه.. يرفض.. المظاهر.. وهو.. لا.. يولي اهتمامه.. سوى ..

للحقيقة.. وحدها ..

بعصبية ظاهرة، رغم محاولة السيطرة عليها، أجبته:

ـ لقد ابتعدت كثيراً عن الموضوع ..

ـ بل إنني في صميم الموضوع!

قطعتْ أمي الحديث بندائها عليّ.. أنقذتني في الواقع من الحصار الذي وضعني فيه عبد العزيز.. إنه شيء خارج عن المنطق.. شيء لا يخضع للجمع والطرح والحسابات الدقيقة.. أن تفرح في يوم قرانك.. أن تعبّر عن فرحك بشكل من الأشكال، وأن تجعل الآخرين يفرحون معك ومن أجلك.. شيء يمكن أن يكون فطرياً.. تماماً كما تخرج البراعم والنباتات البرّية في موسم الربيع دون أن يدعوها أحد.. تخرج لكي تمنح الربيع نفسه تنّوعاً وزهواً وحركة وخصباً.. انها أيضاً ممارسة عفوية تتجذّر في أعمق طبقة من حياة الناس، وهي عندما تتعرّض للتفكيك وإمعان النظر، تفقد معناها، وربما مبرّرات وجودها أساساً.. لكن عندما ندعها تعبّر عن نفسها كما تريد هي تماماً، فإننا نراها، ونلمسها، ونشّمها، كما لو كانت المعنى والمغزى.. كما لو أن الحياة نفسها ـ بدونها ـ لن تقدر على مواصلة البقاء.. إن أفراحنا، وعاداتنا،

وتقاليدنا، واحتفالاتنا لهي من هذا النوع.. تنبت وتزهر.. وتتألّق بالبهجة دون أن يكون بمقدور أحد أن يقول لها: قفي.. لكي أسألك عمن أعطاك حق الزهو؟ عن الرخصة التي سمحت لك بالمرور؟!

تركته وحيداً في الشرفة، مستجيبة لنداء أمي، والتفتّ، وأنا أبعد قليلاً باتجاه الفناء الداخلي، فاذا به منهمك في تصفّح كتاب كان قد اشتراه مساء اليوم.. وإذ رأيته كذلك، طمعت في أن احدّق فيه أكثر.. كان مأخوذاً تماماً بالكتاب.. وخيّل اليّ أنه ليس بمقدور هموم الدنيا، ولا أفراحها، أن تعطيه إشارة ما، أو إثارة محفزّة تجعله يخرج عن المملكة التي نذر نفسه لها.. وقلت في نفسي، متألمة بعض الشيء: لا بأس، فلسوف أعرف كيف أعيده إلى الحياة كرة أخرى، ليس برفض الكلمة بطبيعة الحال، وانما بها ومعها.. أتراني سأكسب المعركة؟

دلفتُ إلى المطبخ فاذا بأمي غارقة حتى شحمة أذنيها في السمن واللحم والسكّر والمكسّرات، والدخان يدوّم في الفضاء فلا أكاد أتبيّنها تماماً.. وصحت بها لكي أوصل صوتي إليها وسط أزيز السمن المقلي:

ـ الهذا دعوتني؟

قالت، وهي تضيف حفنة أخرى من السمن إلى المقلاة فما يلبث الأزيز والدخان والروائح المثيرة أن تعجّ دفعة واحدة:

ـ انك تنسين نفسك دائماً.. الا ترين أنني بأمسّ الحاجة إلى معونتك؟

قلت وأنا أتذوّق اللحم المقلي وأضيف إليه البصل والكمون والكراث:

ـ أعرف ذلك يا أماه.. ولكن ليس من المعقول أن اتركه وحده ..

ـ بعد قليل سيجيء أبوك، وربما الوليد، ولن يظل وحده، أما أنت فانني أريد مساعدتك، وإلاّ فان العشاء لن يكون جاهزاً قبل منتصف الليل ..

أجبت وأنا أتناول من القفص القريب شيئاً من النعناع والتوابل وحبّتين من الليمون:

ـ لا أدري سبب غرامك هذا بالسكباج، إنه أكلة معقدة يكفي أن نتناولها مرة واحدة في العام ..

ولكنها وجبة أخيك المفضلة ..

ـ مع ذلك.. فان الذي يقرصه الجوع يستسيغ أي طعام فلا يفرّق بين الحساء والسكباج ..

قالت وهي تنهمك بتقطيع الباذنجان وإضافته إلى محتويات القدر ثم تصبّ عليه كوباً من اللبن:

ـ ما كنت أظن أن عبد العزيز سيجعلك تتمرّدين على الطبخ..

أردت أن أرجع ثانية لكي اعتذر إليه واستأذنه لفترة أطول، وأقول له إن عليه أن ينتظر قليلاً ريثما يرجع أبي.. لكنني تذكرت.. إنه الآن مستغرق تماماً في طوايا المصنّف الجديد الذي يتصفّحه، ومن يدري فلعلّه نسيني تماماً، وربما تكون عودتي إليه إزعاجاً له عن استغراقه.. فلأتركه على هواه ..

ومن بعيد.. من أفقٍ ما غير مرئي ولا ملموس، حاولت أن تتناوشني مشاعر تتأرجح بين الوحشة والكآبة والإحساس بالعزلة، اخترقها للحظات قلق ممضّ قد يكون مبعثه واضحاً تماماً هذه المرة: ما الذي سأفعله تجاه إصراره على تجاوز ما يسمّيه دائماً بالشكليات التي لا ضرورة لها، والتي اعتبرتها من جهتي من مطالب الحياة الأساسية ومبرّراتها؟ وقلت في نفسي: دعكِ من هذا الآن، فان له موعده، ولعلّ الوليد بتأثيره الملحوظ على عبد العزيز يمكن أن يغيّر اتجاه الدفّة لصالحي.. فلماذا القلق؟

وفي محاولة مني لنسيان الأمر كلّه، حاولت أن أنغمر مع أمي في أعمال المطبخ.. لطالما جرّبت هذا كوسيلة للهروب، وربما للتحقّق

معاً.. وكنت أحسّ دائماً بنوع من التوازن والارتياح.. وصرخت وسط نوبة حماس مفاجئة:

- ها أنا ذا يا أمي، مريني فان لك عليّ السمع والطاعة.. أتريدين أن أهيّء الحصرمية والسلاطة؟

كادت أن تجيبني بالصراخ نفسه، ولكنها اكتشفت فجأة أن أزيز السمن كان قد هدأ، فخفضت صوتها:

- الآن أضمن لخطيبك وجبة العشاء في موعدها تماماً ..

- واللوزينج؟

قالت بتردّد:

- وعدني الجيران بإرسال طبق منه.. فاطمئني ..

- ولكن ثمة ما نسيته ..

بالاعتداد نفسه أجابت:

- لم أنس شيئاً ..

- ولكنك نسيته بالتأكيد.. التفاح الشامي الذي يفضله عبد العزيز!

قالت وقد أسقط في يدها:

- هذه ليست غلطتي

- أظنك ستعلّقينها على مشجب أبي ..

- بكل تأكيد ..

- ولكن أسعاره أصبحت لا تطاق ..

أدارت لي ظهرها قائلة وكأنها تحسم الأمر:

- ها أنتِ قد نقضت الاعتراض بنفسك انفتح باب الفناء فجأة.. لحظات.. وإذا بوجه أبي يطلّ علينا، قال وهو يمسّد لحيته البيضاء، ويرفع قلنسوته قليلاً لكي يمرّر يده على رأسه ذي الشعر الخفيف:

- ها أنت ذي هنا إذن.. وعبد العزيز وحده في الشرفة ..

- كنت معه يا أبي قبل دقائق.. وأمي بحاجة إلى المساعدة وهي

لن تقدر وحدها على إعداد العشاء ..

قال وهو يلقي عليها نظرة مترعة بالحنان:

ـ فيها الخير والبركة.. فمن كان يعدّ وجبات العشاء لضيوفي الذين لا ينقطع سيلهم، قبل أن تجيئي للدنيا؟

نظرتْ أمي إليه بامتنان دون أن تقول شيئاً، وأردف هو:

ـ هيا يا حنان.. فإنه هناك وحده، ولا اعتقد أنه يريدني أن أجلس معه.. لقد كفته ساعتان قضاهما في حانوتي ظهر اليوم ..

ذكرتني عبارته الأخيرة بما كنت قد حاولت أن أتناساه فقلت لأمي:

ـ إنه ليس وحده.. وأنت تعرف ذلك جيداً يا أبي.. فان معه مصنّف جديد ويبدو أنه لم يعد يحسّ بالزمن فلماذا أقطع عليه استغراقه؟

وقالت أمي:

ـ كفّ يا رجل عن ملاحقتك إياها، ودعها لي إذا أردت أن تضمن عشاءك ..

قال مبتسماً وكأنه يتحدث بلغة أخرى:

ـ لقد ضمنته منذ زمن بعيد!

لم تدرك أمي مغزى عبارته، كما أنها لم تعلّق عليها بشيء.. وعندما التفتّ إلى باب المطبخ وجدت أبي قد ترك المكان، وقلت في نفسي، بذلك النوع من الجدّ الذي يبطنه شيء من الهزل: إنه يستغرق هو الآخر في عالمه الأثير.. وعبد العزيز يستغرقه الكتاب.. وأمي مستغرقة هي الأخرى في إعداد العشاء.. وكل شيخ وله طريقة كما يقول المثل.. فهلاّ أستغرق أنا الأخرى بشيء ما؟ وهتفت مرة ثانية:

ـ مريني يا أمي فها أنذا بين يديك ..

«11»

عبد العزيز

أكثر فأكثر بدأت أحس بأن حنان أصبحت جزءً من حياتي يصعب الاستغناء عنه.. وكنت أجدني مسوقاً بين الحين والحين للذهاب إلى بيت عمي وقضاء ساعات عذبة هناك.. حينا بمعية العم والعمة وحنان، وحينا على انفراد.. وقد ينضاف إلينا الوليد أحياناً.. انه كثير الانشغالات، كثير الحركة.. نموذج للشخصيات الجيّاشة التي لا يقرّ لها قرار إلاّ تمارس عملاً أو تحقّق إنجازاً.. إنه يتألقّ في ساحات المستنصرية.. ويبيع ويشتري في دكان أبيه بمهارة.. ثم هو عندما يصطحبه إلى الجيلاني يعرف كيف يضع خطواته على السلمّ الصاعد إلى الأعالي، ويرتقي مع شيوخ الوجد والمحبة إلى السماوات!

حيّرني هذا «الوليد»، ولطالما أردته أن يتمحض معي للمعرفة وحدها.. للعقل الذي لا يكفيه عمرٌ أو عشرون عمراً.. وأن نمضي سوية لكسر الطلاسم وفك الرموز عن العالم والوجود.. انه يملك الاستعداد ويوغل مثلي، وهو قد قطع خطوات كبيرة في المضمار، واجتاز الموانع والمتاريس.. تشهد على ذلك حوارياته المتألقّة في المستنصرية، وأسئلته المدهشة للشيوخ.. تشهد عليه أيضاً بحوثه التي يتقدّم بها في نهاية كل سنة في الأصول والحديث والمنطق والنحو والبلاغة.. لكنه على أية حال لم يدع المعرفة وحدها تأسره وكما كان يقول، لم يسمح لها بأن تأخذه، كما فعلت معي، وتبعده عن كل الإشياء والهموم والنداءات الأخرى.. وبالرغم من ذلك، بل ربما بسببه، وجدت الوليد ضرورياً

بالنسبة لي، فلم أعد أتخيّل كيف يمكنني أن أفترق عنه، ولعلّه من حيث لم يدر، كان سبب انجذابي إلى حنان، والانقلاب على قناعتي التي أمسكت بتلابيبي حيناً من الدهر: الاّ أتزّوج أبداً، فلن أسمح لأي شيء في هذا العالم أن يبعدني ولو خطوات عن ساحات العرفان، فكيف بالزوجة والبيت والأولاد؟

شيء ما كان يزعجني في حنان.. شيء لم أكد أتبيّنه في الأيام الأولى.. كان أشبه بالهاجس الخفّي الذي يورثني قلقاً وأنا أجلس إلى جوارها.. حاولت أن أحدّد ماهيته رغبة في السيطرة عليه، فلم أستطع حتى منحتني هي نفسها الفرصة للامساك بالخيط عندما أصرّت على أن نقيم يوم قراننا حفلاً كبيراً، وأن نمضي بالمدعوّين على ظهر سميرية تنحدر بنا في دجلة صوب الجنوب، وكأننا فرجة يتسلّى بمرآها الناس.. هذا التشبث بالشكليات يستفزّني، بل إني أحسّ إزاءه بنوع من الحصار.. أكثر من ذلك.. اختناق من نوع ما.. لم تكن تهمنّي البتة المبالغ التي ستنفق عليه، انما هو الوقت المستقطع فيما هو خارج عن الضرورات.. أيضاً.. فان فكرة التظاهر التي تطفو على سطح الحياة الاجتماعية، غير متجذّرة في هموم الناس الحقيقية، لا أرتاح لها على الإطلاق ..

حاولت أن أقنعها فلم أنجح.. قلت لها إن علينا أن نبحر في مواجهة التيّار إذا كان التيار نفسه يمضي في غير وجهته الحقيقية.. فلم تعرني أذناً صاغية.. كانت ترفع بوجهي سلاح العتاب الصامت الذي ما يلبث أن يتحوّل إلى نوع من التوتّر، وربما يتجاوزه إلى الغضب، وتبادل الأفعال وردودها، وكنت اعتصم بالصمت مرجئاً الأمر إلى فرصة أخرى.. لكنها كانت بدافع من الخوف من سقوط وتكسّر أمنيتها العزيزة التافهة هذه، تعود لكي تتشبث بها أكثر فأكثر ..

أبوها كان يقف إلى جانبي في كثير من الأحيان.. أمها ـ كالعادة ـ كانت تزيدها تشبثاً وإصراراً.. الوليد مشغول دائماً.. غائب في معظم الأحيان.. قد يلتقي في أن حياتنا أقصر من أن نضيّعها في عبث كهذا..

لكني لم أجرؤ على مفاتحته خشية أن يتهمني بالحماقة وقلّة الذوق.. هكذا هو معي دائماً.. صريح ومكشوف.. وأنا اتقبل هذا منه مرتاحاً.. ألا يكفي أنه الوليد؟

على أية حال فان مسألة كهذه ما كان يمكن أن تعكّر نهر الصفاء العذب الذي أبحرت وحنان فيه.. لو أنها بقيت لوحدها.. أو بعبارة أخرى، ظلت منعزلة لا تحمل أية دلالة أخرى خارج حدودها الضيّقة.. لكنها إذ أخذت ترتبط بحشد من المفردات التي راحت تتّضح وتتكاثر وتزداد ثقلاً بمرور الأيام.. بدأت أضيق بها ذرعاً.. أحسّ كما لو أنّي محاصر، وأني قد أنزلق خارج مملكتي فيما لم يخطر على بالي يوماً أن أسمح لأحد بأن يجرّني إليه ..

إنها تريد أن تعيش حياتها كامرأة.. وهذا أمرٌ طبيعي تماماً.. حقّها المشروع.. لكنني من جهتي أريد أن أحيا خياري كاملاً.. وهذا حق مشروع أيضاً.. وأية محاولة لاختراق قناعتي هذه، أو المساس بها، قد ينذر بالسوء ..

كنت أتعمّد أن أحمل معي لدى كل زيارة لها، كتاباً من آخر ما تعرضه حوانيت الورّاقين، وكنت أتشاغل بتقليب صفحاته وأنا أتحدّث معها.. وبدأت أحسّ، ربما لأوّل مرة، أن فكري يعاني من التشتت.. من الدوران في الفراغ.. ومن أجل العودة إلى التوحّد، من أجل استعادة صفاء الرؤية.. كنت أريدها أن تشاركني القراءة.. وهي كأبيها وأخيها كانت تملك ذكاءً مدهشاً وخلفيات معرفية واسعة، لكن ما كان بمقدورها أن تمضي بعيداً.. أن تتابعني حتى النهاية ..

أحياناً ألوم نفسي وأضعها في دائرة الندم قائلاً: إنك تريد منها أكثر مما هو في حدود قدرتها.. ثم هي امرأة على أية حال.. لا تكن أنانياً يا عبد العزيز، فان رؤيتك للأشياء ليست هي الرؤية الوحيدة في العالم.. ثم هي، كرة أخرى، امرأة، وليس من العدل ولا من طبيعة الأشياء أن تتّحد الوجهتان ..

ينعكس هذا على زيارتي التالية.. أبدأ معها هيّناً ليّناً.. أسمح لها أن تجرّني قليلاً إلى حافات الحياة كما يريدها الناس، وكما تحلم بها كل أنثى.. الفرح والبهجة.. والاحتفاليات.. ومشاركة الآخرين.. وطقوس الزواج المعروفة.. والبيت والمطبخ والأطفال.. ثم ما ألبث بمرور الوقت، أن أحسّ بالشيء نفسه: الحصار، والرغبة في العودة ثانية إلى جزيرتي التي ابتعدت عنها كثيراً.. وكان هذا يؤلمها.. انها تريدني أن أكون معها باستمرار.. كانت تتكدر عندما تراني أشرد للحظات.. أتراه نوع من الهروب؟ أم هي الرغبة الآسرة في خفقة العقل وتوفّر الفؤاد؟!

في كثير من الأحيان لم يكن الأمر بيدي.. لم يكن خياري أن يقف قبالتي فجأة أحد أساتذتي في المستنصرية فاشرد بعيداً ..

إن مجرد تذكر محيي الدين العاقولي وهو يتدفّق كالشلال في درس الأصول الذي يغدو على يديه محاولة فائقة لإعادة صياغة الحياة، وهندسة الوجود.. مجرد استرجاع قدرة عبد الرزاق بن رزق الله الذي مرّ بنا صبيحة يوم أمس شيخاً زائراً، على تذكّر قوائم المحدّثين الذين يتجاوز عددهم الألوف، ووضع كل واحد منهم في لحظة خاطفة، في المكان الذي يستحقّه.. مجرّد أن اتخيّل أبا عبد الله الحصين وهو يجعل من درس النحو معادلات من الدرجة الرابعة في الرياضيات، واللغويات، والبلاغيات.. فيما تبدو معه مواقع الكلمة في الجملة مرتبطة بألف سبب، وحيث تتجاوز صيغها الصوتية أو الادائية لكي تكشف عن أبعاد أخرى تضعنا عند حافات الجمال.. ويعقوب الأنصاري؟ وعز الدين الموصلّي؟!

من ينقذني من الأسر؟ من يمنحني القدرة على الانفكاك والعودة كرة أخرى إلى الحياة؟ أترى بمقدور حنان أن تفعلها؟

تمنيت ذلك أحياناً، وأسلمتها عنقي.. لكنني ما أكاد أمضي خطوات معها، وهي تدلف بي هنا، وتتخاطر هناك، حتى أتوقّف لحظات، متذكراً شيئاً ما.. ثم ما ألبث أن اسحب يدي من بين يديها،

وأتراجع قليلاً.. وقد أشرد ثانية متذكراً شيوخي، منغمراً في معضلات المنطق والفلسفة وجماليات اللغة ومقايسات الأصول ..

يتلّبد الجوّ بالسحب المتناثرة هنا وهناك.. ويدخل علينا الأب أحياناً، فيعرف، بلمحة، إن كنا سعيدين حقاً، أم أننا نجترّ تعاساتنا، فيلقي بالكلمة التي تحمل دلالتها، بلسماً يعرف كيف يداوي الجراح، ويعيد الخفقان إلى المحبّة، هذا الرجل لا أدري من أين يستقي مفرداته؟ مع أي قاموس يتعامل فيصنع بكلمات قلائل ما لا تقوله المصنّفات؟!.. يرغمني على الانبهار وهو يردّد كلمات شيوخه: «المتلفّت لا يمشي معي، ولا يصلح لمسامرتي.. إذا رأيت سواي فافتتنت فقل: يا رب هذا بلاؤك، فأرحمك!! يا عبد، تعرّفت إليك وما عرفتني، ذلك هو البعد.. تسمح خطابي لك من قلبك ولا تعلم أن ذلك الخطاب مني.. ذلك هو البعد.. ترى نفسك وأنا أقرب إليك من نفسك، ذلك هو البعد»!!

وأقول في نفسي: لماذا لا يعطانا هذا في المستنصرية؟ ألا ينطوي بشكل من الأشكال على بُعْدٍ عقلي؟ لغة خاصة؟ منطق من نوع عالٍ في التعامل مع الظواهر والأِشياء والموجودات، ومحاولة اكتناه جوهرها ومغزاها؟

أحياناً أخرى يطل علينا الوليد.. أحسّ بالفرح يغمرني، لكنه ما يلبث أن يغيض.. فمنذ شهور طويلة والوليد لا يجيء الآ وهو محمّل بالأنباء المقلقة.. عن الجراد الزاحف من الشرق.. وهو يستفزّني دائماً بأننا في وضع كهذا فان المعرفة وحدها لا تكفي، بل لعلّها تكون نوعاً من الجبن والهروب، وعندما يراني أنظر إليه بدهشة متسائلاً، يستنكر دهشتي وتساؤلي، ولعلّه يراهما تعبيراً أكثر استعصاءً عن الرغبة في الهروب، ولكنه يضيف:

- سيكون لي معك حديث طويل، ليس هذا أوانه يا عبد العزيز..

وأقول في نفسي: ألا تكفيني حنان؟!

«12»

سليمان

يصعب على المرء أن يكون شاهداً على عصرٍ دموي.. لقد نشأنا في ظلال الإلفة والمحبة.. ننساب فرادى وجماعات إلى مجالس الوعظ في المساجد، وحلقات القصص في الطرقات، والمنازل والأحياء، ثم ما نلبث أن نفيء إلى حصننا العتيد: جامع الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله.. نتلقى العلم.. نؤدي الصلوات.. ونجعل الدنيا تحت أقدامنا، كما علمنا الشيخ.. ثم نبدأ رحلة الصعود الصعبة والممتعة.. المحزنة والمبهجة.. إلى الأعالي.. فما هي الآ لحظات ننسى الدنيا وما فيها.. أيعرف أحدكم معنى أن يسير المرء في السماء متحرّراً من شدّ الأرض، وكثافة الطين، مطّرحاً كل ما يعيق حركته التي ترفّ ضياء ونورا.. أن تقول لحواسّك: كفي عن العمل، ولروحك: امضي حيث تشائين.. فانه يعني أنك تعيش الحياة في مستوياتها العليا وأنك تجاوزت ما اصطلح على تسميته بالحياة الدنيا.. خلّفتها وراء ظهرك.. صحيح أنك سترجع ثانية إليها.. وستعاني البطء والشدّ والأوجاع.. ولكن ليس قبل أن ترتشف قطرة عذبة من رحيق الملكوت ..

«الواقف بين يدي يداه فوق متون السماء والأرض، وفوق الجّنة والنار.. لا يلتفت إلى كل هذا فأنا حسبه.. كيف تنظر إلى السماء والأرض، والشمس والقمر، وإلى كل شيء؟ وذلك أن تنظر إليها بادية مني، تسبّح بحمدي وتقول: ليس كمثله شيء.. لا تذهب عن هذه الرؤية

تختطفك المرئيات، ولا تخرج صفتّك عن هذه الرؤية تختطفك صفتك!!».

نغادر المسجد عائدين إلى دورنا ودكاكيننا بألف جناح.. وهناك في الدكان اتلقى سيول الأصدقاء، وتدور أحاديث شتى، يقطعها بين الحين والآخر عشاق الكلمة الذين يتقافزون بخفة ورشاقة بين رفوف الكتب، يتصفحونها ويختارون ما يقدرون على شرائه.. يود أحدهم لو يملك ملء الأرض ذهباً لكي يشتري به كنوز الدنيا.. كنت ألمح في نظرات بعضهم جوعاً عجيباً.. يقلّب الكتاب على عجل.. يتابع عناوين فصوله بشغف، ثم ما يلبث أن يضعه لكي يخطف كتاباً آخر يعانيه بمحبة.. أراه وهو يتحسّس ما في جيبه، وإذ يتبّين له أنه لن يسعفه، يعيد الكتاب، حزيناً، إلى مكانه.. وبمرور الوقت أخذت أميّز بين صنوف المتعاملين مع الكتاب.. بعضهم يتخذه زينة للبيوت، ويبدو أنه اقتنع بأن الدار التي لا مكتبة فيها فانها والقبر سواء.. بعضهم أصبح يعاني من حالة إدمان على شراء الكتب وتغذية مكتبته بالمزيد.. بعضهم لا يشتري إلاّ ما يعرف مسبقاً أنه سيقرؤه، أو على الأقل سيفيد منه في بحوثه وتصانيفه.. وثمة فئة أخرى تفوق هؤلاء جميعاً، وكنت ألمس لهفة عيونهم وهي تعانق هذه الورقة أو تلك.. يتمنون أن تكون لهم ألف حياة، ليس محبة في الدنيا، ولكن عشقاً للمعرفة، ورغبة آسرة في أن يقرأوا كل ما كتبه الإنسان.. أن يلتهموه التهاماً ..

سعيدة عذبة تلك الساعات التي ما كنت أحسّ بمرورها وأنا أعاين هذا الصنف من العشّاق، المدمنين على سوق الكتب وحوانيت الورّاقين.. حلوة تلك الدقائق التي كانت تقطع علي جلساتي مع الزائرين، لكي أبيع هذا الكتاب، أو أعطي رأيي في ذاك.. كانت السماء القريبة بصفاء البلّور، وكان وهج الروح يزيدها ألقاً وبهاءً.. وها هي ذي الكلمة تنضاف لكي تفعل الأفاعيل.. أية بهجة هذه، وأي عنفوان لذيذ؟

لو أن ملوك الأرض ذاقوا حلاوته لقاتلونا عليه، كما كان يردد شيوخنا في الجيلاني.. ولكنهم قوم لا يعلمون.. ثم ها هي الرغبة الدنيا بتملك الأرض تجيئنا لا لكي تقاتلنا على لحظاتنا المضيئة هذه، إنما على المزيد من التملّك، والتكاثر، والالتصاق بالأرض، والهبوط إلى الظلمات.. وسوف يكون الضياء هو الضحية الأولى، وسوف ينطفي النور، وتمتد العتمة إلى كل مكان ..

وأتذكر ما ينقله الشيوخ عن ذي الجلال: «المتلفّت لا يمشي معي ولا يصلح لمساري.. إن رأيت غيري لم ترني.. القني وحدك مرة أو مرتين أحفظ لك عزمك.. أتدري كيف تلقاني وحدك؟ أن ترى هدايتي لك بفضلي، لا أن ترى عملك.. وأن ترى عفوي لا أن ترى علمك.. ردّ علي علمك آخذه بيدي وأثمره ببركتي، وأزيد فيه بكرمي »!

بدأت الغيوم تطلّ على الأفق الشرقي.. خفيفة متقطعة.. بناء من هنا وخبر من هناك.. شائعة يتداولها الناس قد لا تقوم على أساس.. وشهادات ينطق بها أفراد رأوا وسمعوا.. وفي كل الأحوال فان الناس سرعان ما ينسون.. وبغداد، من بين سائر مدن الدنيا، تعرف كيف تنسى.. انها وهي تمور بالحياة، تلفّ الهموم الصغيرة والكبيرة على السواء.. تعرف كيف تطويها.. انها تنبض دائماً.. صباح مساء، لا تكل ولا تملّ.. كالقلب المترع صحّة وعافية.. وهي تدور، وتتمخض، وتعطي، لا تكاد تحرم أحداً من عطائها الخصب الموعود.. المتعطّشون إلى رشفات الروح.. الهائمون في ملكوت العقل.. الباحثون عن لذائذ الحسّ.. الحالمون باشواق الوجدان.. والمتكاثرون بالأموال والأشياء.. كلهم يجد في بغداد ما يشتهي.. وهم من أجل هذا جاءوا إليها من مشارق الأرض ومغاربها.. واتخذوها سكناً.. ومع شعاع الشمس الأوّل يبدأ التدفّق من كل مكان في بغداد، وإلى كل مكان، كأنّ يداً سحرية قادرة قالت للنائمين: قوموا، فقاموا.. من الدجيل والاسحاقي ونهر

ملك ونهر عيسى وباب البصرة في أقصى الحافات الغربية، إلى باب الحلبة وكلواذى والبصلية وسوق الخيل في ظاهر بغداد الشرقية.. أما الكرخ والرصافة فلا يكاد المرء يجد فيها فراغاً من أي نوع كان.. وبأي معنى قد يوميء به المنظور.. انهما تتفجران بالحركة والحياة.. بالناس والأشياء.. بالكلمات والأفعال.. وبكل ما تنطوي عليه الدنيا من قيم وعادات وأنشطة وممارسات ..

لكنّ للنسيان حدوداً كما يقولون.. وهو في حالات الخطر الذي قد يستفزّ مدينة كبغداد، يتحول إلى هروب بشكل من الأشكال وقد يكون نوعاً من قتل النفس!

الغيوم بدأت تتكاثر، والأفق الشرقي أخذ يزداد عتمة يوماً بعد يوم.. والأنباء التي ترد من هناك لم تعد تسّر.. ويزيد البغداديين حزناً أنهم لم يجدوا أذناً صاغية لصوت النذير.. فلا الخليفة، ولا وزراؤه وقادته وموظفو ديوانه أصغوا للنداء.. ليس ثمة رد فعل جادّ على الإطلاق.. بل ليس ثمة أي ردّ فعل من أي نوع كان.. هناك ما هو أنكى.. إنه الاستخفاف بالتحدّي والتحقير من شأنه وكأن السماء الشرقية كشأنها المعتاد، ستمطر بَرداً وماءً، وأن ليس ثمة مطر من نوع آخر، قد يأخذ بغداد على حين غفلة، كما أخذها الفيضان العاتي الذي اجتاحها قبل سنواتٍ ثلاث.

وبمرور الوقت تحوّل حانوتي إلى محطة يستريح فيها المتعبون ويلتقطون أنفاسهم.. وبين لحظة وأخرى يُلقى نبأ، أو تحكى رواية ما.. ثم ما تلبث التعقيبات والتخمينات أن تحيط بهما حتى أن النبأ نفسه يضيع، ولا يتبقى سوى نمطين من الرؤى التي تعاين المجهول.. بعضها يهوّن ويستصغر ويتفاءل.. وبعضها يضّمم ويتشاءم حتى كأن الطاعون القادم أصبح أمراً واقعاً، وجثث الموتى تملأ أزقة بغداد وحاراتها.

كنت أتقلّب مع المتقلّبين.. عندما لا تكون بين يديك بيّنات قاطعة

كالسكين فانك ستجد نفسك مضطراً إلى التخمين.. وقد لا تكون عواقب التخمين سليمة، بل إنها قد تتضمن خداعاً من نوع ما لأن المرء جُبل على ما يحب.. وما نحبّه هو أن نعيش بأمان.. أن نمارس همومنا ومتعنا في فضاء يقطر بالخير والنور والندى ..

الغبار الذي يعكر صفاء الرؤية يؤذي الإنسان الحسّاس، وهو يستجمع كل قوى الدفع والتفاؤل في كينونته لكي يسترجع حالة النقاء الضائعة.. وقد يلجأ أحياناً إلى الوهم لكي يستبقْ المطلوب أو يجعله ـ على الأقل بينه وبين نفسه ـ أمراً مؤكداً ..

لكن التاريخ الذي تصوغه إرادة اله سبحانه له منطق آخر.. إنه يتشكل في الزمان والمكان، قبالتك حيناً، وبعيداً عن رقابتك، وهواجسك، وهمومك، في أغلب الأحيان.. وهو من أجل أن ينبّهنا إلى أنه هناك يمارس فعله، قد يلقي إلينا بهذا الحدث أو ذاك.. اترانا سننتبه فعلاً؟!

الخليفة لم يرد أن ينتبه، ولعلّه أراد الدخول إلى البيوت من غير أبوابها، كما يقول المثل، منذ زمن ليس ببعيد سمع الناصر بوصول المغول إلى كرمنشاه واقترابهم من أقاليم العراق الشرقية، فلم يفعل سوى أن أمر الناس بالقنوت في الصلاة.. فلما تبيّن ـ على ما يبدو ـ أن القنوت الذي لا تسنده القوّة لا يأتي بطائل، اكتفى بإرسال ثمانمائة جندي لإسناد التحالف الذي أقامته الموصل وأربل والأيوبيين لمجابهة الغزاة ..

بغداد نفسها هدّدت بالهجوم المباشر مرّتين أو أكثر دون أن يتحرك الخليفة لتعزيز قدرات جيشه القتالية.. كانت قواته لا تتجاوز البضعة آلاف، وهم كانوا أشبه بالحرس الخاص منهم بجيش نظامي متمرس على قتال العدو.. المستعصم الذي جاء بعده يتميز بالغفلة وضعف الرأي.. وها هو ذا عندما يذكر المغول في مجلسه يجيب

مطمئناً: إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد!!

لم يخطر على باله لحظة أن المطلوب هو بغداد ذاتها، وأن مهرها قد يعرف المغول كيف يقيمونه للإعراب عن بهجتهم.. وهم يومها لن يعرفوا من بغداد سوى أنها الخصم الذي يتحتّم أن يذبح إذا أريد للسكين المغولية أن تطال عالم الإسلام ..

ثمة خبر مقلق آخر تلقّيته في الدكان، همس به أحد أصدقائي بحذر: جند الخليفة قطعت أرزاقهم فلحق بعضهم بالشام وآخرون بالمغول.. وفئة ثالثة لجأت إلى ذلّ السؤال في الجوامع والأسواق!

صرخت فيه وقد أوشك صبري على النفاد:

ـ فيم الحذر يا فخر الدين.. إن الخليفة نفسه يمارس هذا البذر في القدرات القتالية.. فممّ تخاف؟ ها هو ذا يقف وحيداً أعزل، عارياً، ولا من يدافع عنه.. فممّ تخاف؟!

«13»

الوليد

تلقّيتُ النبأ بحزن عميق.. لم أفاجأ به.. وتحفزّت لوقوعه كقدر لا مفرّ منه.. ومع ذلك تلقيته بحزن عميق.. كان واضحاً أن جيش الخلافة ليس كفؤاً للمعركة التي ستقرّر ـ ربما ـ مصير بغداد.. وأن الدويدار الملقّب بالصغير لن يقدر على حسم الموقف في مواجهة المغول، وأن الخليفة يلعب ورقة خاسرة.. ولكن المرء يميل، وهو يعاني ضغطاً فوق طاقته إلى أن يجد منفذاً ما.. ثغرة مفتوحة ولو بمساحة ثقب إبرة لا يكاد يرى، لكي يتنفّس منه.. لكي يتلقى إشارة ضوئية قد تنقله إلى المجهول فتخفّف بعض معاناته.. وهناك قد يعيد الإنسان ترتيب الأمور من جديد، وقد يوهم نفسه لسبب أو آخر بنتائج مغايرة تماماً لما ينطلق به الواقع المشهود ..

وبالفعل فان الضربة الأولى كانت للدويدار، وكان أن يحقق انتصاراً خاطفاً ضد الغزاة، لكن الدائرة ما لبثت أن انقلبت عليه فمزّق جيشه.. لقد كادت المعجزة أن تخرق كل الحسابات لكنها كانت لحظات.. حالة استثنائية عابرة ما لبثت أن تكشّفت عما هو أقرب إلى منطق الحساب والمعادلات.. وها هم الآن يتدفقون على حافات بغداد.. وسيتحقق حلم هولاكو وينهار البناء الذي تطاول مصعّداً إلى الأعالي عبر مئات السنين.. ولكن السؤال الملّح ظل يدوّم في عقلي، متجذّراً في أبعد نقطة من الوجدان، مستمداً من حيثيات الإيمان قدرته على الخفقان

والحضور.. السؤال الذي أصبح منذ أسابيع يخزّ أعصابي صباح مساء.. والذي غدا أشبه بالخبز اليومي الذي لابدّ من تناوله إذا ما أريد للحياة أن تواصل البقاء، وهو أنه إذا ما حدث وأن طوى جيش الخليفة الجدار الأخير في مواجهة زحف الجراد، فهل هذا يعني أن كل شيء قد انتهى، وأن اخضرار الأرض الإسلامية سيؤول إلى البوار، وأن علينا أن نرضى بما هو كائن، وألاّ نمدّ رؤانا، ولو على سبيل الحم والتمنّي، إلى ما يمكن أن يكون؟ إذن فأين جماهير المؤمنين الذين يزحمون طرقات بغداد، وأسواقها، ومدارسها، وأحياءها، وبيوتها، ونواديها؟ أين الجموع الحاشدة التي تتدفق ظهيرة كل يوم جمعة إلى الجوامع لكي تسمع وترى وتعرف، وتتزّود بالوقود؟ أين الذين يلتقون على صفحات كتاب الله كل يوم، ولو لدقائق معدودات، بما يمنحهم الطمأنينة والثقة والأمل، وبما يحفزّهم على حماية الذات من التآكل والفناء، والسعي لتشكيل المصير الذي يليق بشرف الإنسان المسلم وكرامته؟

جماهير المؤمنين إذن.. وضربت بقبضة يدي على الجدار الذي أسند إليه ظهري في قاعة المستنصرية، وأنا استمع إلى درس أستاذ الأصول، فلمحني ورمقني بنظرة عتاب.. فأحنيت رأسي قليلاً، معتذراً، وأنا أقول في نفسي: تلك هي الحلقة الضائعة التي طالما غفلنا عنها ونحن نمارس الجمع والطرح قبالة المخاوف والهزائم والتحدّيات ..

وكإشارة ضوئية قادمة من مكان ما، التمع في ذهني للحظات وهج من نوع يصعب تلمّسه أو وصفه.. وهج لم يكن بمقدور العين وحدها أن تتعامل معه.. ولست أدري لم تذكرت أبي في تلك اللحظة الخاطفة التي تتأبى على الأسر في حيّز الزمن.. وعلى أية حال وجدتني أنهض قائماً، على غير إرادة مني، وأهمس في أذن الشيخ مستأذناً، ثم ما لبثت أن غادرت المكان.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أطير على جناحيْ الشوق مساء كل يوم بعد

الانتهاء من سماع آخر الدروس للالتقاء بمعارفي وأخوتي وأصدقائي.. كانت الهمسة أو الإشارة تكفي مع بعضهم.. وكانت الكلمة تعيد تشكيل بعضهم الآخر.. وكنت إزاء فئة ثالثة أبذل جهداً قد يستغرق بعض الوقت لكي ما ألبث أن أمنحهم القناعة بالذي يتحتّم علينا في لحظات كهذه أن نفعله.. وثمة فئة رابعة أصمّتَ أذنيها عن سماع النداء وظلت متشبثة باغراءات الأمن ونداءات الحياة، وكانت تتذرع دائماً بأن هذه هي مهمة الخلافة، وأنها تملك جيشاً لو أحسن التعامل معه فانه سيبعد الكارثة وسيحمي البلاد والعباد!

قلت لعبد العزيز:

ـ هذا وحده لا يكفي.. إنه نوع من الهروب.. من التبرّؤ من مسؤولياتنا وتعليقها على مشاجب الآخرين.. وهو على أية حال لن يأتي بطائل طالما انعدم التكافؤ في القوى بيننا وبين الغزاة ..

استنفر عبد العزيز كل قدراته المعهودة على الجدل، وحاول أن يوظف كل حجّة لتعزيز قناعته بأن على الإنسان أن يعمل في الساحة التي هيّء لها، أن يدع الساحات الأخرى لمن هم أقدر عليها ..

ـ ثم كيف تريدني أن أواصل طريقي الذي اخترته، متجاوزاً الحالات الاعتيادية الدنيا صوب الخطوط البعيدة للتفوّق، إن أنا غفلت عن محاولات الترقّي والصعود لحظة واحدة، أو تجاوزتها، بين الحين والحين بحجة الخضوع للمطالب والأصوات الأخرى؟ إنه المطلب الأوحد يا وليد وعلينا أن نتشبث به مصعدّين صوب القمم العليا للمعرفة وهو بحدّ ذاته طموح كبير قد يستنفد العمر كله ويتطلب المزيد.. ذلك هو قدرنا وعلينا أن نكون متوافقين مع هذه الأقدار!

ـ ولكن هناك سكّين تحدّ أمام أنظارنا يا عبد العزيز، وسوف تقطع كل الحبال التي يتشبث بها المتفوّقون وهم يصعّدون إلى أهدافهم، ويستجيبون ـ كما تقول ـ لنداءات مصائرهم الخاصة، ويومها لن يكون هناك ما يعينهم على مواصلة الصعود!

قال بنفاد صبر:

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- أن نتعاون جميعاً على أن تكون لنا نحن أيضاً سكين تعرف كيف تقطع في لحظات المصير.. وحينذاك لن يكون بمقدور المغول أن يحزّوا رقابنا ويغتالوا طمأنينتنا وأحلامنا ..

- تلك هي مهمة الدولة.. وإلاّ اخترت منذ البداية أن أذهب إلى ديوان الجند طالباً وضع اسمي في سجّلات المقاتلين!

- ها انك ترى يا عبد العزيز أن قوائم المقاتلين الرسمية لم تعد تعني شيئاً.. انهم يتضاءلون يوما بعد يوم.. والقسم الأعظم منهم سحق عند الدجيل. أما الدولة فقد أعربت منذ زمن بعيد عن عجزها عن تلبية مطالبهم الحيوية، فدفعتهم من حيث أرادت أم لم ترد إلى التملّص من المسؤولية، وربما الفرار ..

- ذلك هو خطأ الخلافة على أية حال ..

- هذا صحيح، ولكنه لا يعدو أن يكون جانباً من الصورة، وهنالك بالتأكيد جوانب أخرى ..

قال متبرّماً وكأنه يريد أن يظهر استياءه من مجرى الحوار:

- مثلاً؟!

قلت:

- في اللحظات التي تسيء فيها إحدى حلقات نظام ما، التصرّف أو تفقد القدرة لسبب أو آخر على الفعل، أو في الأقل التعامل معه في أقصى وتائر فاعليته وعطائه، فمعنى هذا أن هناك عجزاً ما، وأنه قد يمتد بفعل قوى التدمير والسلب، إلى الحلقات الأخرى، وقد تتفكك السلسلة كلها في نهاية الأمر ويسقط النظام برّمته.. وأنت تدرك تماماً أنني لا أقصد بالنظام هنا بعداً اصطلاحياً محدداً ينصب على مؤسسة الخلافة وهياكلها.. انني أقصد إلى أبعد من ذلك بكثير.. نظام الحياة

التي يشكلها ايمان الناس والتي يريد المغول أن يعودوا بها إلى عصور الوثنية ..

أراد أن يقاطعني ولكنني التمست بإشارة مني أن يمنحني وقتاً آخر لتوضيح ما يعتمل في ذهني.. وأردفت:

ـ أتذكر محاضرة يوم أمس مع شيخ المحدّثين نصير الدين البغدادي؟ لقد وقف طويلاً عند حديث رسول الله (ﷺ) عن المركب الذي همّ أحد المسافرين باحداث ثغرة فيه، وعن التحذير الذي أطلقه بضرورة الأخذ على يد الفاعل.. أن يتحمل مسافروا الأدوار الأخرى جميعاً مسؤوليتهم، اذا ارادوا أن يتجاوزوا المصير المفجع، وأن يمضوا إلى أهدافهم بسلام.. إن ثمة أكثر من ثغرة تنفتح اليوم في مركب حياتنا يا عبد العزيز، ولنفترض أن المستعصم نفسه هو الذي ضرب فأسه لكي يحدث إحداها، لسبب أو آخر، أفلا يدفعنا هذا، أو يحفزّنا بعبارة أدقّ، إلى أن نأخذ على يديه، وأن نقف جميعاً متضامنين لحماية المركب من التفكك والغرق؟!

قال وكأنه يتعمد أن ينظر إلى جهة ما يشعرني بأنه لا يهتم بما فيه الكفاية لاستنتاجي:

ـ إنك تبالغ في الأمر، وبالتالي فان الكثير مما تقوله قد يكون مبنياً على حالة المبالغة هذه وقد لا يكون بحجمه الحقيقي.. بعبارة أخرى انني لا أستطيع متابعتك لأن الأسس التي تقيم عليها نتائجك قد لا تنطبق تماماً على الحالة التاريخية التي نحن بصددها ..

لم أتمالك أعصابي وصرخت فيه وكأنني أحاول تحقيق توازن أفضل بين بروده القاسي كالجليد وبين رؤيتي التي تكاد تلمس بغداد وهي تئن وتتوجّع مما يمكن أن تصير إليه:

ـ إننا نغرق يا عبد العزيز.. وأرجو أن أكون مخطئاً، لكنك سترى بأم عينيك، ولسوف تتذكر كلماتي!

تركته، مقتنعاً بأن أية محاولة أخرى معه إنما هي ضرب في غير ما هدف، وأن عليّ ألاّ أضيع دقيقة أخرى في جداله.. فهناك الكثير ممن ينتظرون الإشارة، وهم بمجرد أن يروا صدقها المتوهّج يصيرون، في لحظات، على استعداد للتحقّق بالقناعة الكاملة، التضامن من أجل إنقاذ المركب من الغرق، على الأقل حماية ما يمكن حمايته من الرقاب، من ملايين الأسماك الجائعة التي تنتظرهم في القاع ..

قال أحدهم وهو يشدّ على يدي مودّعاً:

ـ كنت انتظر هذا منذ زمن بعيد.. والآن فانه يتحقق، فالحمد لله.. لا تدري كم أنا سعيد ..

أجبته وأنا أضع يدي الأخرى على كتفه بإلفة بالغة وكأنني أعرفه منذ زمن بعيد:

ـ اللحظة يبدأ عملك.. أن تقنع الآخرين بأن قناعتك هذه هي السعادة بعينها.. ويوم أن يتوحّد ألق العقل بومضات الروح والوجدان.. لحظة أن يصير الفداء متعة وضماناً، نكون قد وضعنا خطواتنا في الطريق الصحيح ..

ويوماً بعد يوم أخذت اتصالاتي تزداد تشابكاً واتساعاً، وكنت أجدني مضطراً لتجاوز بعض الدروس في المستنصرية.. أما مطالب الأهل، وإغراءات الزواج والرّية، فإنها أخذت تتعرض لنوع من الإهمال ما كنت ارتاح له لكنني كنت مرغماً عليه.. وبمرور الوقت كنت أحس وإخواني اننا في سباق مع الزمن من نوع فريد.. سباق ذي أطراف عديدة، بعضها يركض بأقصى طاقته للوصول إلى خط النهاية قبل الآخرين، وبعضها الآخر يتلكأ ويتباطأ. بل إن أطرافاً أخرى كانت، كما خيّل إليّ في الاتجاه المضاد وكأنها تراجع في مواجهة حيثيات التاريخ التي تتطلب دائماً اندفاعاً متسارعاً إلى الأمام ..

كانت الحلقات تتّسع، والمنتمون إلى صوت الاستغاثة يزدادون

عدداً يوماً بعد يوم، وكنا نتعمد الاّ تكون اجتماعاتنا في مكان محدّد.. كما أننا حرصنا، إبعاداً لأية شبهة، ألاّ تكون في الأماكن البعيدة، المغيّبة عن الأنظار.. كنا حيناً نلتقي في أروقة الشيخ الجيلاني.. وحيناً آخر في باحات المستنصرية، وثالثة في حوانيت الورّاقين بسوق الكتب وحيناً رابعاً في سوق السلطان أو الثلاثاء أو الريحانيين، وحيناً خامساً في الدور المنتشرة في أحياء البدرية والمقتدرية والرحبة.. وكان أتباعنا ينتشرون في كل مكان، بدءً بقصر الخلافة في المأمونية، وانتهاء بالأزقة والمساجد والأسواق والحوانيت.

وتذكرت عبد العزيز فأحسست بشيء من الانقباض وتساءلت: ترى لو أننا في لحظات كهذه أعطيناه قيادنا.. أين كان سيمضي بنا؟ وهل سيكون بمقدوره، بمنطق التخصّص والجزر المنعزلة الذي يتشبث به، أن ينقذ المركب الموشك على الغرق، أم أنه سيقفز بخفة إلى فوق، لكي يرمي بنفسه في أقرب فرصة مواتية بحثاً عن جزيرته الضائعة تاركاً الركاب يلاقون مصيرهم المحتوم؟ وقلت أيضاً: انه لحسن الحظ نمط من الناس يحمل بريقاً من نوع ما، ويمارس دوره أحياناً بأكبر قدر من التدفّق والإبداع.. وإنني أحترمه وأحبّه لهذا السبب، لكنه بمجرد أن يعزل تفوّقه هذا عن المجرى العام للحياة.. بمجرد أن يتأبّى على الاستجابة لندائها، وإرفادها بهذه المفردة أو تلك مما يمكن أن يعطيه، على الأقل في مجال تفرّده ذاك، فان بريقه يتضاءل وقد يتحوّل، بازدياد الهوة بينه وبين مطالب اللحظة التاريخية، إلى شيء غير محبوب، وربما غير جدير بالاحترام!

«14»

حنان

على بعد خطوات من البيت كانت الأصوات تتعالى.. هذه المرة أكثر من أي وقت مضى.. وثمة ما يتفرّد عنها بين لحظة وأخرى مصعّداً إلى فوق، محاولاً أن يتميّز أكثر، وألاّ يكون، ما وسعه الجهد، مختنقاً مبحوحاً ..

وقالت أمي وهي ترقبني من فناء الدار:

- دعك من هذا الآن فانني أريد مساعدتك ..

لم أردّ عليها، وارتديت قميصي وملآءتي على عجل، وتحسّست خماري جيداً، ثم غادرت الدار ..

بعد دقائق معدودات عدت ثانية فنظرت إليّ متسائلة، قلت:

- إن كتلاً كبيرة من الناس تتدافع عند بوابة الجسر، كلّهم يريد أن يعبر إلى جانب الرصافة ..

وأردفت وأنا ابتلع ريقي بصعوبة:

- يقولون إن جيش الخليفة هزم هناك شمالاً عند الدجيل وأن المغول يتدفقون الآن على نهري ملك وعيسى عند مشارف الكرخ وأن طلائعهم تندفع صوب محلة باب البصرة ..

كادت الحيرة التي طالما استفزّتني أكثر من أي إحساس آخر أن تمتص شيئاً من الخوف الذي أخذ يتسّرب إلى مفاصلي وعظامي.. أن

أخرج ثانية لكي أعاين كرة أخرى ما الذي يجري هناك، وماذا يقول الناس: أن أفكك صراخهم لكي أعرف أكثر فأكثر ما الذي ينتظر بغداد.. أو أن أبقى في البيت بانتظار ما سيكون.. وقلت في نفسي: ترى أين يكون الآن أبي، والوليد، وعبد العزيز؟ وسرعان ما تملّكتني رغبة عاتية متسّرعة، نافذة الصبر، في أن يرجعوا جميعاً.. أن يجيئوا إلى هنا.. ليس حرصاً عليهم بقدر ما هو توق لمعرفة ما سيقولونه وما سمعوه ..

أبي يعرف كيف يمنحني الأمان بكلماته التي تتجذّر في أعماق الروح، وتعلو فروعها مصعّدة إلى السماء لكي تطلب الأمن والسلام من سدرة المنتهى.. الوليد الذي يجعلك بحيويته المتدفقة أبداً كالشلال، تؤمن بأنه ما دام في بغداد فان ثمة من سيقول لا في وجه الطوفان.. من سيعرف كيف يوقف زحف الجراد، حتى ولو طوي جيش الخلافة ولم يتبق جندي واحد يرفع راية بني العبّاس ..

ومع أبي وأخي تذكرت عبد العزيز.. إنه في حالات كهذه يتناءى دائماً حتى أنه ليصعب عليّ أن استحضره تماماً كما أفعل دائماً مع أبي وأخي.. أتراها القدرة الفائقة على الانفكاك من أسر الحدث، والعوم فوق تياره الجارف؟ أتراها الخبرة المتمرّسة في معاينة الأشياء من بعيد دون الاندماج أو الضياع في تفاصيلها ومنحنياتها؟

وقبل أن أمضي في استنتاجاتي، صفعتني موجة من الاكتئاب، رحت أنقّب عن منبعها الذي انبجست منه على حين غفلة.. وإذ عرفت أنه عبد العزيز نفسه، وارتحت للحظات.. عدت ثانية إلى أسر التساؤل والحاحه الممضّ.. ولكن لماذا؟ إنه مرة أخرى القدرة على الانفكاك والتنائي.. هذا السلاح ذو الحدّين.. إنه عند أبي يمنحنا الأمن والسكينة والرضا.. ولكنه مع عبد العزيز يُشْعِرُ المرء - ربما - بالرغبة في الفرار إلى الجزر النائية، المطمئنة، لكي يحيا هناك بمفرده، حيث يتاح للعرفان كرة أخرى أن يتجدّد ويعطي.. أبي يرجع لكي يقول للناس لا تخافوا ولا

تحزنوا.. أما عبد العزيز فانه يحمل هموم عقله التوّاق أبداً إلى الاكتشاف، فلا يرجع أبداً ..

وقلت وأنا أحس بقدر من الارتياح كمن يضع يده تماماً على الموضع الذي يتسرّب منه الوجع: لا بأس فانهما وأخي يكمل أحدهم الآخر كما يبدو فلا بأس.. وأن تلك هي مشيئة الله في خلقه، فعلام الجزع؟ وذلك هو سرّ الحياة فعلام التساؤل؟

وما لبث نفاد الصبر أن أخذ يشدّد حصاره علي.. ورحت أعدّ الدقائق بانتظار عودة أحدهم على الأقل.. إن أيا منهم يملك بالتأكيد، ما يسقط القناع عن الحدث المدوّم في سماء بغداد، المتشكل عند حافاتها الغربية، ينتزعه من الضباب، ويضعه ثانية مغسولاً متكشفاً لكي يقدر الإنسان على تبيّن أبعاده بوضوح ..

اقتربت أكثر من حافة السياج المطلّ على النهر، فهنا بالذات يمكن أن اتصنّت أكثر إلى همهمة الناس، وصراخهم.. يمكن أن أتلقى إشارة ما قد تعينني بإضافة بعضها إلى بعض، على الإمساك بالخيط، أو في الأقل اجتياز الفراغ الزمني القاسي الذي يفصلني عن أبي وأخي وعبد العزيز ..

كان الناس لا يزالون يتدافعون عند بوابة الجسر.. وللحظات تتوقف الأصوات كما لو أن أحداً أمرها بالسكوت، ثم ما تلبث أن تتمرّد على الأمر.. تنفلت بصيغ وأوضاع وطبقات شتى لكي تدوّم في الفضاء المحلّق على الرؤوس.. وكانت كلمات: المغول.. والدويدار.. وباجو.. والدجيل.. وجيش الخليفة، أكثرها تردداً.. ترى.. إلى أين هم ذاهبون؟ وهل سيكتفي المغول وهم يجتاحون الكرخ لا قدّر الله، بالوقوف متفرّجين على الناس وهم يعبرون الجسر إلى الطرف الآخر؟

وأحسست بقدر من الارتياح وكأنني أبرّر بهذا بقاءنا في البيت لكن إبرة القلق التي وخزت أعصابي ما لبثت أن اغتالت هذا الإحساس

متجمدة في صيغة سؤال يلتمع كالنصل: وماذا عن أبي وأخي وعبد العزيز؟

وقلت في نفسي: ليس ثمة غير المطبخ يا حنان.. وإذا نادتني أمي هذه المرة فسأقول لها: ها أنا ذا.. فهناك حيث ينغمر الإنسان حتى شحمة أذنيه في الأشياء يمكن أن يبتعد قليلاً عن هواجسه التي يبدو ألاّ شطآن لها وأنها يمكن أن تستفز المرء وتعذّبه ألف مرة في اللحظة الواحدة.

غادرت الشرفة واجتزت الفناء المكشوف والبئر، ودلفت إلى المطبخ.. كانت أمي ـ كعادتها ـ منهمكة بغسل أواني يوم أمس وإعداد طعام الغداء لليوم ..

ـ أي غداء هذا؟

قلت لها مستفزّة إياها كأنما أريدها أن تشاركني همومي.. كنت أعرف تماماً أن مشاركتها تتمّ هناك فيما وراء الجلد والملامح، وأنها تمارس قلقلها وتتعذّب على طريقتها الخاصة.. وما كنت من جهتي أرغب في أن أزيدها عذاباً.. على العكس.. كنت أريد أن تقول شيئاً ما، أن تعلّق، تعقّب، تخمّن، تستنتج، فتخرج بعض معاناتها وتتخفف منها بالتالي.. كنت أتمنى كرة أخرى من يشاركني تبادل الكلمات، فاننا في لحظات كهذه، قد نلجأ إليها لكي تتجاوز بنا التوتّر في حالاته القصوى، وتمنحنا السلوان ..

بين الحين والحين، ومن وراء أصوات الصحون وهي ترتطم.. من وراء صوت الماء وهو يرشقها بين لحظة وأخرى.. من وراء أزيز الزيت على الموقد المتألّق بالجمر.. كانت تجتاز سمعي أصوات الناس في الخارج أو ذيولها المتلاشية في الفضاء.. وبمرور الوقت لم أعد أعرها اهتماماً بعد إذ تبيّن لي أنها غير قادرة على أن تمنحني ما أتوق إليه ..

وها هي ذي أمي تتكلم أخيراً.. وأحسست لأوّل مرة أن صوتها

متيّبس بعض الشيء، وأنها أرغمت أخيراً على أن تكشف عما في داخلها:

ـ لقد فعلوها إذن؟

ـ من؟

ـ المغول!

وقبل أن أقول شيئاً تساءلتْ مشيرة إلى مكان ما في بغداد قد يكون قصر الخليفة نفسه:

ـ أما كان بمقدوره أن يفعل شيئاً؟

أردت أن استفزّها أكثر:

ـ ومن قال إنه لم يحاول؟

أجابت بعفوية:

ـ أصوات الخائفين وهم يتدافعون لعبور الجسر بحثاً عن الأمان ..

قلت وأنا أرفع مقلاة الزيت عن النار وأصبّه بهدوء على صينية صغيرة من الشنبوشق:

ـ لقد فعل الرجل ما في وسعه.. أرسل جيشه إلى الدجيل لملاقاة المغول، وليس ذنبه أن يكون عدده أقل منهم بكثير ..

قالت بالعفوية نفسها وهي تعاين بحذر تعاملي مع الزيت:

ـ ولم أرسل إليهم هذا العدد القليل؟ أما كان بمقدوره أن يخمّن حجم عدوّه، ويأخذ له أهبته؟

ـ هذا هو ما تبقى من جيشه.. لقد رمى بكل ما لديه إلى الميدان.. لم يستبق لنفسه شيئاً ..

ـ والناس يا حنان؟

ـ ماذا بمقدورهم أن يفعلوا؟

قاطعتني بشيء من العصبية:

ـ يمكن أن يكوّنوا جيشاً كبيراً.. إن جند الخليفة ليسوا كل شيء!

ارتحت لبداهتها.. فها هي ذي تقول كل ما يعتلج في قلوب

الناس، ولكني سرعان ما تذكرت، وقلت بصوت لم تكد تتبيّنه أمي:

ـ كان عليهم أن يفعلوا شيئاً دون أن يأخذوا إذن الخليفة.. في لحظات كهذه يلتمع فيها النصل المغولي متحلّباً ريقه لدم البغداديين، لا يطلب الناس ختم الخليفة لكي يخرجوا فيدافعوا عن أنفسهم، وإلاّ انتهى بهم الأمر إلى الذبح!

لم تردّ علي مؤثرة الاعتصام بصمتها كرة أخرى.. أو لعلّها قالت كل ما عندها ولم تعد تملك شيئاً آخر تقوله ..

وقرع الباب بعنف هذه المرة، فقلت وأمي بصوت واحد:

ـ ها هم قد عادوا فحمداً لله ..

لكنني تساءلت بين وبين نفسي: ليس من عادة أبي أن يقرع الباب بهذه الطريقة.. هرعت لكي افتح فما لبثت أن وجدت نفسي قبالة عبد العزيز.

لم ألحظه مرة أكثر شحوباً مما لحظته الآن.. كان متعباً إلى حدّ الإعياء.. حيّاني باقتضاب، وجرّ خطاه جرّاً إلى فرشة عند الجدار الغربي للفناء قريبة من باب المطبخ، رمى بنفسه عليها وقال وهو يضغط على ركبتيه ويتنفّس بعمق:

ـ كنت أتمنى أن أجد أباك في الدكان، ولكنه كان قد غادره قبل لحظات ..

قبل أن أسأله طلب كوباً من الماء، أفرغه في جوفه دفعة واحدة وقال:

ـ الأحداث تتحرك بسرعة أكثر مما نتوقع، فها هم الآن يطبقون على مشارف بغداد.. كان بمقدور الخليفة ألاّ يستفزهم بجيشه التافه فيعطيهم المبرّر للاندفاع إلى بغداد وتبييت الغدر بها ..

سألته وأنا أحاول أن أكظم غيظي:

ـ كيف؟

قال بهدوء وهو يمسح بكمّه آثار الماء على أطراف فمه:

ـ عرضوا عليه التفاوض أكثر من مرة، وبذل الوزير ابن العلقمي جهداً استثنائياً لإنهاء المسألة دون إراقة قطرة دم واحدة.. لكن يبدو أن هناك من خدعه.. من دفعه إلى خيار الدم والدخول في معركة غير متكافئة على الاطلاق ..

أجبته بنبرة بدأ يتشكل في نبضها إحساس بالتحدّي:

ـ بقدر ما أملك من معلومات فإن المغول ما أعطوا عهداً لأحد في المشرق إلاّ نكثوه.. أما الوزير فانني أشك في نواياه.. لا أدري لماذا على وجه التحديد.. ربما يكونوا قد وعدوه بشيء.. أو.. من يدري؟ والمهم أنه وضع نفسه في صنّارتهم طعماً لأهل بغداد ..

قال وكأنه يرى بعينيه ما يعتمل في نفسي:

ـ إنك لا تعلمين كل شيء ..

ـ ولكن النتيجة ستكون نفسها على أية حال ..

ـ كيف؟

ـ سيمضي المغول إلى بغداد لكي يذبحوا أبناءها.. إن سيوفهم المتعطّشة للدم لن ترجع إلى أغمادها قبل أن تروي عطشها.. لقد فعلوها مع كل المدن التي منحتهم رقابها.. فما الذي سيجعل بغداد.. بغداد بالذات.. تشذ عن التقليد الدموي الذي يعرفه الجميع؟

أجاب وكأنه أحسّ بالحصار الذي بدأت أحكم طوقه:

ـ انك لا تعلمين كل شيء ..

ومن أجل أن يغيّر دفّة الموضوع سألني بعد أن ارتشف كوباً آخر من الماء:

ـ هل ستعبرون إلى الرصافة؟

فاجأني سؤاله، لكنني ما لبثت أن عثرت على الجواب:

ـ ذلك أمرٌ مرهون برأي أبي والوليد ..

ـ لا اعتقد أن المسألة تتطلب لحظة واحدة من التردّد.. فها هي قوات باجو تحكم قبضتها على الكرخ.. ومعظم أهاليه اجتازوا الجسر إلى الجانب الآخر ..

رشقة قاسية من الهمّ والاكتئاب اجتاحتني وأنا أتخيّل كيف أننا قد نرغم على ترك الكرخ لكي نأوي إلى مكان ضيّق، معتم في الرصافة ريثما تنجلي الغّمة.. فقلت وكأنني أدفع عن خاطري هذا الاحتمال المشؤوم:

ـ ليس بالضرورة يا عبد العزيز ..

قال وهو ينظر إليّ بدهشة ممتزجة بقدر غير قليل من السخرية المبطنة:

ـ كيف؟

ـ لا أعتقد أن الكرخيين كافة لاذوا بالجانب الآخر من بغداد.. ثمة من بقي منهم.. أحياء كثيرة لا تزال تخفق بالحياة ..

ـ ولكنها مجازفة يا حنان.. مغامرة طائشة قد لا تحمد عواقبها.. مرة أخرى وجدتني أحتمي بجدار الأب والأخ:

ـ على أية حال فان الأمر بيديهما ..

ـ من؟

ـ من يكونا غير أبي والوليد؟

نقر بإصبعه على المنضدة وهو يهمّ بالقيام، وقال قبل أن يغادر الفناء:

ـ العاقل من حسب لكل أمر حسابه قبل أن يقع المحذور!

«15»

عبد العزيز

شيء يتجاوز دائرة الخوف، أو القلق، أو التوجّس، أو حتى اليأس.. إنه مزيج من هذه كلّها، بل - ربما - بعيد عنها تماماً.. متفرّد بذاته.. شيء يضعنا تحت سلطانه ويخيل إلينا أن ليس ثمة ثغرة للخلاص ..

صبيحة أحد الأيام التي يصعب نسيانها حاصرني الإحساس اللعين، هذه المرة أكثر تكشّفاً ووضوحاً بحيث أنني قدرت أن أضع يدي عليه.. أن أمسك به وأن أمنحه اسماً يحدّد هويته لي على الأقل.. إنه القرف، وربما الإحساس الرمادي بفقدان طعم الأشياء.. بتحوّل الممارسات والمشاعر والهموم إلى أكوام، أكوام من الحطب المتيبّس ..

لقد هزم جيش الخليفة الذي يقوده الدويدار عند الدجيل.. تلقيت النبأ في ساعة مبكرة وأنا أهم بالذهاب إلى المستنصرية.. حزنت قليلاً ثم ما لبثت أن تجاوزت الأمر كلّه بتذكر المعضلات التي حصرتها في ذهني واعتزمت إثارتها مع أساتذتي وشيوخي في باحات المدرسة.

دلفتُ إلى الجسر، بعد دقائق، ميمّماً صوب المستنصرية قائلاً في نفسي إن هي إلاّ لحظات وأكون هناك.. عندها لن يكون بمقدور الهزائم نفسها أن تنتزعني من التيّار الذي يتدفّق بسيّال العرفان، حيث لا شواطيء تنتهي إليها رحلة المبحرين.. عندها لن تكون هزيمة جيش الخليفة نهاية للعالم ولا صدّاً للتيار عن تدفّقه الأبدي الذي لا يقفه شيء!

لحظت على الجسر حركة غير اعتيادية.. النظرات الزائفة والوجوه المشبعة بالتوجّس والخوف.. والخطى المسرعة التي لا تلوي على شيء.. وأحياناً التدافع بالأيدي والمناكب للوصول.. إلى أين؟ .. لا أحد يدري، رغم أنهم جميعاً يدركون أن المواقع والنقاط تتساوى تماماً في حالات كهذه، وأن المغول إذا جاءوا فليس ثمة أمان هنا أو هناك.. ورغم ما كانت توحي به الحركة غير الاعتيادية تلك على الجسر، فانني ما اكترثت لها طويلاً.. هزيمة جيش الخلافة.. ثم ماذا؟ لقد كان هذا أمراً متوقعاً، بل مفروغاً منه لمن يعرف كيف يجمع ويطرح ويمارس الحساب!!

وما دام الأمر كذلك فعلام الارتباك وليس ثمة مفاجأة على الإطلاق؟ أما ما يمكن أن تتمخض عنه الأيام وربما الساعات القادمة، فهذه مسألة أخرى.. والأمر أولاً وأخيراً قد ينحصر بين هولاكو والخليفة ومن يدير، فلعلّ الصراع يؤول إلى حلّ ما.. اتفاق بين الطرفين، يتراضيان فيه بتنازل من هذا وقبول من ذاك، ثم ما تلبث المياه أن تعود إلى مجاريها ..

قد يكون هذا وهماً، قلت في نفسي.. ولعلّي أمارس به نوعاً من الهروب إلى جزيرة الأمان المنعزلة وسط بحر يتقاذف النوء أمواجه ومراكبه.. وكلّما تلفّت وأنا أجتاز الجسر مقترباً أكثر فأكثر من حافته الشرقية لحظت في أعين الناس تعاسة وبؤساً، تقودانهم على غير إرادة منهم إلى هنا أو هناك، واجتاحني القلق الممض.. الأمر ليس بهذا القدر من السهولة. إن حدثاً ما، حدثاً قد يكون أكبر من كل توقع، وفوق كل توقّع، قد يصيب ببغداد.

واعتصرت قلبي موجة من الاكتئاب وأنا أتساءل عن مصير اللقاءات الخصبة الواعدة في باحات المستنصرية وأروقتها.. أترى الشؤم القادم سيوقف سيّالها المدهش، أم أن بمقدورها أن تتجاوزه، تعلو

عليه، وتمضي إلى أهدافها بعيداً عن الصخب، والصراع، متنائية عن حيثيات القوى التي ستتمخض في نهاية الأمر عن الغالب والمغلوب؟!

ما لبثتُ أن انعطفت شمالاً ودلفت إلى زقاق عريض بعض الشيء يقوم على جانبيه عدد من حوانيت بائعي الأقمشة.. ثمة محل صغير لتقديم وجبات الفطور للطلبة، ممن لم يتح لهم تناولها في بيوتهم، أو ممن تمرّدوا على الوجبات التي تقدّم لهم في غرفهم في الطابق العلوي من المستنصرية نفسها ..

خلّفت الزقاق ورائي دون أن الحظ أن معظم دكاكينه قد أقفلت، وأن لا أحد في المطعم الصغير، انعطفت يساراً لكي ما البث أن أجدني قبالة بوابة المستنصرية الكبيرة ذات الزخارف والنقوش البديعة على الخشب.

ـ ماذا؟

تساءلت وصوت مرتفع وأنا أحدّق في الساعة العجيبة، رغم أنني كنت بمفردي.. ها هي ذي المدرسة الكبيرة تقفل أبوابها هي الأخرى فلماذا؟ وللحظات أحسست بأن الحيرة القاسية تلفّني، وبأنني لا أعرف على وجه التحديد ما الذي عليّ أن أفعله.. وقلت في نفسي: إن اجتياز الجسر ثانية قد لا يكون ميسوراً.. اللعنة على المغول، لقد فعلوها إذن؟ والحياة السعيدة التي تمنح الفرصة لتألّق العقل سوف تكدّرها الغيوم وساعات الجدل الذي يقدح زناد الفكر، ويقرع الحجة بالحجة، حيث يكاد الإنسان يتجاوز حيثيات المنظور إلى السماوات المبنية بقوة المعادلة الحسابية، وصرامة التوازن بين الكتل.. تكاد تضيع ويضيع معها اليقين بالعدل والتناسب.. والويل للخليفة الذي ترك تهاونه واطمئنانه الكسول معمار القرون الطويلة من المعاناة والكدح والعطاء، يهتز ويتهاوى.. وما لهؤلاء الناس يركضون، وعلى أي شيء يخافون؟ أتراها لقمة الخبز التي ستنتزع من أفواههم، أم الحياة الرتيبة، المتثائبة التي

تتسطح وتتسطح حتى تغدو بلون التراب، وحيث تتساوى قيم الموت والحياة، فعلام يخافون؟

ورشقتني موجة أخرى من الإحساس بالقرف.. هذه المرة من الظالم والمظلوم.. من القاتل والمقتول.. من هولاكو والخليفة معاً.. إنهم جميعاً يشتركون في اللعبة الخطرة ويتهددون قيم الامتداد والعمران. والتناسب بين الأِشياء.. وخيّل إليّ أن الانتماء لأي منهما لهو خطأ من نوع ما.. انحراف بشكل من الأشكال عن الميزان.. وأن على الإنسان الجادّ في تقابل مدمّر كهذا، أن ينسحب من الميدان متأمّلاً من بعيد، ويدع الأطراف المتعطشة للقتل تصطرع.. ولن يكون لانتصار أي طرف معنى ذا قيمة إن لم ينطو على وعدٍ باستئناف البنيان، وتحفيز القدرة البشرية على مواصلة السعي من أجل اكتشاف سرّ الوجود ..

لم يعد يهمّني وأنا أتدافع مع الكتل البشرية المزدحمة على طول درب دينار الصغير، بين المستنصرية وبين سوق الكتب، حيث تقوم حوانيت الورّاقين إلى الجنوب قليلاً.. أن أبقى في مكاني بانتظار المغول وهم يجتاحون بغداد، أو أن آوي إلى مكان قريب.. وللحظات تملكني إحساس غريب: إذا قدّر للغزاة.. أن يعيدوا الحياة إلى تدّفقها كرة أخرى.. أن يسمحوا للمستنصرية بأن تفتح أبوابها.. ولشيوخها أن يقولوا ما عندهم، فهل يبقى ثمة مبّرر بسفك الدم.. لهدره مهراً لقيم قد تكون من بنات الخيال ودنيا الأوهام والظنون؟

وحاولت جاهداً أن أدافع هذا الإحساس لسبب لم أتبيّنه تماماً.. وواصلت طريقي عبر الكتل البشرية المتماوجة والمتدافعة، والتي لا تدري ما الذي عليها أن تفعله.. وبعد دقائق وجدتني في قلب السوق وقلت في نفسي: ها هي ذي حوانيت الورّاقين تقفل أبوابها هي الأخرى، الاّ دكان هنا ودكان هناك.. فإذا كان ثمة خطأ ما فإنه يكمن هنا.. أن تكف حياة العقل عن الخفقان، وأن تدخل طرفاً ثالثاً مع

السياسة والهموم اليومية، لترقب ما هو كائن وتخمّن ما سيكون.. وكنت أقول دائماً إنها يجب أن تتحصّن ضد عوامل التدمير والفناء.. أن تنأى وتتباعد عن كل ما يشد حركتها المتصاعدة نحو اكتشاف خفقان النجوم، وتدفّق الضوء والحرارة من قلب الشمس.. أن تمضي متفرّدة إذا اقتضى الأمر، في الجزر البعيدة المنعزلة، وأن تكفي ذاتها بذاتها.. فهي البدء والمنتهى.. وهي الوجود والمصير ..

وصفعتني موجة الكآبة وأنا أتذكر مدخل المستنصرية الكبير وقد سدّت أبوابه لأوّل مرة منذ أكثر من عشرين عاماً.. وازددت تشاؤماً وأنا أرى حوانيت الورّاقين تدخل اللعبة القاسية هي الأخرى.

يممّت وجهي صوب دكان عمّي فوجدتها مقفلة كما خمّنت.. انني أعرفه جيداً، قلت في نفسي، وهو الآن بكل تأكيد في الباحة التي يأوي إليها كلما حزبته الأمور: حضرة الشيخ الجيلاني ..

يدٌ تربّت على كتفي فتقطع عليّ ايغالي المحزن في المجهول، وتمنّياتي الحسيرة على عالم يوشك أن ينهار أمام عيني ..

ـ أعرف أنك تسأل عنه!

قال الرجل ..

التفتُ إليه بابتسامة رسمت خطوطها على ملامحي بصعوبة بالغة:

ـ بكل تأكيد

ـ لم تمض على مغادرته الدكان سوى دقائق معدودات

ـ لعلّه ذهب لأداء صلاة الظهر في جامع الشيخ الجيلاني ولربما لقاء إخوانه هناك ..

ـ لا أعرف على وجه التحديد، ولكنه كان قلقاً، فهزيمة جيش الخليفة على مشارف بغداد يعني أن الطريق أصبح مفتوحاً أمام المغول ..

قبل أن أعقّب بشيء قال بنفاد صبر:

ـ إنهم قادمون على أية حال، ولسوف أقفل دكاني أنا الآخر، فلم

يعد ثمة معنى للبقاء ها هنا سوى أنه مجازفة قد لا تحمد عقباها.. وعلى أية حال فإن عدداً من القادمين من مشارف بغداد أكدوا بأن المغول وصلوا حافاتها الشرقية والغربية وأنهم الآن يتحفزّون للإطباق عليها ..

قلت وأنا لا أزال أدافع غيوم الكآبة التي تتنادح في أعماقي:

ـ لا بدّ من تفجير الدمّل على أية حال ..

لم يفهمني الرجل.. أدار لي ظهره ومضى لكي يقفل الحانوت.. وما لبثتُ أن وجدتني كرة أخرى وسط الإحساس الرمادي بفقدان طعم الأشياء.. بتحوّل الممارسات والمشاعر والهموم إلى أكوام من الرماد!!

«16»

سليمان

لم أكد استقرّ في الدكان وأتخفّف من عباءتي حتى هرع إليّ أبو سعيد الورّاق صاحب الحانوت المجاور في السوق.. لم أره أبداً على هذا القدر من الحزن.. بادرني بالسؤال، وهو يسحب مقعداً خشبياً صغيراً، وضعه قريباً مني، ويجلس عليه بإعياء ململماً سرواله الفضفاض:

ـ هل سمعت آخر الأنباء؟

أجبته وأنا أحدّق في عينيه، مخمّناً سلفاً بأنه لم يجيء بما يسرّ في أيام النحس هذه:

ـ الأنباء كثيرة يا أبا سعيد.. وكلها جديد.. إن المكوك يتحرك سريعاً وبأكثر مما كنا نتصور.. انه ينسج مصائرنا وكأنه قد قطع عهداً بأن ينجز عمله في وقت قريب ..

قاطعني وهو يقرّب مقعده أكثر، وينفض رشقة غبار استقرّت على أطراف قميصه:

ـ ولكنه هذه المرة جيش الخليفة الوحيد ..

صدمتني كلماته رغم أنني كنت أتوقّعها، ولكنها كانت أشد وطأةً من أية قدرة على الاحتمال.. فإذا هزم جيش الخليفة، قلت في نفسي، فمعنى ذلك أن الطريق قد انفتح أمامهم إلى بغداد.. وأردف أبو سعيد:

ـ كان يقوده الدويدار.. اختار أن يصعّد شمالاً لكي يلاقي المغول

بعيداً عن بغداد.. وعند الدجيل فوجيء بأن أعدادهم تفوق جنده بكثير.. وهو ما لم يكن في الحسبان.. ولك أن تخمّن يا أبا الوليد ..

لم يكن لديّ أي استعداد للتخمين، وبالتالي ما كانت لدي الرغبة في أن أسأله مستوضحاً، بينما واصل هو:

ـ من عجب أن البداية كانت للدويدار، لكن الدائرة ما لبثت أن انقلبت عليه فأبيد جيشه ..

قلت بصوت متيّبس أكاد اسمع طقطقة كلماته:

ـ ذلك أمرٌ متوقع يا أبا سعيد.. لم يأخذ الخليفة ولا قائده حذرهما بما فيه الكفاية.. كان أمامهما متّسع من الوقت، لكنهما فرّطا فيه، فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

وكأنما تذكرتُ شيئاً، فناديت على قدحين من عصير التمر الهندي من الدكان المقابل، قائلاً لأبي سعيد:

ـ لابدّ أن نرطّب حلوقنا، فإني أحسّ أن الكلمات تتعثر في حلقي ..

ـ اجعلهما كوباً واحداً، فإنني لا أستطيع أن أشرب شيئاً ..

ـ والخليفة؟

ـ قيل بأنه تلقى الهزيمة بحزن عميق.. ولكن دعه.. فلعلها تجعله يفيق من وهمه!

ـ أتراه كان يأمل، على أي وجه من الوجوه، أن ينتصر قائده على المغول؟

ـ ربما!

ـ ولكن التاريخ يا أبا سعيد لا تصنعه المفاجآت.. ومن لا يحسب جيداً يضيع ..

غادرني أبو سعيد حسيراً، وجاءني الغلام بقدح العصير.. قلت له:

ـ لا حاجة لي به أنا الآخر.. لقد شربنا من كؤوس القهر ما فيه

الكفاية.. لم يفهمني الغلام وآثر الانسحاب بصمت.. أتراني أقدر على مواصلة البقاء في الحانوت؟ وهل ثمة رغبة متبقية للبيع والشراء، وتساءلت: ترى أين يكون موقع الكلمة في زمن لا سيف فيه؟

كان القلق يتآكلني، فقمت أذرع الدكان جيئة وذهاباً لعلّي امتصّ شيئاً من ضغطه القاسي.. وتذكرت فجأة.. ماذا لو أقفلت الدكان وهرعت إلى جامع الشيخ الجيلاني رحمه الله.. وأحسست بشيء من الارتياح.. رشاش من الماء البارد يمّس أعصابي المحترقة فأحّس بطعم السكينة والهدوء.. وقلت في نفسي، مقتنعاً أكثر بالرحيل إلى هناك رغم بعد الطريق ومشقة الوصول ضحى: منك يا عبد القادر يمكن أن نتلقى دفقة العزاء.. يمكن أيضاً أن نتعلم الكثير، في زمن يضيع فيه من لا يأوي إليك لكي تأخذ بيده إلى الله.. نقول ما حمله إياك الشيوخ وهم يتلقون الخطاب: «لا تخرج من بيتك إلاّ إلى رضاي تكن في ذمتي وأكن دليلك! يا عبد سلّم إليّ افتح لك باباً للتعلّق بي! يا عبد لا تطمئن إلى سواي ثم تعود فتقبل علي أردك إليه. قل للمستوحش مني: الوحشة منك، أنا خير لك من كل شيء!! ».

وأنا أجتاز درب دينار، وانعطف صوب سوق الثلاثاء قاصداً درب الخبازين الذي يفضي إلى الجيلاني، رأيت الناس على غير ما اعتدت أن أراهم عليه.. مزيج من القلق والخوف.. ومن عيون كل واحد منهم يطل السؤال نفسه: أتراهم سيجيئون؟

كان بعضهم يحثّ خطاه مغرّباً أو مشرّقاً، عجلاً كأنه يسرع إلى هدف قريب.. وكان بعضهم الآخر يمضي متباطئاً كأنه يسلّم أمره للمقادير.. فماذا يجدي أن تذهب إلى حافات الكرخ، أو تضيع في دروب الرصافة إذا كان المغول سيقتحمونها عما قريب؟!

لم أر في حياتي رعباً كهذا الذي يمسك اليوم بملامح البغداديين فيعيد تشكليها كما يريد.. لم أر أناساً دفعهم سيف الخصم الذي يبرق

على مشارف بغداد إلى نسيان كل قيم الصبر والمقاومة التي علمتهم إياها كلمات الله.. كما رأيت البغداديين عبر تلك اللحظات الفاصلة، وأردت أن أصرخ فيهم: إنهم آتون لكي تتطهروا، ولسوف تدفعون الثمن غالياً، ولكن لابدّ من أن تتطهروا.. «أنت ضالتي وأنا ضالتك وما منا من غاب.. ان كان غيري ضالتك فاظفر بالحرب.. ان لم ترني فلا تفارق اسمي.. لا أكون أنا المنتهى حتى تراني من وراء كل شيء.. وإذا وقفت بين يدي ناداك كل شيء فأحذر أن تصغي إليه»..

صوتي المتيبّس لم يكن قادراً على رفع النداء الذي كان يضغط على أعصابي ويريد أن ينفلت مدوّماً في فضاء بغداد.. وحثثت خطاي لكي آوي إلى فيء شيخي الظليل.. لكنهم كانوا يتدافعون بالمناكب والأيدي، ويقطع بعضهم الطريق على بعض.. وكدت أسقط أكثر من مرة، لكني تمالكت نفسي ورحت أشق طريقي بصعوبة بالغة.

كنت أقطع المسافة إلى جامع الشيخ بأقلّ من ساعة، وها أنا ذا أتجاوز الساعتين ولم أجتز بعد الجهات الشمالية لدرب دينار.. أتراني سأقدر على الوصول؟

على بعد خطوات رأيت الناس يتجمهرون مزدحمين في مكان ما وهم يحدّقون وقد فغروا أفواههم.. اقتربت أكثر باذلاً أقصى ما تبقى لي من قدرة جسدية على الاقتحام، لكي أعرف ما الذي يجري هناك.. ثمة جندي من جيش الخلافة يعتصره البؤس.. بقع من الدم تنتشر على جبهته وساعديه.. ملابسه مشبعة بالعرق والتراب.. كان يتحدث بصعوبة.. ينتزع الكلمات وكأنما يستقيها بدلوٍ متهرئ من بئر عميق.. عرفت بصعوبة بالغة أنه كان هناك في الدجيل، وأنه تمكن من النجاة بعد أنْ أتت سيوف المغول على جلّ أصحابه.. ليس الخبر كالعيان.. كان يقول، ثم ما يلبث أن يتوقف ملتقطاً أنفاسه.. وسأله أحدهم:

- والدويدار؟

ـ لا أعرف عنه شيئاً ..

وصرخ ثانٍ:

ـ والمغول؟

أجاب الجندي وهو لا يزال يلهث:

ـ إنهم قادمون.. وهم يتزايدون عدداً كلما أوغلوا في الطريق ..

صاح أحدهم:

ـ آتوه بقدح من الماء وكفاكم إلحاقاً به ..

وبينما ذهب بعضهم للإتيان بالماء، رأيت آخرين ينصرفون.. منهم من يحث خطاه، ومنهم من يمشي على مهل، متلفتاً هنا وهناك وكأنه قد ضلّ الطريق.

استأنفت أنا الآخر سيري وقلت في نفسي: لابدّ أن أصل، فهناك قد تتضح الحقائق أكثر.. إن فاصلاً زمنياً قصيراً قد يكون كافياً لتكشّف كل شيء.. وأدركت والقهر يعتصرني أن أحياء بغداد الغربية مأخوذة لا محالة.. فأين هي الأسوار؟ وأين جيش الخليفة؟ وأين المقاتلون؟ ومن سيدافع عنها إن اقتحمتها أسراب الجراد القادمة من الدجيل؟

وصلت الجامع بعد أن فاتتني صلاة الظهر جماعة.. عند إحدى السواري ألقيت نفسي مثخناً بالتعب، والهم، والحزن.. تذكرت كلمات كان يتناقلها الشيوخ: «يا عبد كن لي في كل حال أرسل عليك يوم الروع علامة تثبتك فلا تروعك الأرواع ولا تفزعك الأفزاع». .

أحسست بعد لحظات فحسب ببرد الراحة والهدوء والاسترخاء.. شعرت أيضاً أن بمقدوري أن أنهض قائماً لأداء صلاة الظهر قبل أن تفوتني، وتهيأت للقيام فإذا بيد تربّت على كتفي.. التفت قليلاً فإذا بالوليد يقف قريباً مني ينظر إليّ بعينين حانيتين:

ـ جئتك إلى الحانوت فرأيته مقفلاً.. سألت جارك أبا سعيد فأجابني بأنه لا يعلم عنك شيئاً.. وقلت ليس ثمة غير الجامع المبارك هذا إذا أردت أن أجدك ..

ـ لم تمض على وصولي سوى دقائق فحسب.. لقد كان الطريق مزدحماً وطويلاً ..

ـ أعرف.. فلقد عانيت المشقة نفسها ..

نظرت إليه بحنوّ.. أحسست أنه الآن أقرب إليّ من أي وقت مضى، وأن الرعب المطبق على بغداد يمدّ بيني وبينه جسراً تتضاءل إزاءه كل العواطف المتبادلة بين الآباء والأبناء ..

لمح في وجهي سؤالاً يكاد يرتسم بتكشّف ووضوح فبادرني:

ـ إنهم يطبقون الآن على بغداد.. هولاكو من الشرق، وباجو ذراعه الأيمن الذي كسر عنق الدويدار وطوى جيشه يزحف من الغرب.. إنهم يسعون وفق خطة محكمة متفق عليها سلفاً لأن يضعوا بغداد في الحلقة لكي ما يلبثوا أن يضيّقوا عليها الخناق شيئاً فشيئاً ..

أردت أن أسأله عن حجم قواتهم، فقاطعني مطوّحاً بيده وهو يشير إلى الجانب الغربي:

ـ إنهم يتدفقون الآن من الاسحاقي ونهر ملك ونهر عيسى، ويبدو أن باجو يستهدف الكرخ لكي يتخذ منه نقطة ارتكاز لإحكام الحصار ..

ـ وهل ثمة من يتصدى لهم هناك؟

ـ لا جيش.. ولا أسوار.. إن الأحياء الغربية مكشوفة تماماً.. ولن يكون التصدّي أمراً ميسوراً.. ثم ها هم أهالي الكرخ يهرعون لاجتياز الجسر بحثاً عن ملاذ آمن في الرصافة ..

تذكرت بيتنا هناك فانعصر قلبي وغشيته موجة ثقيلة من الهم والقلق وقلت للوليد:

ـ الا يتحتّم أن نرحل نحن أيضاً أسوة بما فعله الآخرون؟

ـ الأمر سيان يا أبتاه.. فها هي رايات المغول تزدحم على الطريق القادم من بعقوبة.. اللعنة على السور الشرقي، إنه متهريء تماماً ولا أدري كيف سيقدر على تحمل الضغط.. هناك أيضاً برج العجمي الضئيل عند باب كلواذى.. إنه نقطة الضعف القاتلة ..

ـ وهل ثمة أمل في ايقافهم وانقاذ بغداد من المصير المفجع؟

ـ الله أعلم.. ولكن.. كيف تستطيع قلة من المقاتلين أن تجابه مائتي ألف جندي مغولي أو يزيدون؟ هذا إلى أنهم حفروا خندقاً عزل بغداد عن إمكان تلقّي أي دعم من جهة أخرى، واستخدم ترابه في إقامة سور يحيط بالمدينة، كما أقيمت سواتر للمنجنيقات التي نصبوها بإحكام، فضلاً عن آلات النفط.. ليس هذا فحسب بل إنهم أقفلوا الطريق النهري من الشمال والجنوب، لمنع أية محاولة للتسلل أو الفرار ..

توقف لحظات لالتقاط أنفاسه ثم أردف:

ـ أتدري يا أبتاه أن من بينهم عدد من أمراء المسلمين أنفسهم، والمتطوعة، والنصارى القادمين من أعماق المشرق، والجورجيين الذين يملكون خبرة جيدة في تسلّق الأسوار.. و.. قطع حديثه فجأة كمن انتبه إلى شيء، وقال على عجل:

ـ سأدعك تصلي الظهر وقد أرجع إليك بعد ساعة أو ساعتين لكي نتدبر معاً مسألة البقاء في الكرخ أو مغادرته إلى هذا الجانب.. على أية حال لن أدعك تعود وحدك ..

غادرني قبل أن أقول شيئاً.. كنت أحسّ أن وراء ملامحه الهادئة التي تتأبى على التفكك والانحلال قبالة الرعب والحزن، شيئاً ما.. فعلاً يتشكل بالهدوء نفسه، بالقدرة ذاتها على التغطية المحكمة، وأنه لم يصرّح لي به لحدّ الآن.. لكنني بدأت أمسك ببعض خيوطه بيدي.. ورغم أنني لم أكد أتبيّن شيئاً، حيث بدء الخطوط ومنتهاها قد طويت في مكان ما بعيد في روحه القديرة على الاحتواء، رغم ذلك فإنني أصبحت متيقناً أكثر فأكثر أن الوليد ينفذّ شيئاً ما، وأن هذا الشيء قد يطمح لأن يكون بمستوى الحدث الذي يتشكل الآن قبالة بغداد.. على الأقلّ في محاولة للتبرّؤ أمام الله.. للإعذار إليه سبحانه.. ولم يكن إحساسي ليخطئني في يوم من الأيام ..

«17»

الوليد

قاومنا بضعة عشر يوماً بلياليها.. قتلنا أسراباً من الجراد المنهمر على أسوار بغداد بغير حساب.. وكان عزاؤنا أننا أعذرنا إلى الله ..

وكنا نتساءل: بعد فناء جيش الخلافة.. ماذا لو أن محاولة المغول اقتحام بغداد كانت نزهة لم يلاقوا فيها أي عناء؟ وماذا سيقول التاريخ؟ وكيف سيكون الموقف يوم الخزي بين يدي الله ورسوله؟

مئات من أصدقائي استشهدوا وهم يقاتلون على الأسوار المتآكلة، وعند الأبواب بكل ما كانت أيديهم تصل إليه ..

ليس ثمة واحد من هؤلاء لا أعرفه جيداً.. ملامحه.. قسماته.. نظراته العميقة المتسمّرة في المجهول تبحث عن أفق للتحرّر من الخوف.. لمنح الأمن والسكينة للحيارى والضائعين.. ابتسامته وهو ينتظر يوم الفصل لكي يعطي ما عنده ويعذر إلى الله ..

ما يحزنني أنني أعرفهم واحداً واحداً.. تشهد على ذلك باحات المستنصرية، وأعمدة الجيلاني، وساحات سباق الخيل والرمي ولعب الجوكان عند باب كواذى.. ورحلات الصيد في بساتين النخيل شمالي بغداد.. تشهد على ذلك حوانيت الورّاقين ومسجد الحظائر ورباط شيخ الشيوخ والمدرسة الشرابية ومسنّيات دجلة ومرقد السهروردي ..

واحداً واحداً.. فلمّا كان يبلغني نعيهم كان يتضاعف حزني وأقول محاولاً أن أكتم الآه في أبعد طبقة من نفسي: ما دمنا قد اخترنا الطريق

الصحيح فلا بأس.. ولكن ماذا لو أني لم أكن أعرفهم جيداً، وأشاركهم النبض ذاته الذي يحكي بلغته الخاصة كما لم تستطع لغة في العالم.. يحكي عن كل شيء بايماضة كالشهاب الثاقب تختزل حيثيات الزمن والمكان، وتتلقى العزاء والسلوى من علّيين ..

يوم الهول كان مجيء المغول.. ورغم كل حساباتنا.. رغم كل محاولاتنا للرصد.. ما كنا نتوقع أن يكونوا بهذا الحجم الكبير.. ربع مليون سيف يتلمّظ بشهية مخيفة لشرب دم البغداديين.. وكأن عطش ستة قرون ونصف من عمر الخلافة يتمركز في لحظة واحدة، ويتحفزّ للارتواء ..

أيام الهوْل كانت.. والمرئيات تكاد تتداخل في مخيّلتي اللحظة حيث تشتبك الخطوط وتتميع التفاصيل.. اللحظات الأولى كانت صراخاً أشبه بالعويل.. بغداد الذئاب الجائعة في الصحاري.. ربع مليون حنجرة دفعة واحدة.. لو أنها انصبّت على الجبال لأفقدتها القدرة على الاحتفاظ بتماسكها وجعلتها ركاماً ..

ومع الصراخ، وبايقاع واحد لا يتغيّر ولا يتبدّل، كان قرع الطبول.. لا أدري كيف ومن أين تعلّموا هذا الأسلوب في تدمير أعصاب المقاتلين كأن ايقاع مليون سنة ينصب، يتمركز، يتكاثف، في لحظة واحدة لكي يزأر في سمع بغداد التي فقدت جيشها، وها هي الآن تفقد زهرة شبابها ..

دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة كانوا يتآكلون.. يتعرضون لنوع من الفناء المحموم الذي ما عرفته كل أزمان الطاعون.. وكنت أقاتل مع إخواني صبوراً متجلّداً.. لكني كنت أراهم يتآكلون.. قبالتي تماماً.. آه لو يعرف الإنسان معنى أن يتآكل أصحابه أمام عينيه ..

القتل.. والخوف.. والصراخ.. والدم والأشلاء.. ؤالعطش.. والسهر والجوع.. وضربات كدويّ الرعد الذي يتصادى عند بقايا

الأسوار.. كانوا يعرفون جيداً أن امتلاك بغداد يعني أنهم كسروا رقبة عالم الإسلام على امتداده، وأن الطريق أصبح مكشوفاً أمامهم إلى المدى.. رموا بثقلهم كلّه في محاولة جاوزت كل حدود القسوة في قواميس الدنيا لكي يعتصروا الثمرة.. يفركوها بنصف مليون ذراع خشنة، قاسية، متصلبة كالحديد، فلا يدعوها إلاّ ركاماً ..

ماذا كان بمقدورنا أن نفعل غير أن نقتل من نستطيع قتله.. أن نعرقل ولو لأيام اندفاعهم المتوعدّ بالثبور، وأن نجعل دخولهم بغداد ـ على الأقل ـ ممهوراً بالدم؟! ماذا كان بمقدورنا أن نفعل غير هذا.. وهو، رغم كل الحسابات، وبعيداً عن كل عمليات الجمع والطرح الاعتيادية، بمثابة الاستجابة الوحيدة، الخيار المتفرّد الذي لا خيار بعده.. وإلاّ فإنه الخزي والهوان والمذلّة.. وكان هذا يمنحنا العزاء.. وما يمنحنا إياه أكثر أننا كنا أمناء مع كلمة الله.. متوحّدين مع الوعد الآتي من السماء قبالة كل حيثيات التاريخ ومتغيراته تلك التي لا تكشف عن وجهها للوهلة الأولى، وتظل ـ لحكمة يريدها الله ـ مختبئة وراء ألف قناع، منتظرة فرصة أكثر مواتاة للختم على المصير.. عندها سيكون كل تجاوز للمنظور عملاً أخلاقياً عظيماً.. استشهاداً في مواجهة القوّة الباطلة.. والمجهول.. وكان هذا يملؤنا بالقناعة في أننا نمارس الفصل الحق الوحيد.. الخيار الذي لا خيار قبله، معه، أو بعده، وأن نموت سعداء، قريري العين.

كان ضرب المنجنيقات يدك أسوار الرصافة بجذوع النخل، والحجارة الكبيرة المتساقطة على الدور والأحياء بغير ما رحمة.. وتحت غطاء الضرب الذي ما كفّ لحظة واحدة، اندفع ربع مليون مقاتل، بكل العنف الوثني.. بكل الطاقة المختزنة في أعماق آسيا وسهوبها وصحاريها.. بكل النهم الذي يتجاوز حدود المملكة البشرية.. اندفعوا في محاولة عاتية لاكتساح الأسوار المتهرّئة والأبراج المتهالكة

والأبواب المتداعية التي ما حسب بناتها حساباً لزخم كهذا يعد بالثبور وينزل غضبه على الإنسان والحيوان والحجارة.. ماضياً إلى هدفه.. مدوّماً كالإعصار.. شاهراً سيفه لكي يمارس القطع الذي انتظره طويلاً ..

ومع ذلك استمرت المقاومة بضعة عشر يوماً بلياليها.. وحصدنا من طلائعهم الأولى آلافاً عند الأسوار والأبواب.. وحتى ظهيرة اليوم العاشر كان القتال يتمركز هناك، رغم أن المعركة لم تكن متكافئة على الإطلاق، ورغم أن أسوار الرصافة كانت قد شاخت منذ زمن بعيد فلم تعد تملك القدرة على صدّ الغزاة أو عرقلة اندفاعهم المحموم ..

وراح المغول يمارسون ضغطاً متزايداً مستفيدين من زخمهم العددي المذهل الذي كان يندفع بصيغة كتل كبيرة لتدمير مقاومتنا والسيطرة النهائية على الأسوار.

كان برج العجمي الضعيف المتهالك بحذاء باب كلواذى هو الثغرة الأكثر ضعفاً في تحصينات السور ولذا نزفنا عنده دماً كثيراً.. ولم يكن الضغط الذي يفوق كل تصوّر ليعطي أي فرصة لالتقاط الأنفاس، أو إعادة الترتيب، كما أنه مارس بالعنف نفسه محاولة للإطباق من جانبي الكرخ المكشوف الذي اكتسح دون مقاومة تذكر، والرصافة التي ظلّت تقاوم حتى نفدت طاقتها وتمكن المغول من الهيمنة المطلقة على أسوارها كافة ..

عزاؤنا كان كبيراً.. فإن أهل بغداد قاوموا.. رأيناهم بأم أعيننا وهم يجابهون أسراب الجراد المنهمرة على الأسوار.. حصدوا وحصدوا.. لكنهم قاوموا.. رجالاً وشباباً وشيوخاً وصبية وأطفالاً.. حتى بقايا الجند المنهزم في معركة الدجيل والذي قدر على التسلل إلى بغداد، مرهقاً مكدوداً.. شارك في القتال.. ما من شيء يمكن أن تصله اليد إلاّ وامتدت إليه لكي تضرب به المغول.. السكاكين والخناجر والحجارة والعصيّ وقطع الحديد وقدور الماء المغلي.. كانت النسوة يتعاونّ على القدر،

يضعنه عند حافات الأسوار ينتظرن مرور الغزاة ثم يسكبنه على رؤوسهم ويهرعن للإتيان بقدر آخر ..

اهتزّت رؤوس.. سلخت جلود.. تفحّمت جثث.. قطّعت أوصال.. والمذبحة ماضية إلى غايتها.. وغايتها لا يكاد أحد يراها في دوّامات النار والدم والغبار، وقوارير النفط، والحجارة المنهمرة بغير حساب. .. معذورون أهل بغداد.. لقد قاتلوا أياماً طويلة بلياليها، وكان كل يوم من زمن الهول كألف سنة مما يعد الناس.. لم يكن زمناً اعتيادياً.. لقد وضعوا بينهم وبين الانتظارات الصعبة لمسار الشروق والغروب سداً.. كان كل همّهم يتمركز في بؤرة واحدة كما لو أن خمسمائة سنة من عمر بغداد تصب فيها: الاّ يفرطوا بشرف قاعدة الخلافة وأن يعذروا إلى الله!

طويت حزني وأنا أراهم يقتلون أمامي.. وقلت في نفسي: ليس هذا زمن الحزن يا وليد.. ولست أدري لم تذكرت أبي.. أطلّ عليّ في اليوم الحادي عشر بلحيته البيضاء التي تقطر صفاءً.. وبنظرة هادئة وقورة تستمد رؤيتها للأشياء والعالم والأحداث من فوق.. فمنحني العزاء، ووجدتني أصرخ على غير إرادة مني.. الرحمة يا أبتاه!!

«18»

حنان

أحكم المغول قبضتهم على بغداد واستقر باجو قبالة قصر التاج على حافات دجلة جنوبي الكرخ، وسيدّه هولاكو بازاء برج العجمي شرقي الرصافة بانتظار اللحظة المناسبة لاقتحام بغداد.

بضعة عشر يوماً خاض فيها البغداديون في الرصافة مقاومة ضارية لقوى تفوقهم، بكثير.. لم يكن صراعاً متكافئاً بأي معيار.. أما في الكرخ التي لم يكن يحميها سور فقد آثروا الانسحاب.. ومضى الطاغوت المغولي يحصد الرؤوس هنا وهناك.. منجله الحادّ كان يجول في دروب الكرخ وأزقتها وعند أسوار الرصافة وأبراجها فلا يبقي عنقاً يخفق بالحياة.. تكدّست الجثث في كل مكان وفغمت روائحها الأنفاس.. تحوّل الكرخ إلى مقبرة يخيّم عليها السكون والذين بقوا في دورهم كانوا أشباحاً لا تملك دماً أو لحماً.. استنزف الخوف والجوع وانتظار المجهول آخر ما فيها من حياة.. صاروا أشبه بشخوص الرؤى والأحلام . يتنقلون من غرفة إلى أخرى.. يخرجون إلى الأفنية، ويدلفون إلى السراديب لا يأكلون أو يشربون.. ولا يكاد أحدهم يعرف الآخر.. ولم تكن لديهم القدرة حتى على إيصال كلماتهم أو نقل هواجسهم إلى الآخرين.. كانت عيونهم مصلوبة على الأبواب.. لا يعرفون متى ستنفتح لكي تتناوشهم سيوف المغول .

في الأيام الأولى كان ثمة أمل في أن معجزة ما يمكن أن تتحقق.. قد يفعل الخليفة شيئاً، أو لعلّ البغدايون يتمكنون من الصمود

ودحر الغزاة فتقع المعجزة.. بمرور الأيام أخذ الأمل يتلاشى، وتمركزت رغبات الناس وتشبثهم بالحياة في شيء واحد، ألاّ تنفتح أبوابهم على حين غفلة ويدخل المغول لكي يذبحوهم! ومع هذا كلّه فإنهم ظلوا يقاومون كما لو كانوا ينسجون خيوط أسطورة تعزّ على التصديق.

انتظرنا الوليد وعبد العزيز طويلاً.. لم يأت أي منهما.. ذهبت بنا الظنون كل مذهب.. وقالت أمي وهي تبذل جهداً مضاعفاً لكي تتماسك قبالة أبي:

- إنني أعرف الوليد جيّداً وإن قلبي يحدّثني ..

ما لبثتْ أن آثرت السكوت.. لم تكمل عبارتها.. لعلها نظرات أبي التي كفّتها عن مواصلة الكلام.. لعلها خنقة البكاء الذي آثرت أن تكبته بحضور أبي.. حاولت أن أخفّف قليلاً من عبء الصمت المشحون، فتساءلت عن عبد العزيز، وقلت وأنا أحاول أن ابتسم رغماً عني:

- إنني أعرفه جيداً، كما تعرفين أنت الوليد.. ومع ذلك فإنه لم يأت! خرج أبي عن صمته أخيراً وقال بلهجة ذات مغزى:

- إنك إذن لا تعرفينه جيداً!

لم أدرك على وجه التحديد ما الذي يقصده.. لكنني خمّنت أنه يعرفه أكثر مني.. وعلى أية حال فإنه ببديهته الثاقبة أقدر مني في الكشف عن هوّيات الرجال ..

وسألت أبي:

- وماذا عن الجسر؟

قال وهو يجرّ وسادة فيضعها تحت مرفقه ويسترخي قليلاً:

- لم يعد ثمة مبّرر لتدفّق الكرخيين على الرصافة.. فهناك عند الحافات الشرقية يجول السيف المغولي في رقاب العباد، ينتظر اللحظة المناسبة لاكتساح الرصافة . بغداد بجانبيها أصبحت سواء ..

- ولكن مقاومة الناس هناك قد تصنع المعجزة أو تؤخر المصير ..

ـ تؤخّر المصير.. ربما.. أما أن تصنع المعجزة فلا ..

ـ والأمان الذي وعد به هولاكو استجابة لتوسّلات أعيان بغداد؟

اعتدل ثانية وكأن شيئاً ما وخز جنبه، وقال:

ـ أبداً.. فما هو إلاّ فاصل زمني قد يخدم المغول أنفسهم.. فاصل استثنائي غريب.. وبعدها سيرجعون كرة أخرى!

حاولت أن أتجاهل النذير، وتشبثت أكثر بالأمان الموهوم، رغم أنني كأبي تماماً أعرفه سراباً فلا يأمن عنده العطشى أن يجدوا قطرة ماء ..

ـ ولكنهم أحكموا قبضتهم على بغداد

ـ من أجل هذا سيرجعون إلى شريعة القتل كرة أخرى.. إنّني أعرفهم جيداً.. إن كل ما فعلوه لا يعدو بالنسبة إليهم جهداً غير مبرّر للتمكن من الفريسة.. ولأنه غير مبرّر.. لأنه كلّفهم أكثر بكثير مما كانوا يتوقعون فإنهم يطوون الآن جوانحهم على رغبة آسرة بالانتقام.. على نوع من العقاب الذي يرونه جزءً من شريعتهم لكل من يقف في طريقهم، أو يعرقل زحفهم للسيطرة على العالم.. لا تنسي أيضاً أن الرصافة لا تزال تقاوم وأنها إن لم تستجب للأمان المخادع فسيتضاعف غضب المغول!

سكت قليلاً، وكأنه يسترجع في ذهنه شيئاً ما، ثم ما لبث أن قال:

ـ لست متشائماً يا حنان.. وحاشا لله.. ولكنه منطق الأحداث ما يقودني إلى توقع الغدر المغولي في أية لحظة.. إنني أعرفهم جيداً.. العهود التي يمنحونها للمغلوبين لا تعني عندهم شيئاً على الإطلاق.. وعلى أية حال فإن هذا ما فعلوه عبر رحلتهم الدموية الطويلة من أعماق التركستان حتى أسوار بغداد ..

أمي حاولت أن تشاركنا الحديث.. لعلّ الصمت زاد من إحساسها القاسي بالعزلة، فتساءلت مرة أخرى عن الوليد وعبد العزيز.. محاولة

هذه المرة أن تخفي قلقلها ووساوسها وأن تتشبث أكثر بوعد من المجهول في أن يأتي أحدهما أو كلاهما، وقالت:

ـ إذا حدث هذا فإننا سنعرف الكثير!

ـ بكل تأكيد

قال أبي.. وبإحساس بالشفقة وجدتني أؤكد توقّعها بحرارة واستطرد أبي:

ـ ربما نعرف المزيد من التفاصيل عما شهدته الرصافة، فهناك يتشكل الحدث، ويتقرّر مصير بغداد ..

سألته بدوري:

ـ والخليفة يا أبتاه؟

ـ ليس هو البدء والمنتهى على أية حال.. ومع ذلك فإن الناس لا يزالون يعوّلون عليه، ويبنون على مواقفه نوعاً من التشبث بالمجهول.. فها هو ذا يرسل الهدايا وعدداً من كبار موظفيه فضلاً عن اثنين من أبنائه لاسترضاء هولاكو.. ومن يدري.. فلعّله يقتنع أخيراً بالذهاب إليه بنفسه وأخشى أن يكون هذا هو خطأه الأخير.. خطأه الذي يحمل في ثناياه الضربة القاتلة، والسقوط الذي لا نهوض بعده ..

لم أفهم ما يرمي إليه على وجه التحديد، رغم أنني كنت أشمّ رائحته، ألمسه، وكنت أجدني كمعظم الناس مضطرة للتشبث بنقطة ارتكاز ما وسط عالم يتفكك ويضيع.. جزيرة صلبة في بحر يموج ويضطرب ولا يكاد يقرّ له قرار.

وكان الخليفة، بشكل من الأشكال، هو هذه النقطة، تلك الجزيرة التي قد تسمح لنا بأن نقف قليلاً.. على الأقل لالتقاط الأنفاس:

وقال أبي وهو يشير إلى الجانب الآخر من النهر:

ـ لن يدع هولاكو الفرصة تفلت من يديه، ولسوف يعتصرها حتى الثمالة . وأخشى أن يمضي إلى ما هو أبعد من هذا، فإن إذلال الخليفة

قد لا يعني شيئاً بعد أن أوشكت بغداد على الضياع، إلاّ كونه نوعاً من التسلية، والحصول على إعلان بالطاعة أو توقيع بالشرعية لن يكون هولاكو بحاجة إليهما وهو يحكم قبضته على قاعدة الخلافة.. إن أخشى ما أخشاه أن يتفرّد هولاكو بما لم يفعله كل الذين سبقوه ودخلوا بغداد واقتسموا السلطة مع الخليفة.. إنه وثني.. وهو الآن في قمة انتصاراته.. ولن يرضى باقتسام السلطة، ولعل قتل الخليفة نفسه سيحسم الأمر كلّه ..

وتنهّد بعمق ثم أردف:

- قبل يوم واحد فقط حصد هولاكو دفعة واحدة رأس الدويدار قائد الجيش وسبعمائة من كبار رجال الدولة.. وما سيأتي قد يكون أكبر بكثير ..

أردت أن أقاطعه، متشبثة أكثر بحلم الجزيرة الآمنة، ونقطة الارتكاز الصلبة، لكنه قال وكأنه يؤكد توقعاته:

- ومن يدري فلعّله يريد أن يختبر كذب المنجمّين ويسقط الشائعات التي أقضّت مضجعه طويلاً.. فاذا قتل الخليفة ومضت المحاولة بسلام، فلن يقف أمام هولاكو بعدها شيء.. ستنهار الأوهام المتهرئة كأسوار بغداد الشرقية، وسوف يمضي الطاغية إلى هدفه متوحّداً، متفرّداً، سيّداً، على العالم!

اعتصرت قلبي موجة من الكآبة، وتخيّلت كما لو أن هولاكو أصدر أمره فعلاً بقتل المستعصم.. فماذا سيبقى بعد؟ ولكني تذكرت ما الذي حلّ بالكرخ، فقلت، محاولة أن أتحقق بنوع من التوازن بين اليأس والأمل، أو لعلّها محاولة لامتصاص وقع الخبر المفجع الذي يمكن أن يكون قد تحقق الآن، أو هو في طريقه للتحقّق:

- لن تكون تصفيته لا قدرّ الله، بأكثر هوْلاً مما شهدته بغداد.. لم يكد أبي يسمع كلماتي.. ولعله لذلك آثر الصمت.. ورأيته وهو يصيخ السمع.. ثمة طرقات على الباب.. لم نكد نصدّق.. وقال أبي وهو ينهض قائماً:

ـ إنه الوليد!
تشبثت بكم قميصه الذي يكاد يمسّ الأرض:
ـ على رسلك يا أبي فلعلّهم يكونون.. هم!
أبعدني برفق وهو يقول:
ـ إنه الوليد ..
قطع المسافة الفاصلة بين صدر الفناء والباب الخارجي بخطوات واسعة وفتح الباب ..
ها هو الوليد كما خمّن أبي.. كنت استرق النظر إليه من بعيد وهو يدفن وجهه في لحية أبي مقبّلاً إياه، بينما كانت ذراعه تطوّقه حتى تكاد تعتصره محبة وشوقاً.. وصاحت أمي:
ـ ألم أقل لكما؟ إن قلبي لم يخطئني يوماً ..
اقترب منها الوليد وطبع على شعرها الأشيب قبلة وهو يدعو لها بطول البقاء، ولم تستطع هي أن تتمالك نفسها فنظرت إلى أبي كأنها تستميحه في أن تطلق لنفسها العنان ..
اختنق صوتها وهي تقول:
ـ لكم تغيّرت يا بني ..
نبهّتني عبارتها الأخيرة إلى ما كنت قد غفلت عنه لحظات وتمعنت في الوليد جيّداً.. حقاً لقد تغيّر كثيراً، حتى كأنه ليس ذلك الذي غادرنا قبل أيام قليلة فقط ولكنها كانت كافية لأن تجعل الولدان شيباً، وهمست لنفسي في نبرة رثاء وشفقة: إنه يشيخ قبل الأوان ..
وقال أبي:
ـ لندعه كي يرتاح قليلاً ..
وملتفتاً إلى أمي:
ـ أعدّي له الطعام فإني أحسّ بأنه لم يأكل منذ زمن طويل.. لم يقل الوليد شيئاً ولكنه سألني:
ـ وعبد العزيز؟

ـ لم يزرنا منذ أكثر من أسبوع

قال وهو يرفع الغمد ويضعه جانباً ويرخي حزامه قليلاً، محاولاً أن يلتقط نفساً عميقاً:

ـ لم تسمح لي الظروف الصعبة بأن أبحث عنه أو التقي به ولكني سأحاول ..

قاطعه أبي بشيء من عدم الارتياح:

ـ دعك من عبد العزيز وقل لي هل في نيّة الخليفة ان يذهب فعلاً لمقابلة هولاكو كما يتردد على ألسنة الناس؟

ـ إذا صحّت الرواية التي نقلها لي أحد معارفي في الديوان فإنه سيذهب فعلاً!

ـ لوحده؟

ـ قد يستصحب معه أبناءه وحاشيته وعدداً من رجالات الدولة وساداتها وأعيانها ..

ـ ولكنه سيخطيء مرة أخرى ..

لم أعرف تماماً ما يرمي إليه، واستطرد هو:

ـ إذا كان في نيّة الطاغية أن يذلّه، أو أن يستدرجه لخداع البغداديين ودفعهم إلى إلقاء السلاح، فإن ذهابهم معه قد لا يعني شيئاً.. ولكنه إذا كان ينوي قتله فإنه بذلك سيعطيه الفرصة الكاملة التي يحلم بها ..

قلت مقاطعة إياه حيث كانت قبضة القلق القاسية تضغط علي أكثر فأكثر:

ـ كيف؟

أجاب بهدوء يعرف تماماً كيف يغطي به ما يعتمل في داخله:

ـ قد يقتلهم جميعاً في محاولة أخيرة لتصفية الخلافة.. لمنعها من مواصلة البقاء ..

قاطعته مرة أخرى، متشبثة بالجانب الآخر من الصورة:

ـ ولكنه لن يجازف بمغامرة خطيرة كهذه.. قد يكون ردّ الفعل فوق ما يتصوّر، ولذا فإنه لن يجازف.. لابدّ وأنه يمس الجمع والطرح وهو يتعامل مع الآخرين.. ومن يدري؟ فلعلّه بتضحيته الكبرى هذه يريد أن ينقذ الرصافة من الذبح ..

ـ إنها فرصة الطاغية للاختبار على أية حال.. إنه الآن في وضع جيّد من الناحية العسكرية والمعنوية.. لن يجد فرصة مواتية بأكثر مما يجده الآن والتاريخ لا يمنح فرصه الجيدة مرّتين.. وهو بخبثه يعرف هذا جيداً، ومع ذلك فلن يكون بمقدور أحد أن يتنبأ بالذي سيكون ..

رأيت الوليد يرمي بنفسه على البساط المجاور وسمعت طقطقة عظامه وكأنّ شيئاً ما يتكسر.. ألحّت عليه أمي في أن يتناول شيئاً فقال لها:

ـ أطمئني فلسوف آكل إن شاء الله.. ولكن ليس الآن!

سأله أبي:

ـ وماذا في الرصافة؟

قال وهو يهرش صدره:

إنها حصننا الباقي!

ـ ولكن المغول يحكمون قبضتهم عليها ..

ـ بل أكثر من هذا، لقد اخترقوا برج العجمي القريب من باب كلواذى وها هم الآن يتمركزون في عدد من الأحياء هناك.. المقتدرية والرحبة وجامع القصر.. ومع ذلك فإن ثمة أحياء ومساحات واسعة أخرى لا تزال بعيدة عن قبضتهم ..

لم أشأ أن أقطع عليهما الحديث كرة أخرى ولكن السؤال ألّح عليّ: هل بمقدور الرصافة أن تصمد قبالة الضغط المتزايد الذي ينذر سيله الطامي بالويل؟

قال الوليد وهو يرفع سبابته إلى فوق:

ـ ذلك مرهون بإرادة الله.. لقد كان على البغداديين أن يبذلوا

جهدهم في مواجهة الطاغوت الوثني، ولقد فعلوها وأعطوا أقصى ما عندهم ..

وسأله أبي:

ـ وهل سيعلن المغول الأمان فعلاً؟!

ـ مجرد فاصل زمني أو جملة اعتراضية في عبارة تسحّ دما وأنت تعرف ذلك جيداً يا أبتاه ..

تذكرت الخليفة كرة أخرى وقلت في نفسي، في محاولة أخيرة للتشبث بالبقاء: من يدري؟ فلعله يقدر في اللحظة الأخيرة على قلب الموازين، وإسقاط كل الحسابات!

وسمعت أبي يقول للوليد:

ـ لن أغادر الكرخ وليكن ما يكون

وردّ عليه الوليد وهو يربّت على كتفه بحنان ويشير إلى الجانب الآخر:

ـ ولكن أهل الكرخ رحلوا إلى هناك.. ومن يدري لعلّهم يعثرون على أمنهم الضائع في الرصافة ..

أجاب أبي وهو ينظر بحزن إلى السماء:

ـ يفرّون من قدر الله إلى قدر الله ..

ابتسم الوليد بمودّة وهو يقول:

ـ وأين الأخذ بالأسباب؟

ـ لسنا وحدنا الذين اختاروا البقاء.. هنالك كثيرون غيرنا.. ثم إن الرصافة ستلحق بالكرخ هي الأخرى.. وسيستوي الجانبان.. والمسألة مسألة وقت فحسب.. بغداد كلّها أصبحت مكشوفة.. وعندما يختار الخليفة أن يسلّم نفسه للطاغية طائعاً، فمعنى ذلك أن الرصافة قد سلّمت هي الأخرى.. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله

«19»

عبد العزيز

قرأت كثيراً.. كان الناس يتصايحون في الخارج، والصراخ يدمدم كقصف الرعد في سماء بغداد، وأنا أتناءى في بطون الأسفار.. بالتمرين ـ كما يقول عمي الشيخ سليمان الورّاق ـ يستطيع الإنسان أن يشحذ إرادته فيحيل الليل نهاراً.. قدرت ـ أخيراً ـ أن أجعل بيني وبين الويل جداراً، أن أصمّ أذني عن هزيم الصراخ المدمّر.. ومن أجل الآّ أرى شيئاً آثرت البقاء في البيت.. نفذت تعاليم عمّي على طريقتي الخاصة فتجاوزت الخوف والحزن وتمحضت للعرفان.. كنت أنجز سفراً وما البث أن أمضي لالتهام الآخر.. لم أدع أي فاصل زمني يذكرني بما يجري في بغداد.. ربما على بعد خطوات مني.. صرت صوفياً في نهاية الأمر، وبدلاً من أن أتعلق بأذيال الشيوخ آثرت الايغال في مسالك الأفكار.. العقل البشري قدير على أن يحلّ الطلاسم.. أن يكسر الأقفال عن القمقم السحري وأن يحرّر العفريت لكي يمنحه كل الأسرار.. المؤرخون، الجغرافيون، الفلاسفة، المناطقة، علماء الكلمة والنحو والأصول والبلاغة، الحكماء والأطباء وأرباب الحيل الميكانيكية.. مارست أكبر عملية استدعاء لشيوخ العلم في حياتي، وانغمرت في المجهول الذي يراد له أن يتكشف فيصير معلوماً.. في الزمن والمكان والهيولى.. في عالم الذرة والأفلاك.. في الجسد البشري، وفي شرايين الأرض.. إنها ملاحقة أبدية في بحر لا شطآن له.. لكن جزره كثيرة.. وهي رغم نأيها فانها تعد بالوصول لالتقاط الأنفاس وتشرب ملذة

العرفان، واستئناف الرحلة من جديد.. لن تتوقف أبداً ما دامت قد اختارت أن تواصل الصعود لإدراك المستحيلات والكشف عن المغاليق.. سيجيء اليوم الذي يقول فيه العلم للشمس.. اقتربي قليلاً لكي تمنحينا الدفء.. والرقم بقدرته المذهلة على التركيز سيختزل حيثيات الأبعاد الثلاثة ويجعلها بعداً واحداً.. وضائع تعيس من لم يطرق الباب ولو مرة واحدة في حياته!

بضعة عشر يوماً وأنا أرحل في بطون الأسفار.. ما كان ينتظر قراءته منذ سنوات أتيح لي أخيراً أن ألبي نداءه.. وأصخت سمعي يوما فإذا بهزيم الأصوات يكاد يتلاشى، والرعد المدوّي لم يعد يقصف بين لحظة وأخرى.. ثمة هدوء لم تعتده أذناي تكشف فجأة قبالة إحساسي الذي كاد أن ينسى وظائفه ساعات الرحيل مع الكلمات.. والآن اتنبه فجأة إلى أن نوعاً من الهدوء الغريب يخيم على سماء بغداد.. أصخت السمع جيداً، وأنا أقول في نفسي: ليس وهماً ولكنه الأمر الواقع.. وتشجعت قليلاً وأنا أتساءل: ولم لا أخرج قليلاً لأقطع الشك باليقين وأختبر صدق الإحساس؟

غادرت الدار في بدايات الصباح، بخطوات مترددة.. اجتزت الزقاق الضيق الذي ينتهي عند الدرب المفضي إلى الجسر.. وبغريزة الدفاع عن الذات استيقظت حواسي كلها للسمع والرؤية.. للمس الأشياء وتحسسها.. لشمها عن بعد للتأكد من أن الصراخ قد كف بالفعل وأنه لا خطر هناك.. ولدهشتي لم أجد كرخياً واحداً يجتاز زقاقاً أو يعبر درباً.. لم أجد كذلك مغولياً واحداً تحسم رؤيته ترددي، وتخميني، وتضعني في قلب اليقين.. إذا كان الصراخ قد كف فمعنى هذا أنهم قد احكموا قبضتهم على بغداد.. ولكن مالي لا أرى أحداً منهم؟

الأبواب موصدة، والدكاكين مفتوحة على مصاريعها ولكن يبدو الا شيء فيها ولا

أحد.. يد ما قد لمت بضائعها ونقلتها إلى مكان بعيد.. أصحابها ربما قتلوا، وربما رحلوا.. أو لعلهم يتخفون في دورهم.. فمن يجرؤ منهم على الخروج؟

وأنا أجوس خلال الدروب بين مشرعة الابريين وقبر معروف الكرخي، باحثاً عن منفذ للخلاص وجدتني فجأة قبالة دار شيخي صفي الدين الحراني، وصرخت لدهشتي: يا للصدفة فأنت يا صفي الدين من أجد عنده الجواب على السؤال الذي يحيرني.. كنت تقف في المستنصرية بجسمك الضئيل الذي لا يوحي أبداً بأنه ينطوي على عقل تنوء به الأجسام الكبيرة.. وكنت تتدفق كالشلال وأنت تصوغ كشوفك في عالم المنطق حتى لنكاد نفقد إحساسنا بالزمن والمكان ونذوب معك عشقاً في احتمالات التناسب بين الأشياء، وعللها.. وكنت تقطع حديثك، بين الحين والحين، كأنما لتصدنا متعمداً عن الارتواء الكامل، كي ترغمنا على أن نجيئك توقاً للمورد العذب كرة أخرى ..

كانت الشائعات تتزايد، والمغول يقتربون.. وكانت الرسائل والوفود بين هولاكو والمستعصم، تؤكد أكثر فأكثر ما يشبه اليقين القاطع كالسكين: انهم سيدخلون بغداد مهما كان الثمن، وأن صدهم عن المضي إلى هدفهم المؤكد هذا لن يكون بأكثر من محاولة غير مبررة يمارس فيها البغداديون واحدة من أبشع عمليات الانتحار الجماعي في التاريخ البشري.. وكنت تتساءل يا أستاذي الجليل: لماذا؟ كأنما تريد أن تنبهنا إلى أننا بما نملكه من عقول راجحة.. من قدرة على الجمع والطرح والقياس.. من ايغال في مسلسل العلة والمعلول الذي لا يمكن أن يخترقه خطأ بأية نسبة من النسب.. إلى ألا ننساق وراء ما يمكن أن يكون وهماً أو ظناً.. إنهم قادمون.. وما فعلته المدن الأخرى التي امتنعت عليهم أصدروا بحقها حكم الإعدام وطووها من صفحة الوجود.. فعلام تنتحر بغداد؟ وهل من (المنطق) أن نسمح للعاصفة

الهوجاء التي لا تستهدي بأي شعاع أن تطفئ مركز الضوء في هذا العالم؟

يوماً بعد يوم كنت أجد في رؤيتك المتعقلة هذه صدى في نفسي.. كانت مرتكزات الرؤية ذاتها قد عرشت في قناعتي منذ زمن بعيد، لكنها كانت غامضة، مهوشة، لا تملك أي قدر من الوضوح.. وها أنت ذا تجيء لكي تهندسها.. تخرجها من ضبابيتها وهيوليتها وتمنحها الصلابة والوضوح.. ولطالما تحاورت مع أصدقائي في المعضلة نفسها، بعضهم كان ينصت باهتمام، بعضهم الآخر كان يحاورني في محاولة لدحض حججي الواحدة تلو الأخرى.. وفئة ثالثة كانت ترفض أن تنصت لكلمة واحدة مما أقول.. وكنت المح بوضوح نظرات الإنكار يبلغ حد القرف في وجوههم فأقول لهم محاولاً أن أتمالك غضبي وأن اشكمه ..

ـ سوف تثبت لكم الأيام صدق مقولتي.. ولسوف ترون!

الوليد هو الوحيد من زملاء المستنصرية لم أكن أجرؤ على مفاتحته بالموضوع.. كنت أخمن رد فعله سلفاً فكنت أحاذر معه الكشف عن قناعتي وأقول في نفسي: لعل فرصة مواتية تتيح لي أن أقول له كل ما عندي، لكن ليس الآن!!

ها أنا ذا قبالة دارك يا شيخي، ولعلك تجيبني عن السؤال الممض بعد أن وقعت الواقعة واعتصر العنب والزيتون.. وها هي ذي أسوار الرصافة المتهرئة تمتلئ بجثث أولئك الذين اختاروا أن يجابهوا الإعصار المدمر وهم عراة لا يملكون شيئاً!

قرعت الباب فلم يرد علي أحد.. لعله الوقت المبكر الذي جئته فيه.. لعله الحذر من الغرباء.. قرعته مرة أخرى بعنف أكثر فلم يرد علي أحد.. فناديت بأعلى صوتي:

ـ إنني عبد العزيز يا شيخ صفي الدين فافتح الباب ..

اصخت السمع.. ثمة خطوات متأنية تذرع الفناء الصغير الذي

أعرفه جيداً والذي ينتهي بعد خطوات فحسب إلى غرفة ضيقة ومطبخ صغير.. ها هنا كان الشيخ الحراني يتهيأ لإعداد محاضراته في المنطق والتي كانت تفتن العقول.. وسمعته يقول متسائلاً بصوت لا يكاد يسمع:

ـ عبد العزيز؟!

ـ إنني هنا أيها الأستاذ.. وها أنا ذا كما ترى قد جئت لأطمئن عليك..

فتح الباب بحذر فأحسست لدى رؤيته بدفق من الأمن.. إنه صفي الدين، وها أن أيام الهول قد زادته هزالاً وشحوباً..

ـ خبرني عن أحوالك يا أستاذي..

أجاب وهو يمسك بيدي ويربت عليها بحنان:

ـ إنني كما ترى يا عبد العزيز.. ليس عندي ما يمكن أن أقوله.. فلقد سبق وأن قلت كل شيء!

ـ أعرف ذلك.. ومن أجله جئت..

قال وهو يشير علي بالجلوس على حشوة حال لونها فغدت بلون التراب:

ـ هذا ما كنت أخشاه..

قلت متشبثاً بالمجهول.. برغبة عاتية في أن ترجع بغداد إلى خفقانها المدهش، وتواصل المستنصرية.. المستنصرية بالذات.. رحيلها اليومي في ملكوت العقل..

ـ والمستنصرية؟

لم يفهم سؤالي.. هو الذي ما استعصت عليه معضلة في هذا العالم.. أردفت:

ـ هل تأمل بأن ترجع إلى وظيفتها كرة أخرى؟

سألني بدوره، بيأس مبطن بسخرية لم اعتدها منه:

ـ كيف؟

قلت بحماس:

- أن تنفصل عن الحدث.. تعلو عليه بعبارة أخرى.. فتصير أشبه بجزيرة منعزلة يأوي إليها العلماء والدارسون ..

قال وهو يلتقط نفسا عميقاً:

- ولكن أين العلماء والدارسون؟

أجبته بحماس أشد:

- لا أعتقد أنهم جميعاً مارسوا قتل النفس.. إنهم أكثر تعقلاً وإدراكاً!

وبنبرة يغمرها الحزن قال:

- لا تبعد كثيراً يا عبد العزيز.. لقد حوصر البغداديون.. وجدوا أنفسهم قبالة الفناء وجهاً لوجه، وكان لابد أن يدافعوا عن أنفسهم، أن يتصدوا للسيف الذي يدوّم في الفضاء لكي يحز رؤوسهم.. في حالة كهذه لابد أن تدفع عن نفسك.. بعيداً عن كل ما قد يوحي به العقل من تريث.. من حساب للخسائر والأرباح.. ومن ثم فانني أستطيع أن أجزم يا بني في أن الكثيرين من زملائك في المستنصرية خرجوا لقتال المغول فحصدتهم سيوفهم ..

- هذا ما أردت أن أقوله وانني أسألك هل قدروا على أن يغيروا من الأمر شيئاً؟

- هذه مسألة أخرى!

أردت أن أقول له: ولكنها أفكارك.. إلا أنني آثرت الصمت إذ رأيت ملامح نفاد الصبر تكسو وجهه، ونهضت قائماً وأنا أقول بصوت لا يكاد يسمع:

- يبدو أنه لم ينته كل شيء بعد ..

لم يلتفت لعبارتي الأخيرة، والح علي في أن أبقى معه أكثر، وأن إحساسه بالوحدة يعذبه، فوعدته بأن أرجع إليه ثانية ريثما تسمح

الظروف.. وغادرته وأنا أتساءل: ترى هل سيكون لقاؤنا القادم في المستنصرية نفسها؟!

وأنا أجتاز الزقاق الضيق، اخترق ذاكرتي الوزير ابن العلقمي، وقلت في نفسي إنه الوجه الآخر المتمم لشيخي صفي الدين.. كلاهما يعكس صوت العقل وينبض بالحكمة التي لا تطالها ردودِ الأفعال السريعة والمغامرات التي يحكمها النزق.. العالم والسياسي معاً.. ولكن من ينظر أو يسمع؟!

وتذكرت، وأنا أحس بموجة حماس مفاجئة تجاه الوزير الذي بذل جهده لتفادي وقوع الكارثة، كيف أنه خرج منذ الأيام الأولى للقتال، يصحبه جماعة من مماليكه وأتباعه، لمقابلة هولاكو وإقناعه بالتوصل إلى صلح مقبول لكلا الطرفين.. وكان وهو يجتاز أحياء بغداد في طريقه إلى الباب الوسطاني ينادي في البغداديين الذين اختاروا أن يقاوموا قوة تفوقهم بكثير: سوف يقع الصلح إن شاء الله، فلا تحاربوا!

ولكن لم يلتفت إليه أحد.. وها هي بغداد تحصد ما زرعته، فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

«20»

سليمان

أعلن هولاكو الأمان!! ولكنه الأمان المغولي الذي لا يرحم ولا يرعى عهداً.. السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.. هكذا كنت دائماً أقول مع نفسي، وأحدث به معارفي وأصدقائي ..

برر الطاغية إعلانه بإلحاح أعيان بغداد، والوزير ابن العلقمي، على وقف القتال.. وبغض النظر عما إذا كان هؤلاء يرغبون حقاً في وقف نزيف الدم، وحماية بغداد من الذبح، أم يسعون لتطمين مصالحهم من خلال تأكيد علاقاتهم الطيبة بالطاغية، فإنهم في الحالين كانوا مجرد أدوات لتمرير اللعبة الدموية، وتفريغ قاعدة الخلافة من بقايا قوتها للإجهاز عليها ..

فبعد يوم واحد.. يوم واحد فقط، قتل الدويدار قائد الجيش وسبعمائة من كبار رجال الدولة.. وكان هذا كافياً لإعطاء الإشارة للبغداديين الا يستسلموا للوعد الخادع.. وللخليفة نفسه الذي أفقدته ثنائية الحرص والرعب قدرته على الرؤية.. إذ ما لبث أن خرج وأبناءه الثلاثة يصحبهم المئات من سادات بغداد وأئمتها وأعيانها!

ها هي ذي اللحظة التي كان هولاكو ينتظرها منذ زمن بعيد.. الفريسة ترمي بنفسها في شباكه المنصوبة بعناية.. ولن يجهز عليها قبل أن يعتصرها حتى الرمق الأخير.

منذ البدايات الأولى وأنا أتوجس خيفة من وزيره ابن العلقمي

وأنه بأساليبه الملساء سيقود الخليفة إلى الفخ.. كثيرون كانوا يرفضون قناعتي هذه، ويدافعون عن الرجل الذي يسعى لحماية بغداد من الذبح.. إنه صوت التعقل والحكمة.. كانوا يقولون.. وكنت أرد عليهم بأن الرسائل المتبادلة بينه وبين هولاكو كانت نوعاً من الغزل بين الرجلين وليست مجرد إجراءات سياسية لتدبر الموقف.. وأنا أعرف جيداً ما الذي يعنيه الغزل في لحظات كهذه.. وعود محملة بالثمار يزجيها كل طرف إلى الطرف الآخر، وكنت أحسم معهم الجدل كل مرة بأن العبرة بالنتائج.. والنتائج ها هنا لا تسمح بأي هامش للاحتمال.. إما أن تموت وإما أن تواصل الحياة.. وفي هذه الحالة فإن هولاكو لن يعطي الفرصة الا لمن يخدمه جيداً.. ولسوف ترون!

بداية النهاية المثخنة بالدم والجراح كان خروج الخليفة.. قلت في نفسي.. وكنت أعول عبر أيام المحنة على اعتصامه بقاعدة الآباء والأجداد، وأن يقاتل وأصحابه حتى الرمق الأخير.. فمن يدري؟ قد تحدث معجزة من نوع ما تقلب الموازين.. إنه ميت لا محالة فلماذا لا يموت وهو يدافع عن شرف الخلافة ومجدها الموغل في الزمن بدلاً من أن يضع عنقه طائعاً مختاراً تحت سيف الطاغية؟

فها هو هولاكو يبدأ لعبته الماكرة بإفراغ بغداد من قوتها قبل الإجهاز عليها.. يطلب من فريسته أن يأمر سكان بغداد بوضع أسلحتهم والخروج لغرض الإحصاء! وها هو الخليفة يرسل من ينادي في المدينة ليضع الناس أسلحتهم ويخرجوا.. فيستجيب هؤلاء لإغراء الفخ الذي غطي جيداً بعباءة الخلافة، حيث يتلقاهم السيف المغولي فيحصدهم زمراً.. زمراً ..

وكان الدور قد جاء على اتباع الدويدار من بقايا جيش الخليفة وجند بغداد.. استدعوا إلى معسكر هولاكو بحجة فتح الطريق أمام من يرغب منهم في الرحيل إلى الشام ومصر، لكن المغول فتكوا بهم

وتفننوا في قتلهم إذ قسموهم ألوفاً ومئات وعشرات ثم أعملوا فيهم السيف ..

لعقت جراحي بصمت وأنا أقول: إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.. ولكن ها هم سادة بغداد وكبراؤها وشيوخها وجندها.. والخليفة نفسه معهم، يلدغون عشرات المرات، فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

وكان يعزيني بعض الشيء أن هناك فئة أخرى رفضت الدخول في اللعبة، وأصرت على التشبث بسلاحها بانتظار يوم الفصل لكي تفعل ما تقدر عليه.. وها هم ينتشرون في الأزقة والدروب للدفاع عن شرف بغداد الذي يوشك أن يغتصب.

وتذكرت الوليد.. وانتابني إحساس جارف هو مزيج من الفخر والإشفاق.. إنه ابني.. قلت في نفسي.. وأنا أتذكر ـ لا أدري لماذا ـ أحد أساتذته الذين كان يحبهم إلى درجة العشق: الشيخ أبو العز الصرصري الضرير، أستاذ الأصول في المستنصرية، فهرعت إليه لكي أنفض عنده جراب همومي ومخاوفي وأحزاني ..

تلقاني بالأحضان وهو يفتح باب بيته الذي لا يبعد كثيراً عن داري في محلة الإبريين، كأنه كان يعرف أنني سأزوره، رغم أنني جئت على غير ميعاد ..

حاول أن يرسم ظل ابتسامة ما على وجهه لكي تعينه على الترحيب بي حيث احتبست الكلمات في حلقه.. أدركت معاناته فرحت أربت على كتفه بمحبة.. لحظات وبادرني بالقول:

ـ إنني كما ترى معزول عن الدنيا منذ وصول المغول مشارف الكرخ وأحب أن أسألك هل أتموا سيطرتهم عليه؟

ـ ها أنت ذا ترى يا أبا العز!

ـ والرصافة؟

ـ ظلت تقاوم بضعة عشر يوماً، مستفيدة من بقايا سورها المتآكل، إلا أن هولاكو ما لبث بعد أن أحكم قبضته على الأسوار وأحاط بالفريسة من كل جانب، أن أعلن الأمان.

تساءل بدهشة:

ـ الأمان؟!

ـ بحجة أن أعيان بغداد ألحوا عليه بإعلانه!

ـ وابن العلقمي؟

ـ لا ريب أنه على رأس دعاة الاسترضاء هؤلاء!

ـ ما الذي يبتغيه الوزير؟! وإلى أين يريد أن يذهب ..

ـ ثمة أقوال متضاربة حول صدق نواياه.. وبقدر ما يتعلق الأمر بي فإنني لا أستطيع أن أجزم بشيء.. ولكن شيئاً واحداً يمكن أن أؤكده بهذا الخصوص وهو أن العبرة بالنتائج.. وعندما تجتاز مدينة أو جماعة ما ممراً ضيقاً، أو ترغم على المرور فوق حد السيف فليس ثمة سوى فئتين: المجاهدون والشهداء في جهة، وأولئك الذين يحظون بالأمان وربما يتلقون مكافأة ما في الجهة الأخرى.. فإذا قدّر لابن العلقمي أن يواصل البقاء في ماكنة هولاكو نفسه، بعد دمار الخلافة.. فحينذاك فقط يمكن للإنسان أن يصدر حكمه الأخير عليه بعيداً عن الظنون والتخمينات ..

تنهد بعمق وهو يسألني:

ـ ولكن ما الذي يدفع هولاكو إلى إصدار الأمان وهو يطبق على الفريسة؟

ـ فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب الأمور ..

ثم. . لم أشأ ان أواصل حديثي وأنا ألمح في وجهه أشياء كثيرة كان يريد أن يقولها لكنه آثر الصمت. كان حزيناً هو الآخر، وكنت أحس أنه مثلي تماماً.. تعوزه القدرة على مشاركة الآخرين الذين قاتلوا

الغزاة عند أسوار بغداد.. وقال مخترقاً حاجز الصمت وهو يطقطق سبحته الصفراء المصنوعة من الشيح:

- وماذا عن الخليفة؟

أجبته دون تمهيد:

- ذهب إليهم!

صرخ على غير إرادة منه:

- ذهب؟!

- وأبناؤه الثلاثة.. وثلة كبيرة من رجالات الدولة وشيوخها وأعيانها ..

حاول أن يستوضح وهو يفرك سبحته بعصبية ظاهرة ويدمدم مع نفسه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

فأجبته قبل أن يكلف نفسه عناء السؤال:

- هذا ما كان ينتظره هولاكو لكي يوجه ضربته الأخيرة ..

وأردفت وأنا أتنهد:

- ما كان عليه أبداً أن تنزلق قدماه ويستجيب لإغراء اللعبة الماكرة.. فأن يذهب إليه قائد أو أمير ليس - بالتأكيد - كذهاب الخليفة نفسه ..

- ألا يمكن أن يصل معه إلى حل تسلم فيه بغداد على من تبقى فيها من رجال، ويكف نزيفها؟

- مع هولاكو لن يحدث هذا.. وكان على الخليفة الذي ربما يكون قد ضحى بنفسه من أجل بغداد أن يدرك هذا.. إنني أعرفه جيداً يا أبا العز، فإن الخليفة بمجرد موافقته على الذهاب قد لا يرجع أبداً.. وحينذاك يكون شرف الخلافة قد مرغ، وستغدو بقايا بغداد التي فقدت خليفتها طعماً للغدر ..

تنهدت مرة أخرى ثم واصلت حديثي:

- أتدري يا أبا العز.. ان الطاغية يوظفه الآن لتحقيق هدفه في إفراغ بغداد من قوتها قبل أن يجهز عليها؟

تساءل بنفاد صبر وهو يحرك رأسه بعصبية ذات اليمين وذات الشمال:

- كيف؟

- طلب منه أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح والخروج إليه.. قد تقول أن هذا ربما يكون رغبة صادقة من الخليفة لحماية مقاتلي بغداد من الفناء.. هذا صحيح، ولكن النيات الحسنة وحدها في لحظات التاريخ الفاصلة لا تكفي ..

- وهل نفذ البغداديون طلبه؟

أجبت بمرارة:

- إنه خليفتهم على أية حال، وبمجرد أن تسلمهم زبانية هولاكو قاموا بقتلهم جميعاً ..

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

- ليس هذا فحسب، فإن بقايا جند الخلافة كانوا قد استدرجوا هم الآخرون وذبحوا.. أتدري ما معنى هذا يا أبا العز؟

أجاب بصوت متيبس:

- معناه أن بغداد فقدت جندها ومتطوعيها في وقت واحد.. أردفت وأنا أتذكر الوليد:

- لا زالت هناك بقية من خير.. ولن تعدم بغداد من يدافع عنها ..

نهضت قائماً فاعترضني كأنه يتوسل بي أن أبقى وقال برجاء:

- الوحدة قاتلة يا أبا الوليد.. شيء مر المذاق.. وأنت تعلم أنني في مثل هذا الوقت تماماً أكون في المستنصرية بين طلبتي وزملائي ..

ـ عندما تندمج في الآخرين تنسى هموم الدنيا ..

وتنهد بعمق وهو يقول:

ـ أما الآن فأين المستنصرية؟ وأين الآخرون؟

وتذكرت، على غير استدعاء مني، الأسبوعين الأخيرين.. تذكرت الآخرين الذين يتحدث عنهم الرجل.. كيف خرجوا وكيف يرجعوا.. وها هي ذي بقاياهم تحاول اجتياز الممر الفاصل بين الحياة والموت بقوة نداء الحياة ذاتها.. ترى أيكون بمقدورهم أن يستجيبوا للنداء؟

ومن أجل أن أنفصل، لحظات، عما يعذبني سألته عما ينوي أن يفعله فقال وقد اطمأن إلى أنني سأبقى إلى جواره بعض الوقت:

ـ إنك كما ترى.. أحيا وحدي.. ولن أخشى على شيء ..

ومر في مخيلتي الزوجة والأولاد فانعصر قلبي، وللحظات أحسست أنني أرزح تحت عبء ثقيل، وأن صديقي الصرصري أفضل حالاً مني.. إنه الآن يتحرر من كل ما يشده إلى الدنيا.. يعيش ما يحلم به الشيوخ، ويتخفف مما يحذرونه.. ورحت أدمدم مع نفسي: «الذي يصدك عني في الدنيا هو الذي يصدك عني في الآخرة.. ما بقي بيني وبينك شيء فأنت عبده ما بقي» ..

وقال وكأنه يقرأ هواجسي:

ـ لقد دفعتُ الثمن يا أبا الوليد، وها أنا ذا أتلقى الجزاء ..

لم أدرك ما يريد أن يقوله على وجه التحديد، بينما واصل هو دون أن ينظر إلي:

ـ طالما تقت إلى الأهل والولد.. فقط من أجل الخروج من العزلة والصمت، وليس لأني أريد أن امتد في الحياة بالذرية كما يخيل للكثيرين من الذين يبحثون عن فرصتهم في الزواج.. لقد أسرني عشق العلم يا أبا الوليد وإذا أردت الحق، استنزفني حتى النخاع.. بمرور الوقت أصبح نداؤه هو النداء الوحيد الذي يحكمني.. من خلاله كنت

أتوجه إلى الله سبحانه بالشكر والامتنان، ومن خلاله كذلك كنت املك القدرة على أن أتفاهم مع الحياة.. أن أتعايش معها . وأنت تعلم، فان موضوع الأصول بالذات يعد بالكثير.. وهو يعرف، لمن يحسن التعامل معه، كيف يضع الإنسان في قلب الحياة، ليس منغمراً في جزئياتها وتفاصليها، ولكن مراقباً ومهندساً.. إنها لسعادة تعلو على كل فرح عابر أو لذة منصرمة.. أن تعين على إعادة تشكيل الحياة بما يرضي الله ورسوله ..

نظرت إليه بمحبة.. كانت لحيته البيضاء تشع صفاءً وخيل إلي أنه سعيد، وأن ليس بمقدور أحزان الدنيا ومخاوفها أن تفترس سعادته آنذاك ..

«21»

الوليد

كان علي أن التقي بمن تبقى من زملائي لمراجعة الحساب.. أي حساب هذا والسيف المغولي لا يزال معلقاً في سماء بغداد، يتنزى اشتهاءً، وينتظر الإشارة لكي يبدأ الحصاد كرة أخرى؟

مخادع أمانهم الذي منحوه.. كنت أعرف هذا جيداً.. وكان أبي يحدس الأمور، وهو في هذه النقطة كان يتفق معي.. انهم دائماً يمنحون المدن المذبوحة أمانين.. ودائماً كان أمانهم الأول مضللاً كحرباء مجربة تعرف كيف تختار اللون الذي تضيع فيه على الآخرين، ثم ما تلبث أن تنفث سمها.. هذه المرة يستوي الجميع قبالة مطحنة الموت.. الذين يقاتلون والذين لا يقاتلون.. الكل يصير زرعاً أخرج شطئه واستوى على سوقه، وحان قطافه.. المغول لا يرحمون أبداً.. شريعة الدم تحكمهم بقبضة يبدو أنهم يخضعون لحكمها حتى النخاع.. يخيل للمرء أحياناً، انهم مسلوبو الإرادة تجاه قدر لا راد له، ودائماً، وبمنطوق هذه الشريعة الصماء كصخر الجبال المتصلب عبر ملايين السنين، ينقضون على خصمهم في معركة غير متكافئة فيكسرون عنقه ثم يمنحونه الأمان، حتى إذا اطمأن إليهم وألقى السلاح وخرج ملوي الرأس ذلة وانكساراً، مطمئنا إلى وعدهم الذي قطعوه، باحثاً عن ثغرة ولو كسم الخياط للتشبث بالحياة.. لتنسم الهواء الطلق ومغادرة خندق الموت، إذا بسيفهم يدّوم كرة أخرى فوق الأعناق المكسورة، قاسياً صلباً، متأبياً على كل

ما هو إنساني في هذا العالم، مستمداً من عالم الحجارة الصمّاء لغته في التعامل مع المغلوبين وهو يمارس حصاداً أشد نكاية وهولاً ..

اخترنا سوق الثلاثاء المهجور القريب من دار القرآن لكي نراجع الحساب، قبل أن تقع الواقعة فتسد الأبواب وتقطع الطرق فلا نقدر على أن نلتقي أبداً ..

تركنا أسلحتنا وانطلقنا إلى المكان المحدد محاولين أن نبدو كفقراء اعتصرهم الجوع وخرجوا لكي يتسولوا ويبحثوا عن الطعام.. كان الإعياء، والسهر، والجوع، والقهر، قد أعيانا فعلاً.. ترك بصماته على ملامحنا، فيما لا يشك معه أحد من جواسيس هولاكو الباحثين عن الضمانات بتقديم رؤوس الآخرين مهراً للطاغية، أن هؤلاء الذين يتوافدون على سوق الثلاثاء يمكن أن يحركهم شيء آخر غير البحث عن لقمة الطعام في قمامات بغداد ..

وأنا أجتاز الأحياء الشرقية الملاصقة للسور لمحت مجموعات من المغول تحاشيت حتى أن أنظر إليهم.. وتمنيت لو أن لي بهم قوة.. ولكن هيهات.. ما ينتظرني هو بالتأكيد أكبر من هذه النزوة التي تملكتني في أن أرجع إلى سلاحي فأحتز به بعض رؤوسهم.. واحداً منهم على الأقل.. ها هم أولاء الذين ذبحوا أهلي وإخواني.. واسترقت نظرة عابرة إلى ثلة منهم كان أفرادها يتحدثون بينهم بلغة لا أفهمها.. وكانوا يشيرون هنا وهناك وكأنهم يقصدون أمراً ما أو يبحثون عن شيء ضائع.. لفتت ملامحهم انتباهي.. عيونهم على وجه التحديد.. هذا التشابه العجيب الذي لا يكاد المرء يفرق معه بين أحدهم والآخر.. لكأنها ضربت في دار السكة كقطع النقود.. حاولت جاهداً أن التقي فيها بملمح واحد، بإشارة ما أو نداء اطمئن معه واقتنع بأن هؤلاء ينتمون إلى فصيلة الإنسان.. لكنني أخفقت.. قد أكون مخطئاً، وقد تكون كراهيتي وحزني اللذين تسربا حتى النخاع، سبباً في إخفاقي هذا.. لكنني بعد إذ استرقت

النظر إليهم أكثر من مرة أستطيع أن اقسم بأنهم من طينة غير طينة الناس! وتساءلت بأسى: أترى كان محتوماً على بغداد أن تبتلى بهؤلاء من دون سائر الخلق؟! ثم استعذت بالله وواصلت طريقي.. قطعت أحياءً بكاملها في دقائق معدودات رغم إحساسي بالقرف والإعياء.. لكن شوقي للقاء اخوتي جعلني أطير إليهم على جناح مهيض.

التقينا في سوق الثلاثاء.. لم يكن هناك أحد.. الطلبة والتجار والباعة والمتسكعون الذين كانوا يملأون المكان بصخبهم وضجيجهم.. غابوا.. كأنما بلمسة ساحر.. بعضهم اختبأ في داره وأحكم على نفسه وأهله الأبواب.. بعضهم الآخر غادر بغداد ولا أحد يعرف إلى أين.. فئة ثالثة تناوشتها سيوف المغول وها هي الآن مكومة قريباً من السور والأبواب ..

حاولنا ـ بصعوبة ـ أن نكتم مشاعرنا.. كنت أتمنى أن احتضن كل واحد منهم.. أن أجعل لغة الإشارة تحكي عن كل شيء وتحررني من أسر الكلمات.. لكن للحذر منطق آخر.. إنه يبني لغته الخاصة وقدرته على الفعل بعيداً عن اغراءات الشعور وتداعيات النفس التي تتوق لأن تكسر حاجز الصمت، وأن تصرخ إذا اقتضى الأمر ..

تبادلنا نظرات مترعة بالحزن العميق، ما كنت أعرف يوماً أن بمقدورها أن تختصر كل شيء.. وأن تكثف بإشارتين من نوع ما صفحتين من الزمن الصعب: ما كان وما يمكن أن يكون.. أسبوعان من الفناء الذي شهدته بغداد.. وأيام في ظهر الغيب تعد بالمطر الدموي الذي يوشك على الهطول كرة أخرى.. كان لابد أن نهيل التراب على أحزاننا.. كل واحد منا كان يقول مع نفسه: فيما بعد.. فيما بعد.. قد أرفع التراب، واسترجع، فإن ثمة أشياء كثيرة يجب أن أستعيدها.. ولكن ليس الآن.. كانت كل دقيقة تمضي تعني دهراً قد تتغير فيه المصائر والمقدرات ويرمي المجهول بثبور جديد.. وقلت لهم، وأنا أحاول ـ بصعوبة ـ أن اكبت عذابي:

- يجب أن نعترف بأن التكافؤ بين الطرفين يكاد ينعدم تماماً، فها هم الآن يحكمون قبضتهم على بغداد، ولم يعد بمقدورنا أن نفعل شيئاً ذا قيمة قد يعيد ترتيب الوضع، ويسوقه نحو الأحسن.. كل مهمتنا قد تتمركز في بؤرة واحدة.. أن ننبه الناس إلى أن المغول قد يستأنفون المذبحة كرة أخرى، وأنهم الآن يحضرون لطقوسها.. قاطعني أحدهم:

- قد تكون محقاً.. ولكن هذا ليس قدراً لا مفر منه.. قلت:

- لقد مارسوا اللعبة مع كل المدن التي قاومتهم، فهل تستثنى بغداد؟

تساءل، وهو يحاول أن يتشبث بشيء ما، شيء قد لا يبدو واضحاً تماماً حتى بالنسبة إليه:

- وكلمتهم للخليفة؟

بابتسامة محملة بالقهر والعذاب قلت:

- الخليفة قد يغدر به في أية لحظة.. فماذا تعني كلمتهم؟

لم يجبني، وظل السؤال المحير معلقاً على وجهه، فقلت مؤكداً قناعتي:

- إنهم في المرة الأولى كانوا يعتقدون أنهم يمارسون مهمة حربية صرفة مع الخصم.. لكنهم في الثانية ينزلون به العقاب الذي تحتمه شريعتهم.. إنهم - باختصار - لا يرتاحون لمن يقف في طريقهم.. لقد بلغ بهم الطغيان الذي بنته سلسلة طويلة من الانتصارات أن يتصوروا أن ليس من حق أحد أن يرد كلمتهم، وأن مجرد التفكير بمقاومتهم قد يكون عملاً غير مبرر.. عملاً غير مقبول، وربما ضد التاريخ.. على الأقل من منظورهم الخاص.. وفي حالة كهذه لابد من فتح صفحة أخرى في السفر الدموي من أجل التأديب الذي يرونه ضرورياً مرتين.. مرة لتحقيق شهيتهم في الانتقام، ومرة أخرى لإنذار الناس والأمراء والحكام في العالم كله أن عليهم أن يخضعوا لكلمة المغول، وألا تدور في أذهانهم لحظة واحدة فكرة المقاومة والصمود.

تساءل آخر:

ـ والعمل؟

قلت:

ـ لن نستطيع على أية حال أن نعيد ترتيب الوقائع من جديد، أن نرجع حركة التاريخ إلى الوراء لكي نجعله يتشكل بالصيغ التي نريدها.. لقد أخطأ الخليفة بإعطائهم ما يريدون، بإصدار أمره إلى البغداديين أن يضعوا السلاح، ولكن هذا لا يعني أن كل شيء قد انتهى وأن مهمتنا المتبقية هي أن نندب مصائرنا ..

تساءل مرة أخرى:

ـ والعمل؟

قلت:

ـ أن ننبه الناس إلى هذا.. أن نجعلهم على وعي بشريعة المغول كي لا يؤخذوا على حين غفلة.. لقد ذبح عشرات الآلاف.. وحرام أن يضحى بآلاف أخرى تحت وقع المفاجأة التي لم يحسب حسابها ..

تساءل أبو الحسان الذي أعرفه متحمساً إلى حد التهور، والذي كانت مهاراته في الفروسية والرمي عند باب كلواذى تثير الدهشة:

ـ ونكفّ عن قتالهم يا أبا خالد؟

قلت بهدوء وأنا أشدد على مخارج الأحرف:

ـ الآن على وجه التحديد لابد من التريث.. إن أية محاولة لاستثارتهم قد تمنحهم المبرر لاستئناف المذبحة، وهم قد يتمنون هذا.. ولن نكون السبب على أية حال في دوران الطاحونة الدموية من جديد ..

رد أبو الحسان وكأنما ليجد منفذاً للتعبير عن رغبته الجامحة في المقاومة:

ـ ولكنهم فاعلوها ..

أجبته:

ـ هذه مسألة أخرى.. أما أن نعطيهم الإشارة فلن يكون هذا مقبولاً ..

أيد أكثر المجتمعين وجهة نظري، ولكني لمحت في وجوههم، فيما وراء القناعة الموقوتة، سؤالاً يبدو أنه كان يلح عليهم، تماماً كما كان يمارس ضغطه على أعصابي:

ـ وماذا بعد؟ هل سنظل عاطلين عن عمل شيء ما غير تحذير الناس، وربما دفعهم إلى التخفي والفرار؟

وقلت، وكأنني أحاول أن أبدد الغموض الذي يعتمل في أعماقي:

ـ فيما بعد، وعندما ينجلي الموقف ويكف الإعصار المدّوم، يمكن أن نرجع ثانية لتصفية الحساب، أما الآن فإن الخيط رفيع لا يكاد يرى بين الحذر والتضحية، إنه كحد السيف وعلينا أن نعرف كيف نعبره بأقل قدر ممكن من الخسائر.

قاطعني أبو الحسان بنفاد صبر ويده تجوس في جيب سترته الطويلة كمن يبحث عن شيء:

ـ ماذا لو أخطأت توقعاتنا واكتفى المغول بما حققوه؟

تقدمت إليه خطوة حتى أصبحت بمحاذاته وربتّ على كتفه بمحبة:

ـ في هذه الحالة يمكن أن نرفع السلاح كرة أخرى، ولكن ليس في صيغة مواجهة قد تقود إلى الفناء المحقق.. سألني بلهفة:

ـ كيف؟

قلت:

ـ هنالك أساليب أخرى أكثر جدوى يا أبا الحسان ..

تساءل يحيى الرحبي وكأنه يسعى لتغيير دفة الحديث صوب وجهة أخرى:

ـ وماذا عن المستعصم؟

ـ لم تعد للخليفة أية قدرة على ممارسة دوره.. ليس لكونه لا يملك جيشاً، ولكن لأنه لم يتخذ منه لحظات التحدي المبكرة الموقف الذي يمكنه من الفعل ..

ـ كيف؟

تساءل يحيى كرة أخرى ..

واصلت حديثي وأنا أقترب منه كي أتمكن من تخفيض صوتي:

ـ في إحدى رسائله لهولاكو هدد بأن وراءه ملايين المسلمين، ولن يكون بمقدور الطاغية تحقيق هدفه، فإن دونه المستحيل.. كان الخليفة محقاً في هذا، على الأقل على المستوى النظري، لكنه لم يفعل أي شيء لتحويل مقولته إلى قوة ضغط حقيقية يقلم بها أظافر هولاكو ويقطع يده إذا اقتضى الأمر.. إن جماهير المسلمين كانت دائماً القوة الحقيقية الفاعلة في مجابهة الغزاة.. وأنتم تعرفون جيداً ما الذي فعلته في مواجهة الفرنجة.. لكن الخليفة، لعجزه وقلة حيلته، وربما ضيق الأفق الذي ختم على تصرفاته.. لم يفعل أي شيء، وخسر بذلك الفرصة الأخيرة للرد على المغول.. وها هم الآن يمارسون معه لعبة القط والفأر، كما مارسوها مع كل الأمراء والحكام الذين وقعوا في الخطأ نفسه.. لقد وصلوا به في نهاية الأمر إلى حافة اليأس والإعياء وربما الانهيار.. فها هو ذا يذهب إليهم بنفسه، وهو ما كان ينتظره هولاكو الذي يتحلب ريقه منذ زمن بعيد لإذلاله.. ذلك أن كرامة الخلافة هي العائق الأخير.. على أية حال، لقد أعطاهم ما يريدون ومكن الطاغية من تنفيذ حلمه بإعلان الأمان ..

كان عبد الغفار الشرابي آخر المتحدثين.. وأنا أعرفه جيداً.. صياداً من طراز عجيب، ذا قدرات قتالية مذهلة، كما أنه في الوقت نفسه قدير على شكم اندفاعه في اللحظة المناسبة فلا يجرفه إغراء القوة إلى حافة التهور:

ـ دعك من المستعصم يا أبا خالد فإنا قد نفضنا أيدينا منه منذ زمن بعيد.. قبل أن أجيبه عرضت على اثنين من المجتمعين أن يبعدا قليلاً عن السوق باتجاه دربي دينار والخبازين وأن يراقبا المسالك جيداً خشية أن يكبسنا جواسيس المغول وعملاؤهم من النصارى والتجار، والتفتّ إلى عبد الغفار:

ـ ليس كما تتصور يا أبا ذر، فإن سقوط الخليفة يعني أن البغداديين قد أصبحوا بلا غطاء إلا غطاء إيمانهم بالله.. لقد ضاع جيش الخليفة قبل بضعة أسابيع، وحصد المغول زهرة المتطوعين للمقاومة وآلاف الأهالي.. وها هو ذا الخليفة نفسه يضيع ..

ـ والحل؟

تساءل والرغبة في الثأر تكاد تطل من عينيه.. قلت وأنا أقلب طرفي في الدروب المتفرعة من سوق الثلاثاء المهجور:

ـ لن ندعهم يقر لهم قرار بمعونة الله.. ستعرف خناجرنا وسكاكيننا كيف تغوص في أجسادهم الواحد بعد الآخر.. وسنقتنصهم تحت غطاء الليل.. ولكن ليس قبل ان يهدأ الإعصار القادم وتتوقف طاحونته الحمراء، ويتضح الموقف تماماً.. عبد الغفار ضم قبضتيه بعصبية كأنه يستعجل الفاصل الزمني بيننا وبين يوم الثأر الموعود ..

الرجلان اللذان ذهبا لتحسس الطريق عادا ليقولا إنه ليس ثمة خطر قريب.. بينما واصلت حديثي:

ـ لقد كانوا يمارسون القتل على طريقتهم الخاصة.. اندفاع كتل هائلة من المقاتلين كالصخور الضخمة المتساقطة من أعالي الجبال، تسحق وهي تهوي كل ما يقف في طريقها.. إن مقاومة الاندفاع المغولي وجهاً لوجه أصبح مستحيلاً.. وهو بالتالي نوع من الانتحار.. من إلقاء ما تبقى من أصحابنا في التهلكة.. وبغداد تحتاجنا.. على الأقل للتحقق بنوع من القدرة على مواصلة المقاومة.. على إشعار المغول بأن هناك من

يتصدى لهم، من يواجه جندهم.. من يصدهم ولو للحظات، عن الوصول إلى هدفهم الأخير.. توقفت قليلاً وأنا أقلب عيني في وجوههم لكي أرى وقع كلماتي ثم ما لبثت أن قلت:

ـ إنه صوت الرغبة في البقاء، ليس من أجل البقاء ذاته، وإنما للحفاظ على ما أمكن من جهد هو في هذه اللحظات ضروري كضرورة التقابل المحتوم بين الموت والحياة ..

ترحمنا مرة أخرى على أرواح الشهداء، واتفقنا بعد كلمات وجمل متقطعة، لكنها واضحة حاسمة كألق النار، على ما يمكن أن نفعله.. سنتوزع إلى فرق صغيرة تنتشر في شرايين بغداد.. في الدور والمحلات والمدارس والمساجد والجوامع والأماكن المهجورة والحوانيت والأسواق.. في الأزقة والدروب والحارات والمنعطفات.. كنا نعرف بغداد بجانبيها شبراً شبراً.. من الشونيزي ومقابر قريش وباب الطاق والإمام الأعظم في أقصى الشمال، إلى حي الرحبة ودار طراد وباب كلواذى في أقصى الجنوب.. حاولنا أن نحقق قدراً من التغطية المتوازنة التي لا تدع مكاناً لا يكمن فيه سيف أو خنجر أو سكين تتحفز في اللحظة المواتية لكي تقطع رأساً أو تكسر يداً جاءت لكي تقتل الآباء والأبناء والأمهات، وتهتك خدور العذارى والثيبات ..

عبرت الجسر مسرعاً صوب الكرخ.. كان النهار يلفظ أنفاسه.. نظرت إلى حافات الكرخ الشرقية حيث بدت من بعيد مئذنة جامع قمرية عند الجسر الأعلى.. تذكرت كيف كنت أذهب مع أبي إلى هناك في ليالي رمضان المترعة بالعذوبة والوجد، لأداء صلاة التراويح.. وما لبثت أن صفعتني موجة قاسية من الاكتئاب لم يكن بمقدوري مدافعتها، وأحسست بأنني أغوص فيها حتى القرار ..

«22»

حنان

قال أبي: إن بغداد تقف كرة أخرى على تخوم الموت، وإنه يعرف المغول جيداً.. إنهم يذبحون مرتين، وانهم يحدون شفارهم عند أطراف الرصافة لكي يغتالوها.

شرب قدحاً من الماء.. سمعت صوت تكسره في حلقه.. فأدركت كم أنه يتألم، وأن وجع روحه تكاد تلمسه يداي. وقال وهو يفرك سبحته الزعفران فأكاد أشم رائحتها: إن ذهاب الخليفة إلى هولاكو لن يؤخر الأجل المحتوم.. وإن أمان الطاغية الذي منحه للبغداديين خدعة ماكرة تمرس على التسلي بها.. وقال، وهو يهم بالنهوض ويركز عينيه في نقطة ما في الأفق الشرقي: يا الله!

يقشعر جسدي وهو يقولها، كأنما هو يصهر فيها، بقوة روحه العجيبة، كل نداءات المسلمين، من استشهد منهم ومن ينتظر لحظة الاستشهاد.. وكان يخيل لي أنها، قبل أن تصل أطراف لسانه لكي تصير صوتاً مهموساً.. تتشكل في كل خلية في جسده، وتستمد قدراتها على الخطاب المتصاعد، بلفح مؤثر، إلى بوابات السماء، من كل ثنية من ثنايا عقله وقلبه وروحه ووجدانه.

ما من مرة سمعتها، منه بالذات، إلا واشتعلت النار في روحي.. إن بمستطاعه دائماً أن يجعلها قديرة على إشعال النار حتى في الأشجار الخضراء! ومن يدري؟ كنت أتساءل في سري، فلعله يذيب فيها سر

التوحيد الذي طالما حدثنا عنه دون أن أفقه منه شيئاً.. لكنني كنت أحسه.. أتذوقه.. ألمسه بيدي، فتشتعل في روحي النار.. هادئاً.. وقوراً.. متفرداً، كان نداؤه.. وهو هذه المرة، أكثر من أي وقت مضى كان يعرف تماماً كيف يشق طريقه إلى الملكوت بانتظار إشارة العزاء!

جاء الوليد على عجل، كعادته دائماً، لكي يرى أمي وأبي، ويسأل عني وعن عبد العزيز.. كان شاحباً أكثر مما يجب وكأنه يعاني من جوع قديم.. وكان أبي قد ذهب منذ دقائق لزيارة صديقه (الشيخ الصرصري) في الزقاق المجاور.

وقال الوليد: ـ وأمي؟

فأشرت بابتسامة مصطنعة إلى المطبخ، وأنا أرثي في سري لهزاله الملحوظ.. عيناه كانتا قد اندفعتا إلى الداخل قليلاً، هكذا خيل إلي، بينما برز المحجران مجسدين أكثر فأكثر ما يعانيه من تعاسة وعذاب.

سألته قبل أن يدلف إلى المطبخ:

ـ ما الذي معك؟ إنني.. .

قاطعني وهو يحاول أن يكون طبيعياً تماماً:

ـ لا جديد يا حنان

ـ لكن أبي يقول إنهم سيمارسون القتل كرة أخرى!

أجاب وهو يبتسم بسخرية:

ـ هذا ما كنت أعنيه

لم أفهم قصده، وعرف هو أنني لا زلت أقف في دائرة التساؤل!

ـ أن يكفوا عن القتل.. أن يكتفوا بمذبحة واحدة فذلك هو الجديد ..

تبعته إلى المطبخ، وسمعته وهو يقبل رأس أمي الذي اشتعل على حين غفلة وكأنه يعبر عن حزنها بطريقته الخاصة.. وكنت دائماً أقول إن

الصمت في لحظات كهذه، لن يجدي، وأنه ينطوي على ممارسة غير طبيعية.. ممارسة هي ضد نزوع الإنسان وأشواقه، وأنه عندما يتعذب فان عليه أن يتكلم.. يحكي.. يقول.. يصرخ إذا اقتضى الأمر، وإلا حفر الحزن مسارب أخرى، وعبّر عن نفسه وفق هذه الطريقة أو تلك.. وها هو ذا، بالنسبة لأمي على الأقل، يشعل في رأسها الشيب!

وقال الوليد:

- هذه أول مرة لا أسمع فيها أزيز الزيت المقلي وأشم رائحته ..

قالت:

- وأين هو الزيت يا بني؟

رد، وهو يستلقي مرهقاً قريباً من قدمي أمي:

- إنهم يحاصروننا، لم يبق في بغداد ما يكفي الجائعين.. وعندما سينهض البغداديون لمجابهة السيف المغولي كرة أخرى فقد يمنعهم الجوع من أداء مهمتهم والدفاع عن أنفسهم قبالة الموت.. إن المغول يحرقون الغلال الزائدة عن حاجتهم لكي لا يتسرب منها شيء إلى الناس ..

تفرست أمي في ملامحه ملياً وقالت بحزن:

- ولكنك أشدهم جوعاً.. هيا، كل ما شئت وشد صلبك فإن وضعك لا يسر أحداً!

تدخلت في محاولة لكسر الدائرة الضيقة للحديث:

- قبل أيام كنت تمنعينه من أن يخطف لقمة من هذا الصنف أو يتذوق ذاك ..

قاطعتني وهي تحدق فيه بحنان:

- ما كنت أريد لشهيته أن تنكسر قبل أن يرجع أبوك ويحين موعد العشاء ..

- «والآن؟»، تنهدت وهي تقول بنبرة توسل:

ـ إذا أردت أن تبرني فكل يا بني.. إن أثمن هدية يمكن أن تقدمها لي الآن هي أن تأكل ..

تناول كسرة من الخبز وغمسها بقليل من العصيدة ودفعها إلى فمه.. أحسست هذه المرة أيضاً أنها وهي تجتاز بلعومه، تتعثر هناك ولا تجد طريقها بسهولة. وقلت في نفسي: إنه وأبي سيان.. إنهما الآن يشربان الحزن ويأكلانه معاً.. وهذا ـ على ما يبدو ـ لم يدع لهما أيما فجوة أو مكان لكي يأكلا ويشربا كما يأكل ويشرب العطشى والجائعون.

وأنا أتذكر عبد العزيز.. لا أدري لماذا.. أو لعلها مجرد المقارنة بينهما وبينه.. قرع الباب وقلت دونما تريث: إنه هو ..

كان عبد العزيز بالفعل.. واقتنعت للحظات بأن أبي منحني شيئاً من أسراره، وأنني أصبحت ـ على طريقتي الخاصة ـ قديرة على تجاوز المنظور، كما كان يسميه ..

لحظته جيداً وهو يوغل في الفناء، لا يكاد يقلقه شيء في هذا العالم.. كدت أن اعتقد ـ أيضاً ـ أن أحزان البغداديين لم تخترق فاصل الألم في جملته العصبية . . وكان ـ كعادته ـ يحمل كتاباً ..

بادرته، فرحة باجتماع الشمل:

ـ الوليد سبقك قبل دقائق.. ها هو ذا الآن في المطبخ، لكأنكما على ميعاد!

بغير ما حماس قال:

ـ حسناً، هل تأذنين لي بالدخول إلى هناك؟

لم أكتم دهشتي، ولكني لم أمزق عنها الستار أيضاً:

ـ ها هو ذا أمامك ..

سمعه الوليد، فأطل من باب المطبخ مرحباً، ثم أردف وهو يضع يده على كتف عبد العزيز:

ـ أين أنت يا رجل؟

أشار عبد العزيز باعتداد إلى الكتاب:

ـ مع هذا!

لم يطق الوليد صبراً وقال بصراحته المعهودة:

ـ ولكن بغداد تذبح يا عبد العزيز ..

أجاب دونما أي قدر من رد الفعل:

ـ وهل أن عدم قراءتي ستمنع المذبحة عن البغداديين؟

فوجئ الوليد بإجابته التي لا تتلاءم أبداً مع عنف الحدث، وتدفقه المفجع، ولكنها تتوافق ـ ربما ـ مع معطيات المنطق الذي يعشقه عبد العزيز.. وعالم الأرقام التي يعرف كيف يصوغ منها المعادلات على طريقته الخاصة ..

وقال الوليد:

ـ إنك تتحدث بلغة غير لغة الناس، وإنني لا أكاد أفهمها رغم أننا نجلس معاً في المستنصرية نستمع للدروس نفسها ونتفوق فيها معاً ..

أجاب وهو يبتسم:

ـ كل شيخ وله طريقته

حاول الوليد أن يقول شيئاً، ولكن عبد العزيز قاطعه وهو يربت على جلد الكتاب:

ـ لا يمكن أن يخطئ هذا ..

ـ ولكنك تريد أن تجمع الكمثرى إلى التفاح وتعطي رقماً واحداً.. إن منطق الرياضيات نفسه لا يسمح بهذا ..

باعتداد أشد راح يربت ثانية على جلد الكتاب وهو يقول:

ـ ومع ذلك فإن هذا لا يخطئ ..

ـ ولكن البغداديين يقتلون يا عبد العزيز ..

ـ لست أنا المسؤول عن قتلهم على أية حال

ـ والخليفة نفسه قد يذبح في أية لحظة

ـ تلك مسؤوليته وذلك خطؤه بالتأكيد وأنت تعرف جيداً أننا

نحصد دائماً ما زرعناه!

ازداد غضب الوليد، بدأت ألمح توتّره يتصاعد لحظة بلحظة:

- منطقك البارد هذا، بإحالته على الحياة، يسقط.. وغداً إذا ما مس منجلهم رقبتك، وتعرضت للذبح كعشرات الآلاف من البغداديين، فهل سيتاح الوقت الكافي لكي تقول بأنك زرعت غير هذا، وأنك يجب أن تظل خارج دائرة الحصاد؟

قال وهو يتحرك قليلاً باتجاه الشرفة الأرضية المطلة على دجلة:

- حسب قناعتي فإن هذا لن يحدث!

- فماذا تسميه إذن؟

- إن العقل يا وليد يتأبى على القتل، وإنه، أيضاً، يملك قدرته الفذة في الدفاع عن نفسه.. ولسوف ترى كيف أنني سأعرف في اللحظة المناسبة كيف أختار طريقي ..

- وهموم الناس؟! وشرف البغداديين؟ والمذبحة التي تنتظرهم مرة أخرى؟ و ..

قاطعه وهو يجلس باسترخاء على وسادة ملقاة بالقرب من السياج الخشبي ويجر الوليد من يده:

- هيا اجلس ودعنا من الجدل الآن، فليس أمامي سوى دقائق معدودات ..

سألته وأنا أعاني تمزقاً قاسياً كنت أتجرع مرارته قطرة قطرة، فأفقد البهجة، وأحس شيئاً فشيئاً بفقدان طعم الأشياء:

- فلتبق حتى يرجع أبي ونتناول الطعام سوياً.. لقد سأل عنك أكثر من مرة ..

نظر عبر النهر، وأشار إلى المستنصرية التي لا يبدو منها سوى حافاتها العليا:

ـ إنني على موعد مع بعض شيوخي هناك!

فوجئ الوليد، وتساءل محاولاً أن يكون طبيعياً تماماً:

ـ ماذا؟

قال عبد العزيز وهو لا يزال يرمي ببصره بشغف صوب الضفة الأخرى:

ـ محاولة لاستئناف العمل، قد تخطيء وقد تصيب ..

ـ ولكن؟

ـ المهم أننا نحاول، والبقية ليست من حدود اختصاصنا.

ـ ومن هم الشيوخ الذين سيحضرون اللقاء؟

ـ لا أعرف على وجه التحديد.. قد يكون بعضهم من الأساتذة القدامى، وقد يكون بعضهم الآخر عناصر جديدة تحل محل الذين رحلوا لسبب أو آخر.. تلك سنة الحياة ..

ـ والطلاب؟

ـ ليست هذه مهمة اللقاء.. إن علينا أولاً أن نتدبر القدرات التدريسية التي يمكنها أن تستأنف العمل بالكفاءة التي تليق بالمستنصرية والبقية تأتي ..

عاد إليه توتره، ولكن في مواجهة محاولة صعبة للسيطرة:

ـ البقية لن تأتي يا عبد العزيز ..

تساءل عبد العزيز بإشارة من يديه وكأنه لم يفقه ما يرمي إليه الوليد، فقال هذا كرة أخرى:

ـ البقية لن تأتي.. هل تريد أن أوضح لك الأمر؟ المسألة باختصار أن نصف الطلبة ذبح.. والنصف الآخر مرشح للجولة القادمة.. ولكنهم جميعاً، من قتل منهم ومن ينتظر القتل، ما سلموا للغشم الوثني بسهولة، ولا انخدعوا بحيل المنطق، أو حاولوا بعبارة أدق، أن يجدوا في حيثياته الصارمة ما يحميهم من المسؤولية ويمنحهم الأمان.. لقد دافعوا بشرف عن مصير بغداد ..

لم يحر عبد العزيز إزاء رهبة الموقف جواباً، وواصل الوليد:

ـ إن المركب يغرق يا عبد العزيز.. وكل الذين لم يمدوا أيديهم للمعاونة على الإنقاذ، هم قتلة بشكل من الأشكال.. مخربون، من حيث أن وقوفهم متفرجين على الحدث، هو بالمعنى الأخلاقي، معاونة على الغرق.. لقد حذرنا رسول الله.. وكان علينا أن ننتبه للنذير!

نهض عبد العزيز قائماً وهو يقول:

ـ قد أرجع إلى هنا كرة أخرى.. إن لدي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك.. والآن فإن علي أن أعجل للحاق بالموعد، ولسوف أحدثك أيضاً عما سيؤول إليه الاجتماع ..

وبلهجة أكثر ودية قال:

ـ ألا يسرك يا وليد أن يخفق عقل المستنصرية كرة أخرى؟

مضى عبد العزيز إلى هدفه كالسهم.. نظر إلي الوليد دون أن يقول شيئاً ثم غادر المكان.

لمست في نظرته أكثر من سؤال.. وكان كل سؤال يحمل إجابته القاطعة كالسكين.. من جهتي تلقيت إشارة من نوع ما.. إشارة تنطوي على قدر من العتاب الذي جعلني أعيد ترتيب الأوراق في ذاكرتي، رغم أنني في منحنيات الوجدان ودروبه الخفية، كنت أخفق واضطرب كطائر مهيض الجناح، وكنت أتوق إلى التحرر من الشد القاسي، متمنية من أعماق القلب أن تتمحض علاقتي بعبد العزيز للمحبة الخالصة التي تغسل الصدأ وتعيد ألق الفؤاد المنكسر الذي ينطوي على عذاب الدنيا ..

رفعت رأسي قليلاً صوب الجانب الشرقي.. هدوء مخيف يسيطر على الرصافة.. هدوء شبيه تماماً باللحظات التي تسبق قصف الرعد، وسياط البرق وهي تضرب ظلمات السماء.. وتساءلت: هل بمقدور قوة في الأرض أن توقف المطر وتكفه عن الانهمار؟!

«23»

عبد العزيز

اقترب من المستنصرية بوجل وإشفاق.. قلبي ينبض بعنف.. أحاول أن أرده إلى الصواب فلا أستطيع.. كل خطوة تقربني منها تزيد من وجيبه.. يتحول النبض الأبدي الذي لم أكن انتبه إليه من قبل إلى وجع أكاد ألمسه بيدي.. ها هي ذي إذن على بعد خطوات منك يا عبد العزيز.. لم يكن عشرين يوماً هذا الذي فصلني عنك ولكنه عشرون عاماً.. وأتساءل: أإلى هذه الدرجة؟ فأعجز عن العثور على جواب مناسب.. الجواب هنا في القلب الذي يخفق كأنه طائر يطلق من الأسر ويعود إلى فراخه وهو يصفق بجناحيه.

مزيج عجيب من الغبطة والحزن والدهشة واللوعة والاكتئاب يأخذ بخناقي.. أتلذذ به.. أحس أنها توجه إلي نداءاً وأن علي أن أتلقى الإشارة وأكون وفياً.. مزيج من المشاعر يضطرب في قلبي ويتماوج.. يدفع أحدها الآخر ويضرب بعضها بعضاً، وأنا أكاد أغرق مندفعاً بقوة لا أملك ردها إلى القرار.. إحساس كالذي يحدث في الرؤيا يدفعني إلى التشبث أكثر بكثافة الأشياء من أجل أن استعيد وعيي قبالة المكان الذي عشقته حتى النخاع ..

يحزنني أنني لا أكاد أجد أحداً.. أنسى أن بغداد والمستنصرية نفسها تقفان الآن على حد السيف الذي يتلامع في الأفق القريب فلا يعلم أحد متى ينزل ثانية لكي يمارس دوره.. ومع ذلك فإن حزناً لم

أعهده من قبل يتملكني.. أين الشيوخ والطلاب؟ أين الباحثون والعلماء؟ أين الناس الذين كانت نعالهم تخفق على بلاط هذا الطريق المرصوف المفضي إلى المستنصرية؟!

وأقول في نفسي: لا بأس، فلسوف ترجع الأمور كما كانت، بكل تأكيد، وما هو إلا فاصل غريب، ولكنه عابر ككابوس ثقيل ثم يستيقظ الناس، ويخفق العقل كرة أخرى، وتتدافع الأيدي والأقدام ..

أتذكر للحظات، أن جّماً غفيراً من الناس ذبح أو اختفى أو غادر بغداد، وأنهم لن يرجعوا أبداً.. ولكني أقول: ليسوا كلهم على أية حال، فإن في الرصافة وحدها ما يمكن أن يعيد الحياة إلى المستنصرية كرة أخرى، بالحيوية نفسها، بالقدرة ذاتها على العطاء، بالعنف والتدفق اللذين يليقان بتوق العقل البشري للمضي أبداً إلى أمام وإلى أعلى، باحثاً منقباً

مكتشفاً، دون أن تصده عن المضي إلى هدفه مآسي العالم وأحزان الدنيا ..

أغذ خطاي محاولاً التقاط أنفاسي بصعوبة.. لحظات وأجدني قبالة البوابة الكبيرة ذات الزخارف البديعة.. ها هو ذا جناحها الأيمن مفتوح قليلاً.. الحمد لله.. أتنفس بعمق وأنا أقول: ها هي ذي أذن تستقبل العائدين.. إنهم لابد أن يكونوا هناك.. بعضهم على الأقل.. والآخرون سيجيئون.. فإذا قدر للقاء أن يؤتي ثماره فإننا سنتلقى الوعد من المستنصرية كرة أخرى ..

أمرُّ بدار القرآن.. أعاين بإعجاب زخارفها المدهشة، وكأنني أراها لأول مرة.. أجتاز الإيوانين الكبيرين مادّاً عنقي إلى فوق.. إلى أبعد نقطة في الأقواس حيث يتعاشق الآجر المنقوش بعلو يمتزج فيه الجمال بالجلال.. أهرع إلى قاعات الدرس.. تصفعني الذكرى.. يخنقني الفراغ.. أهرب.. مجتازاً السلم إلى الطابق الأعلى.. قاعات الطلبة خاوية

هي الأخرى.. ليس ثمة أحد على الإطلاق.. إحساس بالوحشة يجتاحني يضعني على حافة الخوف.. فما ألبث أن أغادر الرواق عائداً إلى الدور الأرضي كرة أخرى.. أجتاز

الحمامات، والمسجد، ومخزن القرطاسية، والصيدلة، والمستشفى.. أعبر باباً جانبياً يفضي إلى البستان المطل على دجلة.. هنا كان الخليفة يتردد وحاشيته بين الحين والحين.. يشرف على المدرسة ويتابع ما تشهده قاعاتها وأروقتها وفناؤها من تدفق وعطاء ..

أتذكر، وأنا أدافع الهموم التي أخذت تشدد خناقها علي، أكثر فأكثر، ليس ثمة غير غرفة الناظر الأول.. إنهم ولا ريب يجتمعون هناك ..

أقترب بوجل وإشفاق.. أخشى ما أخشاه الا أجدهم هناك.. معنى ذلك ألّا لقاء، وأن المستنصرية قد تتخلى عن وظيفتها إلى الأبد، لكي ما تلبث أن تنعق في خرائبها الغربان.. أسمع صوتاً.. صوتين.. ثلاثة.. أدخل فأجدهم هناك.. دونما تحية أدخل.. اختار مكاناً على المصاطب المحشوة والمصفوفة بعناية بمحاذاة الجدران.. أجلس فلا أتلقى بدوري ترحيباً.. ينظرون إلي بعيون لا تكاد تتضمن أي معنى على الإطلاق.. أحاول أن استشف إشارة ما.. تساؤلاً.. استفزازاً.. شيئاً يدل على أنها عيون ترى وتحس.. عيون أناس يعرف بعضهم بعضاً، أو على الأقل يعرفون أنهم جاءوا لكي يمارسوا شيئاً مشتركاً، وأنهم لابد أن يتواصلوا، بشكل من الأشكال.. والنظرات تظل على فراغها.. تدور في محاجرها بصمت فلا تبعث بأية إشارة على الإطلاق ..

مرة أخرى ينتابني إحساس بأنني ربما أعاني من كابوس ما.. حلم ثقيل تتداخل فيه الرغبات والمرئيات.. وتتداعى أعمدة العقل والمنطق لكي تحل محلها مواضعات متميعة، مفككة لا تحمل معنى على الإطلاق.

أكثر من ساعة وأنا أحدق في الجالسين فلم يقل أحد منهم شيئاً.. أتفرس في وجوههم جيداً مستنفراً آخر حدود قدرتي على الاقتحام.. أبحث فيهم عن أساتذتي وشيوخي: عن محيي الدين العاقولي، عن شرف الدين القرشي، عن عبد الرزاق بن رزق الله، عن نصير الدين البغدادي وأبي عبد الله الحصين وعز الدين الموصلي ويعقوب الأنصاري وأبي العز الصرصري ..

أعرف أن بعضهم هاجر أو قتل.. لكن أين الآخرون؟ مالي لا أرى أحداً منهم؟ واحداً على الأقل يمنحني القناعة أنني في داري وبين أهلي.. وأنني في المستنصرية نفسها.. وأتخيل ـ للحظات ـ أنني أخدع.. وأنني ربما أستدرج إلى مصيدة من نوع ما.. تسري قشعريرة خفيفة في أوصالي يزيدها الخوف من المجهول أواراً، فتنتفض منذرة بالويل، مهددة بالهلاك.. ازداد رعباً وارتباكاً.. انظر إليهم كرة أخرى.. أدير عيني في وجوههم.. أحدق طويلاً في عيونهم منتظراً كلمة ترحيب.. لمسة ما تقول لي أنني قد حضرت فعلاً، وأنني اجتمع معهم اللحظة.. وأن علينا جميعاً أن نبدأ العمل.

الصمت المطبق يتواصل، والعيون الزائغة لا تقول أي شيء، ولدهشتي ألحظ أن العيون المحدقة فيّ بلا أي قدر من الاكتراث، تفقد شيئاً فشيئاً استدارتها المعهودة.. تنزوي وتضيق.. تتحول إلى شكل لوزي.. أتذكر وأنا أتابع التغير شيئاً ما.. يرتعد جسمي.. يتغلغل الخوف في عظامي، فتصفعني موجة من البرد.. أكاد أصرخ وأنا ألمح وسط دفق ضبابي يكاد يحجب عني نقاء الرؤية، وجوها مغولية.. وأقول وأنا لا أزال أرتجف: إنهم ليسوا أساتذة ولا شيوخاً! ولكنهم ربما؟!

قبل أن أصرخ فأكشف عن قناعتي المتأرجحة في سيال المرئيات التي أخذت تفقد أي قدر من الصلابة والتماسك.. تستعيد الوجوه ملامحها البغدادية، فيتراجع خوفي، والقشعريرة التي كانت تحاصرني

ترخي قبضتها قليلاً.. ولدهشتي أسمع أحدهم يقول:

ـ ألست عبد العزيز؟

أجيبه متشبثاً بالخلاص:

ـ أنا هو أيها الشيخ!

ـ أهلاً ومرحباً بك!

أحس بالطمأنينة تغمرني، فأتشبث أكثر بالخلاص:

ـ مرحباً بكم جميعاً أيها الأساتذة الأجلاء!

تتدفق همهمتهم في أذني كشلال يتساقط من مكان بعيد.. وأقول في نفسي إنهم يردون التحية فالحمد لله!

يواصل الرجل في صدر الغرفة:

ـ أحب أن أسألك عن إمكان التعاون معنا

تندفع الكلمة كالسهم في فمي وتكاد تصل حافة لساني معلمة إياه أنني لهذا جئت، ولكني ما ألبث أن أنكمش قليلاً وأنا أتساءل مع نفسي: معنا؟ ماذا يقصد الرجل؟

يلمحني وأنا لا أكاد أحير جواباً، فيسألني محاولاً أن يصل إلي من زاوية أخرى:

ـ ما هو تخصصك يا عبد العزيز؟

أجيبه دونما تردد هذه المرة:

ـ الفلسفة!

ـ هذا حسن ونحن يعوزنا أستاذ في الفلسفة ..

قبل أن أتفوه بكلمة يقول بصيغة توحي بالحسم:

ـ إذن أنت على استعداد لتحمل المسؤولية؟

أنتظر قليلاً وأنا أدير وجهي في عيون الآخرين لعلي أتلقى منهم رد فعل ما قد يحفزني للمضي في الطريق.. يشجعني على أن أقول

للرجل: نعم.. إنني على استعداد.. لكنني ـ للأسف ـ لا أتلقى أي رد فعل على الإطلاق!

وخشية أن تعيدني نظراتهم التي لا تكاد تقول شيئاً، إلى دائرة الخوف من المجهول كرة أخرى.. خشية أن تفقد عيونهم استدارتها، وتنزوي وتضيق مرة ثانية.. أتحاشى النظر

إليهم.. أبذل جهداً صعباً لتجاوزهم، وأركز عيني في الناظر، فأجده يضرب بذيل ريشته على كتاب ملقى أمامه وهو ينظر بنفاد صبر منتظراً الجواب.

أنسى ما كان قد سألني عنه قبل لحظات، وأتطلع إليه مستوضحاً فيقول:

ـ هل أنت مستعد لتحمل المسؤولية يا عبد العزيز؟

أهم أن أسأله بدوري قبل أن أعطيه جوابي، عن الإجراءات التي اتخذت.. عن الشيوخ الذين اختفوا أو قتلوا.. عن أولئك الذين سيحلون محلهم.. عن إمكان التغطية الدقيقة لكل التخصصات.. وعن الطلبة، وموعد الدوام، ومطالب التعليم.. تتكاثف الأسئلة في رأسي وتزدحم حتى تصيبني بالارتباك.. أحاول أن أعيد ترتيبها لكي أعالجها معه واحدة واحدة فأكون على بينة من الأمر قبل أن أعطيه جوابي.. محاولتي تبوء بالفشل.. قبالة نظرته الصارمة المنصبة علي بقوة تنوء بها طاقتي.. أريد أيضاً أن أعرف، وهذا ما كان يهمني أكثر من أي شيء آخر على الإطلاق، ما الذي قاله الشيوخ الجالسون إلى جواري، ولماذا هم صامتون؟ هل قالوا كل ما عندهم وسكتوا.. أم أنهم لم يقولوا شيئاً على الإطلاق؟

أشير إليهم بيد مرتعشة.. تتسارع ضربات ريشته على الكتاب ويعيد السؤال مرة ثالثة:

ـ هل أنت على استعداد لتحمل المسؤولية يا عبد العزيز؟

استجمع كل ما تبقى لدي من قوة وشجاعة كنت يوماً أغزو بها عقول أساتذتي وشيوخي.. فأسأله:

- وهؤلاء؟!

لا يجيبني، بينما هو مستمر في الضرب بريشته على الكتاب.. أسأله بصوت أكثر ارتفاعاً هذه المرة:

- هؤلاء أيها الناظر.. ألا يتحتم أن نستمع لآرائهم؟ أن نضيء الأفق المعتم بوجهات نظرهم؟ وإذا سمحت لي، فهل بمقدوري أن أعرف شيئاً عن تخصصاتهم؟

- ليست هذه مهمتك!

- ولكني سأعمل معهم.. إنهم زملائي على أية حال ..

لا يجيبني بشيء.. هم أيضاً لا يتحركون.. لا يقولون شيئاً.. لو أن واحداً منهم.. واحداً فقط حرك شفتيه بكلمة لارتاحت أعصابي، ولأسرعت فقلت للناظر: ها أنا ذا بين يديك!

يعود الناظر إلى إلحاحه بالسؤال نفسه، دون أن يغير في صيغته، لكي يجعلني على الأقل أتواصل معه.. وأجيبه.. بالكلمات والأحرف نفسها.. والنبرة المتسائلة القاطعة كالسكين هي هي، وكأن المفروض فيّ، وقد حضرت، أن أكون قد حملت معي موافقتي المبدأية على العمل معهم.

فجأة أدرك أنه محق تماماً.. وأنه لا يجوز لي أن أطلب سماع صوت الآخرين أو الدخول معهم في مناقشات مستفيضة حول مستقبل العمل في المستنصرية.. إن هذا ليس من مهمتي، وأنه ربما يكون قد حسم بكل تفاصيله وجزئياته، وأنني - بالتالي - لم استدع للتشاور وإبداء الرأي وإنما فقط لأقول: نعم للناظر وهو يسألني عن استعدادي لتحمل المسؤولية.

أقول له أخيراً كالمأخوذ:

ـ نعم أيها الناظر.. إنني على أتم الاستعداد!

ـ حسناً.. يمكنك الآن أن تغادر المكان ..

أنظر إليه متسائلاً عما سأفعله في الأيام القادمة، وعن القاعات التي سأتولى تدريس الفلسفة فيها.. عن الطلبة والمنهج والمواعيد ..

يقول باقتضاب:

ـ فيما بعد ..

يشيح بوجهه عني فأعرف أن المقابلة انتهت وأن علي مغادرة المكان.. أقول في

نفسي: ليس قبل أن أودعهم جميعاً.. ومن يدري؟ فلعلها فرصة أخيرة للاختبار.. ربما يردون علي.. قد يقول أحدهم على الأقل كلمة ما فيريح أعصابي.

أرفع لساني بكلمات التوديع واضعاً فيها كل ما تبقى في كياني من محبة يبدو أنها تعرضت لتآكل أكبر بكثير مما كنت أتوقع.. ومع ذلك لا أتلقى أي جواب!!

ألوح بيدي إلى الناظر فيشير إلى الباب!

وأنا أغادر البوابة الرئيسية للمستنصرية أتذكر العاقولي والجوسقي والقرشي ورزق الله والبغدادي والحصين والموصلي والأنصاري.. والصرصري.. وأحاول أن أقارن بينهم وبين هؤلاء.. وأقول في نفسي: لا تكن عاطفياً يا عبد العزيز.. فإن ما مضى مضى، والآن فإن الناظر يعهد إليك بمهمة التدريس في المستنصرية وهو شرف ما كنت تحلم به وأنت لا تزال بعد طالباً فيها.. إنك الآن تشارك في تمكين المستنصرية من العودة إلى وظيفتها الكبرى.. فلا تكن عاطفياً!

«24»

سليمان

الهدوء المخيف الذي خيم على بغداد كان ينذر بالويل.. عندما تتجمع السحب السوداء في السماء الدنيا ويقدحها السيف المغولي لابد أن تمطر ناراً!! كانت المذبحة الأولى في الدجيل وعند أسوار بغداد الشرقية وأحيائها الجنوبية شيئاً ميسوراً.. لكن هذه!

وذهاب الخليفة إلى هولاكو لم يقدم في الأمر المقضي أو يؤخر شيئاً.. حاول أن يدفع اللعنة عن بغداد فلم يقدر.. محاولته كانت متأخرة جداً.. خارج حدود الزمن والتاريخ.. في وقت كان كل شيء فيه يتفكك ويضيع، وها هو الآن عند العتبة الفاصلة بين الحياة والموت يرغم على أن ينحني للطاغية، وأن يتجرع كأس التضليل المغولي حتى الثمالة.. أن يصدق، أراد أم لم يرد، وعد هولاكو الخادع بالأمان، وأن يطلب من البغداديين الصامدين في أحياء الرصافة وعند بقايا أسوارها المتهرئة، إلقاء السلاح ..

حذرت أصدقائي من السحب المتجمعة في سماء بغداد.. قلت لهم إنها لن تمنحكم ماءً فراتاً ولكنها ستمطركم ناراً.. ناداني شيخي عند كل منام أن أتمحض لتحذير الغافلين وأن أصير نذيراً.. لم آل جهداً، وحملت كلماته إلى كل حي وسوق: «دين محمد تتداعى حيطانه ويتناثر أساسه.. هلموا يا أهل الأرض نشيد ما انهدم ونقيم ما وقع».. لكن أحداً لم يرد علي، بل لعلهم لم يسمعوا صوتي.. كانوا في تشبثهم بالحياة،

وصراعهم القاسي ضد الفناء، يضربون الأمواج العاتية بأيديهم وأرجلهم.. فلما رأوا عن بعد ما ظنوه مركباً للإنقاذ، تدافعوا إليه وهم لا يعرفون أنه غير قادر على أن يحملهم جميعاً وأنه سيمضي بهم إلى القرار.

الوليد كان يحمل الرؤية نفسها.. من أين تلقاها؟ لا أدري.. لكنه كان يملك نظرة تخترق حجب الليل كالشهاب الثاقب فتضيء في لحظات كل الأشياء، وعلى ضوئها المتلامع كان يقول: هذا يجوز وهذا لا يجوز.. وكانت ميزته تكمن في أنه كان يحيل رؤيته إلى حركة.. كان يشكل من مفرداتها فعلاً يسعى جهده لأن يعاين المصير ويشارك في نسج خيوطه بإرادة الله.. وقال هو الآخر بأن بغداد مقبلة على مذبحة أشد هولاً.. وليس ثمة من يدفع عنها القضاء النازل الا الله.. وأن الناس.. الناس جميعاً، وليس الخليفة وحده ولا قادته ولا وزراؤه وحدهم، يحصدون اليوم ما زرعوا.. مارس معي إنذار البغداديين، ولكن على طريقته الخاصة، وربما ـ وهذا ما بدأت أتأكد منه يوماً بعد يوم ـ من خلال شبكة محكمة من الأصدقاء والأنصار.

لقد مرر الخليفة ـ من حيث لا يدري ـ خدعة المغول.. وللحظات كانت الحافة التي يتأرجح عليها البغداديون دقيقة كحد السيف.. ولم يدم هذا طويلاً والشفرة التي حّدت بما فيه الكفاية، وتلمظت للدم وحلمت بقطع الرقاب، مارست عملها بعيداً عن أي عرف بشري على الإطلاق.. ما من مدينة أو قرية حاصرها المغول ولقوا منها مقاومة ما إلا وذبحوها مرتين.. كانت الأولى تدمر أعصابها ولكنها لا تقضي عليها، فإن الإيمان يملك دائماً قدرة عجيبة على مواصلة العمل في قلب الليل بمواجهة الإعصار.. بعيداً عن حدود الاحتمال أحياناً.. وما تلبث الثانية أن تجيء بالغدر والحيلة لكي تدمر كل شيء، وتأتي على كل رطب ويابس، وتجعل الزرع المتكسر هشيماً ..

ها هي ذي الرصافة تتلقى عبء الضربة الثانية، هنا حيث يصير الفناء الكلمة الوحيدة المتفردة في كل القواميس.. ولن يفهم المغول، أو يتعاملوا الا من خلالها.

في واحدة من أشد لحظات الشؤم عتمة في تاريخ البشرية، أعطى هولاكو الإشارة إلى جنده فانقضوا على بغداد دفعة واحدة لكي يفترسوها.. ما كان بمقدور أحد أن يتصور هذا العدد الهائل الذي يستعصي على الحساب، وهو يضغط متدافعاً ككتل الجبال لكي يطوي كل ما يصده عن المضي إلى أهدافه. كان صراخهم يشق أجواز الفضاء، وكانت سيوفهم وهي تشرب من دم البغداديين تتلمظ متلامعة في الأفق القريب تريد المزيد.. لكأنه عطش ألف عام يبحث عن الارتواء ..

تكدست جثث الرجال والنساء والصبيان والأطفال في الأزقة والأحياء والحارات.. عشرات الآلاف تدافعوا باتجاه أبواب بغداد المتهرئة عند كلواذى والحلبة، فلم ينج منهم أحد.. آلاف أخرى اختبأوا في بيوتهم وأوصدوا على أنفسهم الأبواب، فكسرها المغول وذبحوا من فيها.. آلاف أخرى هرعت إلى الخانات ذات الأبواب المحكمة، فاقتحمها المغول إما بالكسر وإما بالنار، ثم دخلوا عليهم، فهربوا منهم إلى السطوح، فحصدوهم هناك، وراحت الميازيب ترش دماءهم في الأزقة.. لم ينج من المذبحة إلا من اختبأ في الآبار والقنوات أو لجأ إلى الأنفاق ومواقد الحمامات.. لم يميز السيف المغولي بين رجل وامرأة وصبي وطفل.. أحرقت أحياء بكاملها فصارت رماداً.. ألقيت أكداس الكتب في دجلة، وبعثرت في الدروب والطرقات فتناوشها الجائعون لكي يشتروا بها رغيفاً من الخبز يسكت جوعهم.. انتهكت أعراض النساء.. نهبت دور الأغنياء والفقراء.. تكدست جثث القتلى في الدروب والأسواق، ووقعت الأمطار عليها، ووطئتها الخيول ففقدت ملامحها ..

بعد أسبوع بكامله من القتل والدمار، نودي بالأمان وخرج الناس من مخابئهم.. من تبقى من الناس.. كانت ألوانهم قد تغيرت وذهلت عقولهم لما شاهدوا من الأهوال التي لا يعبر عنها بلسان.. خرجوا كالموتى والأشباح وهم يرتعدون من الخوف والبرد والجوع.. عشرات.. ولعلها مئات الآلاف من القتلى تستعصي على العد.. تكدست في عاصمة الخلافة التي غدت الآن بلا خليفة.. وها هوذا هولاكو يجوس وزبانيته خلالها لملاحقة من تبقى من السلالة المنكودة وتصفيتها.. ما كنت أخشاه وقع.. أن يكف خفقان الروح وأن يتجمد الإحساس في أضيق دائرة حيث تفقد الحياة معناها، ويستوي طعم الأشياء.. كانت المذبحة أكبر بكثير من كل توقع.. وكان الدم ينبجس حيثما قلب الإنسان عينيه.. والقتل أصبح الممارسة الوحيدة في هذا العالم، وسلطانه هو السلطان.. لم يعد ثمة لأي فعل أن يتشكل على أرض بغداد سوى القتل، وما كان بمقدور أية كلمة ان تصل إلى هدفها قبل أن تتيبس وتتلاشى ولا يتبقى سوى القتل الذي أخذ منشاره يعمل في رقاب البغداديين ليل نهار.. وأرجع إلى البيت الذي لم ينجه وأهله من الهلاك سوى قدر الله وإصراري والوليد على البقاء فيه وليكن ما يكون.. فالمصير هو المصير، يمكن أن تلقاه هنا ويمكن أن تعانقه

هناك، كما كنت أردد أمام حنان التي أصرت على الانتقال إلى الرصافة.. ولعل الذي منحنا الغطاء أن الكرخ كانت قد استسلمت دون مقاومة، لحظة مجيء المغول، وأن أسبوع الدم والثبور حاق بالرصافة، حيث رمى الغزاة بكل ثقلهم البربري فافترسوها.

أرجع إلى البيت يتناوشني الذهول فتتلقاني زوجتي وابنتي وكأن حزن الدنيا يفيض من نظراتهما.. ولا تسألانني عن شيء.. كنت أعرف ما يختبئ خلفهما.. ولكني أتذرع بالصمت متشاغلاً بمسح حافة القلنسوة بطرف كمي.. إلا أن حنان لا تصبر طويلاً فتقول بصوت متيبس:

ـ ماذا يا أبي؟!

ـ ها أنت ذا ترين، لقد أحكموا قبضتهم على كل شرايين بغداد.. والناس تآكلوا.. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

ولا تعقب بشيء.. ان الموقف أكبر بكثير من كل ما يمكن أن يقال في مجزرة كهذه ينعدم فيها التكافؤ تماماً بين القاتل والمقتول.. ليس ثمة من معنى لأية كلمة تقال.. لأي سؤال يرمى به في الوجوه التي أذهلها الحصاد.. وكانت حنان تدرك هذا جيداً.

وفي محاولة مني للهروب من دائرة السوء.. من الإحساس المدمر بالعزلة، للالتحام بندٍّ أو صديق يشاركني الهم والحزن، غادرت البيت مسرعاً، دون أن أقول لها حتى كلمة الوداع، أو إلى أين سأذهب.. ووجدتني أهرع إلى دار الشيخ أبي عبد الله عمران القفطي، القريب من مرقد زمرد خاتون، فعنده أجد عزائي.

كان الطريق إلى جامع الجيلاني طويلاً، وكان علي إذا أردت الذهاب إلى هناك، أن أجتاز الجسر وأن أقطع الرصافة من أقصاها إلى أقصاها.. أن أتجاوز حشود المغول التي تذرع أحياء الرصافة وتنتشر في أزقتها كالجراد.. وكان ذلك مستحيلاً ..

شوقي إلى الحضرة، وتحفزي للصعود من هناك كاد يجرفني أكثر من مرة إلى الذهاب.. لكنني تريثت.. كنت أريد أن أغسل روحي التي اكتسحها غبار الحزن والألم، وأن أتطهر.. أن أتلقى من عبد القادر إشارة أخرى.. أتحفز ثم أصرخ: يا الله.. وأبدأ الصعود، مستعلياً على كل أحزان بغداد، متخففاً من كل عذابات المسلمين في العالم.. رافعاً شكواي إلى سدرة المنتهى حيث تتمزق الحجب، وتتشقق السماء، وأطل على الملكوت.. ولكن هيهات!

وأنا في الطريق إلى القفطي كنت أتذكر ما كان يحكيه عنه الوليد.. أستاذ مدهش في الأصول.. كان يقول.. وعقله الرياضي الفذ كان ينصب على منهج العمل في قواعد

الشريعة، فيخرج منها الأعاجيب.. ما من صغيرة أو كبيرة في نسيج الحياة إلا وكان الأستاذ قديراً على أن يقول فيها كلمته.. حتى نبض الأشياء الذي يخفق من بعيد، كان القفطي يتصنّت إليه، ثم ما يلبث أن يقول واثقاً كطبيب متمرس: ها هنا.. ها هنا يا طلبتي الأعزاء نداءٌ من نوع ما وسوف أعلمكم كيف تستجيب له شريعة الله وكيف تقول فيه كلمتها ..

ويواصل الوليد مأخوذاً بالإعجاب نفسه: كنا نجلس إليه في المستنصرية وكأن على رؤوسنا الطير، وكان يرحل بنا عبر دروب الحياة ومنحنياتها وهو يحمل في يده كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وخبرات السابقين يستمد منها ويضيف عليها، فإذا به يخرج بنا من كل رحلة وقد عرف كيف يقول للحياة وهي تضطرب وتموج: كوني كما يريده لك الله ورسوله أن تكوني.. فتكون!

تذكرت أيضاً وحدته القاسية في الأيام الأخيرة وعدم اصطباره عليها.. لقد عاف الرجل الدنيا وما فيها، وتخلى طائعاً عن الزوجة والأولاد ولم تغره مباهج العالم المباحة.. لقد فاضت نفسه ببهجة واحدة لم تعد تستوعب غيرها.. إنه وهو يحاضر في المستنصرية كان يحس أنه لا يعمل عقله فقط ولكن روحه وجسده ووجدانه.. وكان وهو يتلذذ ببهجته هذه ينسى الدنيا وما فيها، متسلقاً بخفة ورشاقة سلم المعرفة العالي الذي تزيده أشواق الروح جمالاً وتحصنه من الغرور والضلال.

وتساءلت: لم لم يتعلم منه عبد العزيز كل هذا؟ لم اكتفى بأن يلاحقه في رحيله اليومي عبر المقايسات المنطقية، حيث ألق العقل هو الحكم الفصل، ولم يحاول أن يمضي معه بقوة الروح وندائها الآسر لكي يضيف إلى قفزاته قدرة أكبر على الرحيل والايغال؟! أتراه التعب والإعياء؟ أتراه الضعف وعدم القدرة على تحمل عنف الشوق المزلزل ومواصلة الطريق؟ أم تراه الإخلاد إلى الأرض والتشبث بالمطامح

القريبة الزائلة والرؤية المنحسرة التي تكتفي بالجانب الواحد محاولة أن تبلغ منتهاه؟!

يتناوشني إحساس مر بالإشفاق على عبد العزيز وأنا أتذكر كلمات الشيوخ: «يا عبد لن تزال محجوباً بحجاب طبيعتك وأن علمتك علمي وإن سمعت مني.. فلا تجعل بيني وبينك اسماً ولا علماً.. عذرت من أجهلته بالجهل، مكرت بمن أجهلته بالعلم»!!

وأنا أدلف يساراً من باحة الجسر صوب زقاق جانبي، سمعت نشيجاً مكبوتاً.. قلت في نفسي: إنهم ولا ريب يندبون شهيداً، وأوغلت في الزقاق فإذا النشيج يتصادى عبر أكثر من دار.. لفت ذلك انتباهي لكنني حاولت تجاهله فلم استطع، انتهزت فرصة اقتراب أحد المارة فسألته: ماذا هناك؟

رفع إلي وجهاً يحمل هموم الدنيا.. أمعنت النظر جيداً، فلمحت دمعتين معلقتين على الأهداب.. قبل أن أسأله مرة أخرى، قال بصوت مختنق، وهو يتلفت بحذر:

- لقد قتلوا المستعصم.. مزقوا جسده بحوافر الخيل!

قبل أن أنبس بكلمة قال وهو يهم بالمضي صوب دار قريب ..

- رفض الانحناء لهولاكو لكن الطاغية أرغمه عليه ..

وقلت في نفسي والكلمات تتكسر في حلقي المتيبس:

- ما كان يجب أن يذهب مهما كان الثمن.. فها هو ذا قد خسر مرتين.. شرفه

وحياته.. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

وكأني بالرجل وقد قرأ ما يجول في خاطري وما كنت احدث به نفسي فأردف:

- لقد أراد بذهابه إنقاذ بغداد.. ولكن!!

لم يرد القفطي على طرقاتي، فاستأنفتها كرة أخرى وتذكرت وأنا

أصيخ السمع لعلي أتلقى صوته، أو على الأقل وقع خطواته وهي تضطرب قريباً من الباب.. تفرد أستاذيته، وعزلته، وحياته التي تتميز بقدر كبير من الغرابة واللوعة والحزن والتألق معاً ..

أخيراً انفتح الباب.. فقلت في نفسي: الحمد لله.. وأشار إلي بابتسامة رضية:

- أدخل ..

فدخلت، وقال وهو يسير خلفي بهدوء، بعد أن تأكد من إقفال الباب:

- ها هم الآن يكفون عن القتل، بعد إذ لم يتبق من يقتلوه ..

وأنا استلقي بإعياء على بساطه الأرضي ذي اللون الترابي أجبته:

- ما حدث يا شيخي هو من المعلوم من سيرة المغول بالضرورة ..

ضحك الرجل وهو يراني أتعمد استخدام مفرداته في الأصول، وسألني:

- كيف؟

حكيت له عن توقعاتي وكيف أنها تحققت بالحرف.. قلت له كل شيء.. بمرور الوقت كانت ابتسامته تغيض لكي ما يلبث أن يحل محلها حزن عميق.. حزن ليس كأحزان الناس، ولكنه حزن رجل يعرف الكثير.. ودهمني الهم أنا الآخر حتى النخاع ..

- إذن فقد قتلوا الخليفة؟

- وداسوه بحوافر الخيل ..

نظر إلي متسائلاً فقلت:

- شريعة (الياسا) كما كان بعض العارفين يحدثوننا عنها.. لقد نفذوا فيه ما تقوله تعاليمهم.. إنهم يتشاءمون من سفك دماء الشخصيات الكبيرة ..

طأطأ رأسه وهو يمسد على لحيته مردداً:

- الياسا! الياسا! لقد خدعوه إذن؟

قلت وأنا أتلقى رشقة من التعاسة كما لو ألقى في فمي كأساً مرة أو حفنة من العلقم دفعة واحدة:

- لا أدري.. لعله أراد أن يفتدي بغداد.. في هذه الحالة سيأخذ موقف الخليفة صورة أخرى ..

- ومحاولات ابن العلقمي؟ لقد بذل جهداً استثنائياً لوقف النزيف ..

- ابن العلقمي كان يعمل لنفسه وليس لعيون بغداد!

لم يدرك قصدي تماماً.. أو ربما لم يقتنع به فقلت قبل أن يبادرني بالسؤال:

- كنت دائماً أقول إن العبرة بالنتائج.. ثمة شائعات عن إبقائه في منصبه وزيراً لهولاكو هذه المرة!

صرخ وهو يحرك رأسه بعصبية:

- ماذا؟

قلت بهدوء:

- في اللحظات التي نجتازها يا ابا عبد الله ليس ثمة الا الأبيض أو الأسود.. ضد الطاغوت أو معه.. وعندما تختار الموقع الأول فمعنى هذا أنك قد اخترت الشهادة أو العزلة.. ولكن عندما تكون معه فإن جزاءً من نوع ما ينتظرك.. يبدأ بضمانة حياتك نفسها وينتهي بالمناصب الكبرى.. فلو صح وأن ابن العلقمي أصبح وزيراً، فإن كل ما قيل بخصوص تعامله مع المغول ستتأكد مصداقيته، ولن تسمح مفارقة كهذه لأي هامش للاحتمال على الإطلاق ..

تمتم الرجل بكلمات لم أتبينها جيداً، ونهض متثاقلاً لكي يجيء بطاستين من عِرْقِ السوس:

- إشرب، فإنه يروي، ثم أنه يترك في الفم طعماً حلواً.. إنه شرابي المفضل يا أبا الوليد ..

وكأنه تذكر شيئاً فسألني:

- وكيف حاله؟

- لم أره منذ أن حلت اللعنة.. إنه مشغول دائماً، وهو لم يعد يأوي إلى البيت إلا قليلاً، ولكني آمل أن أراه ما دامت عجلة القتل قد توقفت.

حاولت أن أتنهد بعمق يختصر حزني وقلقي كله وأنا أقول:

- ولكن من يدري؟!

- وعبد العزيز؟

- لم أعد أسأل عنه!

- لا يا أبا الوليد.. إنه طالب متفوق بمعنى الكلمة ..

- إنه من جهته لم يعد يسأل عنا، فكيف تريدني أن ..

قاطعني محاولاً أن ينتزع ابتسامة ما يوازن بها الحزن الذي طبع ملامحه منذ أن اكتسح المغول بغداد ..

- وحنان؟

- لم تعد تشكل بالنسبة إليه نقطة جذب على ما يبدو.. وعلى أية حال فإنني أعرفه

جيداً.. إنه في ظروف صعبة كهذه يؤثر أن يظل في بيته ويقفل عليه الباب.

ومن أجل أن أغير دفة الحديث بادرته بالسؤال وأنا أخرج منديلاً لكي أمسح ما علق بشفتي من آثار عرق السوس:

- وأنت.. ماذا تقول؟

- عمن؟

- من غير المغول؟

دعك سبحته الشيحية الصفراء بيديه وهو يحدق في نقطة ما من فضاء الغرفة الضيقة وقال:

- يخيل إلي أن الصراع بيننا وبينهم ليس فقط صراعاً بين التوحيد

والوثنية، أو الإيمان والكفر، أو حتى بين التحضر والهمجية ..

ـ لعله الصراع بين البداوة وبين معمار الخلافة المتطاول عبر القرون؟

ـ ولا حتى هذا.. إن هذه كلها روافد قد تغذي النهر الكبير، لكنها منفصلة عن بعضها البعض قد لا تفسر شيئاً.. إنه يا أبا الوليد صراع بين الإنسان الذي هذبته العقيدة، وأنضجته قوانين العمران وبين سلالة من نوع جديد انشقت على أصولها البشرية وتشكلت في اتجاه مضاد.. في رحم هجين يستمد من عالم الحيوان تعطشه للدم، ومن الصخور صلابتها التي لا ترحم.. وكنت أقول في نفسي: إذا قدّر لهذه السلالة أن تحقق نصراً نهائياً حاسماً على عالم الإسلام، لا قدر الله، فمعنى ذلك أن البشرية مقبلة على انتكاسة يصعب تصورها حتى على ذوي العقول والألباب، وأنه ربما سيشهد التاريخ سلالات أخرى ستمارس الدور نفسه وترجع بالإنسان عبر قنوات الدم والتحجر، والرغبة الآسرة في السيطرة والإفناء، قروناً موغلة إلى الوراء!

أمّنت على وجهة نظره وأنا أقول:

ـ الآن أدركت سبب إعجاب صهري عبد العزيز بك وحديثه عنك باستمرار.. قال بشيء من عدم الارتياح:

ـ لا تبالغ يا رجل ..

ونهض لكي يعيد الطاستين إلى مكانهما من المحمل الحديدي الصغير.

هممت بالقيام فألح علي كعادته أن أظل إلى جواره أكثر.. هذه المرة أشد من أي وقت مضى ..

ـ إن العزلة تحاصرني يا أبا الوليد، وأنا لا أطيقها.. يكفي أنها تحجبني عن تلامذتي ودروسي ..

تنهد بهدوء.. فانتهزتها فرصة لتذكيره:

ـ أما كان يتحتم على عبد العزيز أن يزور شيخه وهو يقطن في مكان لا يبعد عنه كثيراً؟

حاول أن يتلمس له الأعذار، فتذكرت الوليد وقلت في نفسي: ها هو ذا تلميذك الآخر، لكني ما لبثت أن وقعت في الإغراء نفسه، ورحت أتلمس له الأعذار.

غادرت بيته وقد عقدت العزم على زيارة صديقي القديم أبي العز الصرصري الضرير.. كان أستاذاً مدهشاً هو الآخر رغم ضياع بصره بالجدري عندما كان طفلاً، ولطالما حدثني عنه الوليد وعبد العزيز بإعجاب يبلغ درجة الانبهار.. وذاع صيت دروسه المتألقة في المستنصرية عبر السنتين الأخيرتين.. مهندس أصولي من طراز أول، كما كان يصفه معارفه وأصدقاؤه.. بيته لا يبعد كثيراً.. فقلت في نفسي: إنها فرصة مناسبة للاطمئنان عليه، ولكي أتلقى منه هو الآخر شيئاً من العزاء.

ولدهشتي فوجئت بالباب وقد أصبح حطاماً.. اجتزت العتبة على عجل ورحت أنادي:

ـ يا أبا العز!

لم يرد علي أحد.. انتابتني قشعريرة باردة ارتجف لها جسدي المرهق ورفعت صوتي أكثر:

ـ يا أبا العز!

فلم أتلق سوى الصدى.. أوغلت في الدار.. ليس ثمة سوى فناءٍ ضيق وغرفة واحدة وأثاث متهرئ عتيق، وأبو العز يتكوم جسده الضئيل في زاوية الغرفة وقد فارق الحياة ..

هرعت إلى الزقاق القريب ففوجئت باثنين من جيرانه ينظران إلي بحزن.. كأنما حدساً ما يجول في خاطري، فبادرني أحدهما بالقول وهو يتلفت بحذر ذات اليمين وذات الشمال:

ـ يوم أمس فقط دعي الشيخ رحمه الله إلى دار منحها هولاكو فرمان الأمان، فأبى أن يستجيب للدعوة وأعد في داره أكواماً من الحجارة، فحين دخل عليه المغول راح يرشقهم بها حتى إذا ما خلصوا إليه قتلوه.. رحمه الله ..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ..

رحت أتمتم مع نفسي وأنا أحمل على كتفي هموم الدنيا وأحزانها، ها أن أصحابك يا سليمان يتآكلون.. فإلام أنت باقٍ؟ وتذكرت ما أخذ الناس يرددونه صبيحة اليوم من أن عدداً من علماء المستنصرية أكرهوا على الإفتاء بتفضيل السلطان الكافر العادل على السلطان المسلم الجائر! وقلت: رحمة الله عليك يا أبا العز ..

شمرت والجاران على تهيئته للتشييع إلى مثواه الأخير في مقبرة الشيخ معروف الكرخي الذي طالما حدثني عنه بإعجاب يفوق الوصف.. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

«25»

الوليد

اجتزت أحياء الرصافة وأزقتها في هيئة شحاذ.. ردائي الملطخ بالوحل أعانني على ذلك.. لم استرعِ انتباه المغول الذين كانوا يجوبون الدروب وهم يتصايحون.. في اليوم السابع كانوا قد أحكموا قبضتهم على الرصافة.. لم يبق شبر واحد فيها لم تطأه أقدامهم.. رأس واحد يخفق بحلم الخلاص لم تحتوشه سيوفهم.. عينان يتفرسهما الرعب وشفتان تتقلصان من الخوف لم تنلها خناجرهم.. لم يتبق في الرصافة من أقصاها إلى أقصاها رجل واحد يمكن أن يرفع يداً أو يطلق صرخة.. ما تبقى كانوا أشبه بالأشباح التي تجوس بين الأطلال على غير هدى.. بالحيوانات المذعورة التي أرغمت على الخروج من مخابئها وها هي الآن تحني رؤوسها لا تدري متى تنزل السكين.. والذين جاءوا من مدن المشرق البعيدة بحثاً عن الأمان في قاعدة الخلافة أدركهم السيف المغولي فاحتز رؤوسهم.. والذين اجتازوا الجسر هرباً سحق بعضهم بالأقدام وسقط بعضهم الآخر في مياه (دجلة)، وأوغلت فئة ثالثة في الصحراء غرباً لكي تضيع هناك فلا ترجع أبداً ..

كنت أبحث عمن بقي من أصدقائي على قيد الحياة.. كانت محاولة مستحيلة، ومع ذلك وجدتني مسوقاً إليها.. إذا استطعت أن أعثر على واحد منهم.. واحد فقط.. فمعنى ذلك أنني وجدت من يشاطرني حزني فأتخفف من العذاب قليلاً ..

أصدر هولاكو أمره من قصر المأمونية بأن ينادى بالأمان.. تلك هي طريقته دائماً.. الأمان الأول لا يعني شيئاً.. غطاء متهتك يحاول أن يمرر من تحته مجزرة، أو استباحة، أو تصفية دموية.. التسميات كثيرة، لكن الفعل هو نفسه في كل مرة.. متفرداً في عنفه، صلباً في وحشيته.. متجرداً من كل ما يمت بصلة للإنسان.. ها هوذا ينادي بالأمان الثاني، وهو هذه المرة أمان حقيقي، حيث يكف السيف المغولي فعلاً عن ممارسة لعبته الدموية.. ولكن متى؟!

معظم أهل الرصافة كانوا قد حصدوا، والذين استسلموا منهم ذبحوا كالأغنام.. النساء انتهكت أعراضهن.. ألوف الأطفال مثل بهم.. كان المغول يعرفون جيداً أنهم سيكبرون، وأنهم قد يبحثون عمن قتل آباءهم، لتصفية الحساب القديم، لذلك ذبحوهم.

تجولت طويلاً حتى كلت قدماي.. أحياء بكاملها أقطعها بالطول وبالعرض فلا أكاد أجد فيها بغدادياً واحداً.. أحياء أخرى بدأت تتسامع نبا الأمان.. شمت رائحته في مسارب الظلمة التي كانت تختبئ في قمامتها فغادرت جحورها كالفئران المذعورة وهي تتقافز بإعياء هنا وهناك بحثاً عن لقمة طعام.. ما كانوا بشراً على أية حال.. قلت في نفسي وأنا أحدق فيهم من طرف خفي.. لقد مسخهم الرعب المغولي فأفقدهم خصائصهم الآدمية.. وتساءلت: ترى هل سيقدر لهم أن يستعيدوها كرة أخرى؟!

لمحت أكثر من دار بغدادية يحرسها المغول.. كانت أبواب بعضها مشرعة وكان يخرج منها بين الحين والحين رجل أو امرأة يتحدثون إلى حراسهم بالإشارة حيناً، وعن طريق وسطاء يتكلمون العربية برطانة أحياناً.. دور أخرى كانت تخرج الطعام لحراسها.. تذكرت آلاف الجوعى الذين ينبشون القمامات بحثاً عن كسرة خبز متيبسة يشاركهم فيها الذباب

والدود، وأنا أحدق بالمغول وهم يزدردون ما يقدم إليهم بشهية.. وتساءلت عن معنى هذا

كله؟ وأنا أجتاز حي النصارى عند كنيسة خان الخليفة جنوبي الرصافة عثرت على الجواب.. لم يلحق دورهم وكنائسهم أذى.. ودور المسلمين ومساجدهم تتعرض للنهب والحرق والتخريب وتسوى بالتراب. فيما بعد عرفت أنهم حصلوا على فرامين من هولاكو، وأنهم الآن يحظون بحماية المغول وسط خرائب الرصافة وأطلالها.. وتساءلت كرة أخرى عن معنى هذا كله.. وعرفت فيما بعد أيضاً أنهم عرضوا خدماتهم على هولاكو منذ زمن بعيد.. حتى قبل أن يجتاز المغول حدود دار الخلافة.. عرفت أيضاً أنهم عملوا عيوناً للعدو على ما يجري في بغداد، وأنهم كانوا يمدونهم بالتفاصيل بين الحين والحين.. عوائل متفرقة من المسلمين أنفسهم حصلت على الفرمانات فعاشت بأمان.. يبدو أنها هي الأخرى عملت لحساب هولاكو.

كانت الجثث المكومة في الأزقة والحارات والدروب تفغم الأنف بروائح لا تطاق، أخذت بمرور الوقت تزداد شدة وإيلاماً، وزاد الأمر سوءً وقوع الأمطار على القتلى، وانتشار الوباء، وكثرة الذباب الذي ملأ الفضاء، وراح يتساقط على المأكولات والأشياء فيفسدها ..

فككت عمامتي وأحكمت ذؤابتها على أنفي جيداً وأسرعت خطاي.. كانت الحرائق تشتعل في أماكن شتى تنفث دخاناً بلون القار.. وكانت ثمة مجموعات من المغول، تتعاون بصعوبة على نقل الأموال المنهوبة والمتاع المسلوب.. لا أدري إلى أين.. رأيتهم في أماكن أخرى يهدمون القباب لينتزعوا ذهبها.. وثمة دور فارهة توحي بالسعة والغنى كانت مشرعة الأبواب، وكان المغول يدخلونها مسرعين ثم ما يلبثون أن يخرجوا وهم يحملون التحف النادرة لكي يمضوا بها إلى مكان مجهول.

إجتزت حي الرحبة وجامع القصر ودلفت إلى سوق الحدادين

المهجور وانعطفت إلى اليمين قليلاً لكي ما ألبث أن أوغل في زقاق مسدود.. كنت أبحث عن قطب الدين الحداد، وقلت في نفسي وأنا أقترب من الباب الواطئ الذي يرغم المرء على الانحناء لدى اجتيازه: إذا لم يكن في عداد القتلى أو الهاربين فأبشر يا وليد.. كنت بحاجة يصعب وصفها للقاء بأحد أصدقائي.. لسماع صوته واقتسام الهموم معه.. كان الدافع قوياً جارفاً كدت أنسى معه الخوف والجوع والحزن والعذاب.. أن أجد أحد أصدقائي وأن أسمع صوته.

نقرت على الباب بهدوء، فلم يرد علي أحد.. ازداد وجيب قلبي فرحت أقرع عليه.. بعد لحظات سمعت وقع خطوات تقترب من الباب، ثم ما تلبث أن تكف عن الاضطراب.. لم أصدق أذناي، وأصخت السمع.. كل قدراتي الحسية تمركزت اللحظة في أذني، بحثاً عن صوت قطب الدين.. تذكرت ـ مطمئناً نفسي ـ أنه ربما يعاين الزقاق الآن من شق ما في الباب.. شرخ في خشبه المتآكل، وأنه يتحفز، مدفوعاً بغريزة البقاء، للفرار إذا اقتضى الأمر.. لم انتظر أكثر فأردت أن أطمئنه متلهفاً على سماع صوته:

ـ افتح يا قطب الدين فإنني الوليد!

يبدو أنه لم يصدق، فأعدت الخطاب:

ـ افتح فإن للصبر حدوداً يا أبا الحارث!

لكأن كنيته كانت كلمة السر وراية الأمان.. وبدا متلهفاً أكثر مني وهو يعالج الباب الموصد، والمدعم ـ كما خيل إلي ـ بأوتاد الخشب.

ـ الوليد؟!

صرخ وهو يلح على الباب الذي ما لبث أن انفتح على مصراعيه وهو يئز.. أردت أن احتضنه لكنه دفعني قليلاً وهو يقول:

ـ أدخل فليس هذا مكاناً مناسباً لتبادل الأشواق ..

كان يلبس إزاراً بلون التراب، ودراعة ممزقة، وقميصاً مقطع

الأزرار، وكان رأسه مكشوفاً لا تغطيه قلنسوة، حافياً لا يلبس جورباً ولا ينتعل شيئاً ..

دلفت وأنا أعاين البيت الضيق الذي أعرفه جيداً.. تبعني بعد أن أحكم إقفال الباب.. قلت وأنا أتذكر أمان هولاكو:

ـ دعه يا قطب الدين فليس ثمة مبرر بعد الآن لإقفال الأبواب!

لم يدرك قصدي.. ولعله تصورها سخرية فلم يكترث لكلامي.. وتحفز لأن يرحب بي فقاطعته:

ـ يبدو أنك منعزل عن الدنيا ..

ـ ماذا؟

سألني وهو يجلس متهالكاً إلى جواري.. قلت:

ـ لقد أعلن الأمان فلا مبرر لإقفال الأبواب ..

أحسست أنه ينزف في داخله دماً وهو يقول مطاطئاً رأسه:

ـ الأمان!

كدت أسمع صوت النزيف وهو يتدفق صافياً في عروقه.. سمعي أصبح حاداً أكثر مما يجب.. وهو يعذبني الآن.. يجب أن أشكمه.. رفعت صوتي قليلاً وأنا أقول:

ـ كلا يا أبا الحارث فهذا هو الأمان الثاني!

أدرك ما أقصد إليه، وقال وكأنه ينوء بأحزان العالم:

ـ بعد كم يا أبا خالد.. ها هي ذي بغداد تضيع.. لقد ذبح معظم أهليها ..

أردت أن أقاطعه، أن أخفف عنه، أن أنتشله من الايغال أكثر في الذكريات الدموية.. لأنني أعرفها جيداً والخروج منها ليس كدخولها كما يقولون، لكنه لم يكترث لي وقال:

ـ لقد رأيت الآلاف منهم وهم يذبحون أمام عينيّ هاتين!

مرة أخرى أردت أن أوقفه وهتفت:

ـ أبا الحارث!

يبدو أنه لم يسمعني، وهو الآن يتناءى عني إلى مكان بعيد وأحسست للحظات كما لو أنني أحلم.. وأن الأشياء تتفلت مني، وتتفكك وتضيع، وأنني غير قادر أبداً على الإمساك بها.. على وقفها ـ في الأقل ـ من فرارها وضياعها في الضباب.

كنت أعاني من إعياء شديد.. وبدأت أفقد الذاكرة شيئاً فشيئاً.. أعرف هذه الحالة

جيداً، وأحاول أن أتحاشاها.. أن أهرب منها، لأنها تعذبني، ولكنني لا أستطيع.. كانت تزورني بين الحين والحين.. في أعقاب السهر والجهد والإعياء وحصار الهموم.. أما الآن فإن سهر سبعة أيام بلياليها.. الجهد المتواصل الذي يتجاوز حدود الاحتمال.. الجوع والخوف.. والحزن.. والتوتر.. والدم والرؤوس المقطوعة والأشلاء المبعثرة وانتظار المجهول.. الآن تتجمع كل معاول الهدم والتدمير للنفس البشرية، فتحيلها ركاماً.. الشوق.. الأمن.. المحبة.. الفرح.. الدوافع.. القدرة على التفكير.. التصور.. التخيل.. التذكر.. استرجاع الأحداث والأشياء، والتواصل مع الآخرين.. ها هي ذي تتفكك وتذوب تفقد أيما قدرة على الفعل والتأثير.. من أجل ذلك كنت أخشاها وأتحاشاها.. لأنني أريد أن أظل حاضراً في قلب الحدث.. أن أكون في الزمن والمكان بكامل وعيي.. بأقصى حدود قدرتي على التواجد والحضور.

الآن.. أحس أنني أضيع.. أحاول أن أوقف الاندفاع سريعاً إلى حافات النسيان فلا أستطيع.. لعلها رحمة الله لكننا لا نعرفها.. لعلها الإعانة على منح الإنسان فاصلاً بينه وبين العالم الذي يضغط على رأسه، من أجل قليل من الاسترخاء، والتناسي، والقدرة على الإفلات من القبضة التي تعتصره فيما يفوق طاقته على التحمل ..

من مكان بعيد كان صوت الحداد يجيئني.. في البدء تلقيت بعض إشاراته، كما لو كانت معجونة بالدم.. أحسست وأنا أجاهد لكي

التقطها، أنها لا تتجاوز اثنتين أو ثلاث، ولكنها كانت تكرر نفسها بقسوة لا ترحم.. تضغط على أعصابي.. حاولت من أجل التخفف من زخمها قليلاً أن أحرك يدي، أن أدفع دفقات الهواء الساخنة التي تلفح وجهي لكي أرتاح قليلاً ..

شيئاً فشيئاً أخذ صوت الحداد يغيب ويتناءى.. وحدة سمعي التي عذبتني طويلاً ها هي ذي الآن تضعف.. تضعف.. تضعف، حتى أكاد لا أسمع شيئاً ..

وتساءلت، وأنا أندفع كورقة متيبسة تطوّح بها دوامة الريح صوب أعمق نقطة في هذا العالم، عما إذا كان بمقدوري أن أرجع إلى أبي كرة أخرى، وأطلب منه أن يمد يده لكي يعيدني ثانية إلى فوق!!

«26»

حنان

يرغم المرء أحياناً على أن يكون شاهداً على عصر دموي.. أطل من الشرفة فأرى بغداد تلعق جراحها.. الناس يجتازون الجسر كأن على ظهورهم وقر ألف من السنين.. وجوههم تنضح تعاسة وحزناً.. كل واحد من هؤلاء ـ أقول في نفسي ـ يستأنف حياته من جديد، كان يمكن أن يكون اللحظة تحت الخرائب والحرائق والأنقاض.. كان يمكن أيضاً أن يكون جثة ملقاة وسط آلاف الجثث المتفسخة في أحياء بغداد.. لكن أيا منهم ما كان سعيداً بفرصته هذه على الإطلاق.. كل واحد منهم فقد أباً أو أخاً أو زوجة أو ابناً.. ولهذا فهم ليسوا سعداء بخروجهم من خندق الموت إلى الحياة كرة أخرى.. ألمحهم يجتازون الجسر متباطئين وليس ثمة ما يدفعهم إلى الإسراع.. إلى أن يخفوا أرجلهم للوصول إلى هدف ما.. لم يبق المغول شيئاً مما يجعل الناس يهرعون إليه.. والجسر الذي كانت تتدفق عليه أفواج العابرين من الكرخ إلى الرصافة، ومن الرصافة إلى الكرخ.. ها هو الآن يكاد يكون خلواً منهم.. بين الفينة والأخرى يمر شخص أو شخصان.. ومجموعات من المغول تقف عند طرفي الجسر، تتلامع السيوف والخناجر في أيديهم وهم يفتشون الذاهبين والقادمين بحثاً عن السلاح.

ألقي نظرة على حافات المستنصرية المطلة على النهر فأتذكر عبد العزيز.. أجدني للحظات في دائرة الشد والجذب.. أتمنى أن يجيء ولا أتمنى.. إنني من جهتي لا أكاد أضمر شيئاً سوى المحبة.. أمي لا تزال

تتشبث به كما لو أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.. لكني ألمح في عيني أبي والوليد شيئاً.. أحس بأنهما مجروحان، وأن النصل غائر في روحيهما بأكثر مما يتصوره إنسان.. وأتساءل، محاولة أن أجتاز ـ متعمدة تماماً ـ دائرة الغموض، وضياع ملامح الأشياء: ما علاقة عبد العزيز بهذا كله؟! أعرف جيداً ما يمكن أن يقوله أبي أو أخي.. ولكنني أحاول أن احتمي بالغموض، من أجل الإمساك بعبد العزيز ومنعه من أن يذهب فلا يرجع أبداً.. إنها غريزة الأنثى.. وهي على أية حال تحمل تبريرها الذي يملك قدرته على الانفصال عن كل حيثيات المنطق في هذا العالم.

أسمع قرعاً على الباب فأهرع إليه.. أفتحه بلهفة فأجدني قبالة أبي والوليد.. ليس من المعتاد أن يرجعا معاً.. أقول في نفسي، ولكن هل بقي من إيقاع الحياة التي هدمها المغول شيئاً لم يغادر موقعه، ويبدل علاقاته بالأشياء الأخرى؟!

ينزع أبي عباءته وسترته ويعطيني إياهما.. ألمح في وجهه التعب الذي ما كنت ألمحه قبلاً.. عشرون سنة وهو يرجع إلى البيت يفيض حيوية ونشاطاً.. أما اليوم؟! وأتذكر، مرة أخرى، كيف أن المغول استطاعوا في نهاية الأمر أن يغيروا معالم الأشياء.

الوليد يزداد ضعفاً وشحوباً.. لكني، منذ أيام، بدأت ألمح في عينيه العميقتين كبئر لا قرار له، إصراره القديم.. إنه يستعيده شيئاً فشيئاً.. وأشعر باطمئنان عجيب وأنا أتخيل كيف أنه، بالنسبة للوليد على الأقل، فإن هذا وحده كافٍ لأن يسترجع، بقوته الفائقة، حيويته المتآكلة، ويلتقي مع الحياة من جديد ..

أبي نفسه يملك هذه القدرة على الاستعادة، ولكن على طريقته الخاصة.. ويغمرني الاطمئنان كرة أخرى وأنا أتذكر كيف أنه بقوة روحه التي تستعصي على التآكل والفناء، يمكن أن يرجع ثانية وأن يتعاشق مرة

أخرى مع كل ما ينبض في هذا العالم.. بعيداً،

وفوق، كل المخاوف والأحزان التي نسجها المغول خيطاً خيطاً، منفصلاً عن كل عوامل التفكيك والدمار التي أرادوا أن يقهروا بها عالم الإسلام وتقاليده الموغلة في الزمن والروح.

يدلفان إلى الفناء وهما يتحدثان لا أدري فيم.. يلتفت الوليد وكأنه يراني لأول مرة.. يسألني عن أمي فأقول له إنها خرجت قبل قليل لتواسي جارتنا التي فقدت أبناءها الثلاثة، وهي الآن تنتظر زوجها الذي قالوا لها أنهم لمحوه عند باب الطلسم وأنه قد يرجع عما قريب.. اسمع أبي يقول عبارته المألوفة: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ويقول الوليد:

ـ شيئاً من الماء يا حنان فإني أشعر أن حلقي يتيبس ..

أهرع للإتيان بالماء، وأجدها فرصة مناسبة فأسأله:

ـ وعبد العزيز؟

يجيبني مشيراً إلى الجانب الآخر من بغداد وهو يحاول الا يرتسم على وجهه أي رد فعل قد يجرحني:

ـ إنه هناك يمارس مهمته في المستنصرية ..

أبي يتذكر.. وأنا متأكدة من ذلك.. لأنني أعرفه جيداً عندما يتذكر.. يطوي سبابته اليمنى فتصير قوساً، ثم ينقر بزاويتها الخلفية على جبهته.. يقول للوليد:

ـ أتدري؟

يلتفت إليّ الوليد وهو يمسح بكم ردائه آثار الماء على أطراف فمه.. بينما يواصل أبي:

ـ من بين كل علماء المستنصرية وشيوخها الكبار لم يبق غير تقي الدين الجوسقي وأبي عبد الله القفطي.. إنني أعرفهم جيداً.. كانوا أصدقائي وكانوا يترددون على حانوتي.. أعرفهم واحداً واحداً، ليس فقط بقدراتهم العلمية المدهشة.. ولكن ملامحهم.. ملامحهم بالذات

والتي تجعل كل واحد منهم عالماً قائماً بذاته: محيي الدين العاقولي.. شرف الدين القرشي.. الصرصري.. عبد الرزاق بن رزق الله.. نصير الدين البغدادي.. أبو عبد الله الحصين.. عز الدين الموصلي ويعقوب الأنصاري الخزرجي.. كلهم رحلوا ولم يبق منهم في بغداد غير الجوسقي والقفطي، وها هما الآن يعتصمان في داريهما وسيرفضان على ما يبدو كل محاولات الإدارة الجديدة لأن يستأنفا عملهما في المستنصرية كرة أخرى.

أقول له في محاولة مني لتجاوز الوقوف على الهامش ومشاركتهما الحديث:

- ولكنهم قد يؤذونهما!

يبتسم بسخرية وهو يقول:

- بعد الأمان الثاني ليس ثمة من أذى!

وما يلبث أن يتذكر فيردد بصوت لا أكاد أتبينه:

- رحمة الله عليك يا صرصري.. لقد جاءك الأمان يطرق بابك فأبيت إلا أن تموت شهيداً، ومن حولك يتهافت طلاب الدنيا على الأمن والمتاع!

أحس بشيء ما يخزني في قلبي فأنكمش قليلاً.. ويقول الوليد:

- ليسا وحدهما يا أبتي.. هنالك كثيرون ..

يقول أبي وهو لا يزال يضرب جبهته بخلفية سبابته:

- أعرف.. أعرف ..

يواصل الوليد:

- علماء كثيرون اقتيدوا عبر باب السور إلى مخيم هولاكو.. وهناك أمر الطاغية بقطع رقابهم.. لكأن بينه وبين هذه الفئة من الناس ثأراً ..

فيقول أبي:

- والله لقد قالها القفطي: أنهم يرمون تحضرنا بوثنيتهم.. وأنه في

نهاية الأمر صراع بين التحضر والهمجية.. فها هو ذا هولاكو يقطف رؤوس العلماء، وجنده ينتشرون في أحياء بغداد لكي يأتوا على كل ما خطته يد الإنسان ..

مرة أخرى اخترق حديثهما في محاولة للاكتشاف.. وربما للاختبار:

- ولكن المستنصرية تستأنف عملها.. و.. يقاطعني أبي!

- بدون مكتبة كما حدثني أحد أصدقائي.. لقد أصدروا حكم الإعدام على كل ما تضمنته من أسفار.. ثمانين ألف مجلد يا حنان!

ويقول الوليد:

- ليس بمقدور المدرسة أن تمضي في مهمتها خطوة واحدة بدون مكتبتها.. إنني أعرف ذلك جيداً ..

يرد عليه أبي:

- السلطة تملك القوة.. القدرة على الفعل بعبارة أخرى وهي تستطيع - بالتالي - أن تحرك الجمادات صوب الهدف الذي تريده ..

فيقول الوليد:

- العبرة ليس في أن تحرك الجامد ولا حتى في أن تسوقه إلى ما تريد.. وإنما في أن تجعله، من خلال سنن الحركة نفسها، يؤدي دوره المرسوم.. بالنسبة للمستنصرية فإن هذا الأسلوب لن يأتي بطائل لقد ذهب عصر العلماء الكبار ولن تجد قاعات المستنصرية بعد اليوم من يسامت قامات الصرصري أو القفطي أو الجوسقي أو الحصين ..

يقف عبد العزيز قبالتي وهو يحمل سفراً.. يقلب صفحاته بعشق.. أحاول أن أكلمه فلا يرد علي.. بدأت أفهمه أكثر فأكثر.. عندما يرحل في شرايين كتاب ما فإنه ليس بمقدور صوت في العالم أن ينتزعه.. أن يعيده ثانية إلى السطح، ولطالما قلت له وأنا أضحك: «أخشى عليك من الغرق يا عبد العزيز».. فيرفع رأسه وينظر إلي بشرود ثم ما يلبث أن يقول:

ـ لا تخافي يا حنان، فأنا أعرف جيداً كيف أعوم!

ثم وهو يحاول أن ينتزع ابتسامة عذبة:

ـ سأرجع إليك على أية حال فاطمئني ..

يلمحني الوليد فيتساءل:

ـ مالك يا حنان؟

أنتبه إلى نفسي وكأنني قد فوجئت ..

ـ لا.. لا شيء ..

ـ ولكنك تشردين!

ويقول أبي:

ـ دعها فإن للعمر أحكامه ..

أعرف ماذا يدور في خلد أبي.. وراء كلماته تضطرب دائماً أمواج المعاني.. ألغازه تتكشف أحياناً.. وتغيب أحياناً أخرى.. ولأنني أعرفه جيداً فإنني تمرنت على الإمساك بها.. أجيبه بيني وبين نفسي: ليس الآن يا أبتاه.. فهذا زمن تنكسر فيه الأرقام ويتفكك كل ما أصطلح عليه الناس.. زمن المغول ليس كالأزمان.. إنه يكتسح وهو يهدر، كل شيء.. وما بيني وبين عبد العزيز يحترق شيئاً فشيئاً، تماماً كما تحترق أحياء بغداد، حتى ليكاد أن يصير حطاماً ..

يرفع أبي وجهه متسائلاً.. ويقول الوليد ثانية:

ـ ها أنت ذا تشردين يا حنان ..

يتناءى عبد العزيز وهو يطوي سفره بمحبة.. أحس كما لو أن قوة ما تجره بعيداً.. حتى أنه لم ينبس بكلمة وداع.. لقد اقتحم المغول كل شيء.. أقول في نفسي: «الفحهم قادر، في لحظات، على أن يجعل الأخضر يابساً.. لقد تغيرت أحكام العمر يا أبتاه وانطفأت جمرات الفؤاد..»

ينهض أبي.. يتقدم مني خطوات.. يربت على كتفي مواسياً كأنه

يرى بأم عينيه ما أعانيه من وجع وعذاب:

ـ سوف ينتهي كل شيء يا حنان.. وسوف يكون الحال غير الحال.. ينهض الوليد فيسأله أبي وهو لا يزال يربّت على كتفي بحنان:

ـ ألا تصحبني؟

ـ إلى أين؟

ـ نستأجر حمارين ثم نعبر الجسر ونجوس في دروب الرصافة.. إنني مشتاق إلى دكاني وأصدقائي.. يقول الوليد بتردد:

ـ إنني على موعد يا أبتاه فاعذرني.. أبي يعرف، وأنا كذلك، أن الوليد، لسبب ما، لم يعد حرّاً في أن يذرع دروب بغداد وأحياءها، ولذا كفّ عن السؤال.. الوليد يقول، وكأنه يتذكر شيئاً، أو لعلّه يريد أن يدفع الصدمة عن أبي الذي لم يعد يحتمل المزيد، فيمهد أمامه كي لا يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الواقعة:

ـ قد لا تجد أحداً هناك

يردّ أبي بهدوء:

ـ أعرف ذلك ..

ـ المغول نهبوا كل شيء ..

ـ أعرف ذلك ..

ـ وليس ثمة سفر أو كتاب لم تعبث به أيديهم

ـ أعرف ذلك ..

ويقول الوليد وكأنه يتشبث أكثر بعدم خروج أبي إلى هناك:

ـ إن ذهابك الآن قد لا يعني شيئاً.. فلتؤجّله قليلاً ..

أبي لا يقول شيئاً.. ويشير عليَّ بأن أناوله عمامته.. يضعها على رأسه بيد شعرت أنها ترتجف قليلاً.. ويغادر الدار دون أن ينبس بكلمة وداع ..

«27»

عبد العزيز

كفت المذبحة في الرصافة واستتب الأمر للمغول في بغداد بضفتيها.. صدر أمانهم الأخير، فخرجت مخترقاً جدران العزلة التي فرضت علي.. عبرت الجسر ورحت أضرب في دروب الرصافة على غير هدى.. فليس بعد اليوم قاتل أو مقتول.. ورغم قلّة عدد المارة.. رغم أن معظم الحوانيت والأسواق كانت مقفلة أو محترقة أو مهجورة، فإن الحياة بدأت تعود إلى مجاريها.. ها هوذا الوزير المحنك مؤيد الدين بن العلقمي يعود إلى منصبه كرة أخرى لكي تستأنف الماكنة الإدارية عملها من جديد.. وها هو ذا علي بهادر يصدر مرسوم هولاكو بتعيينه شحنة لبغداد يعاونه اثنان من أمراء المغول للعمل على إعادة الحياة الطبيعية إلى بغداد.

ما أطيب الأمان والاستقرار، وما أجمل أن تستأنف الحياة دورتها من جديد.. إننا لا نقدر هذا حق قدره إلا عندما نفقده.. ولقد كان الغزو المغولي جملة اعتراضية هيمن فيها الموت على فضاء بغداد، وها هو ذا ينسحب لكي يترك للحياة أن تخفق وتتدفق وتتواصل من جديد.

المحلات، والدكاكين، والمطاعم، والخانات، بدأت تفتح أبوابها على استحياء.. الكثير منها لا يزال مقفلاً.. بعضها الآخر كسرت أقفاله، أو أحرقت أبوابه الخشبية وتعرضت بضائعه للسلب كما يبدو.. ولكن ها هي بعض الحوانيت تعود لكي تمارس عملها كرة أخرى ..

قلت في نفسي: إن ضرورات الحياة ونداءاتها الملحة.. منطق

البقاء والاستمرار.. سيرغم البغداديين على أن يخرجوا وأن يشاركوا ثانية في دفق الحياة وصيرورتها اليومية المتجددة.. أن يستجيبوا لنواميس الوجود ..

ووجدتني مسوقاً دون قصد مسبق لزيارة المستنصرية واستطلاع الأحوال هناك.. لم أجد ناظرها ولا هيئتها التدريسية.. التقيت عرضاً بالمشرف الجديد على خزانة الكتب.. رجل قميء ذو لثغة في لسانه تجعل الكلمات تخرج من فمه بصعوبة.. قال لي إن المدرسة ستفتح أبوابها بعد أيام قلائل وأن الناظر يسأل عني!

أحسست بقدر من الارتياح وتملكني الزهو للحظات.. استأذنته لإلقاء نظرة على رفوف الكتب في القاعة الكبيرة المجاورة، فلم أجده يرحب بالفكرة. قال: دعك من هذا الآن، فلعل الناظر يجيء بعد قليل. لم أكترث له واندفعت إلى القاعة متلهفاً.. وقعت عيناي على رفوف فارغة فتجاوزتها موغلاً بين الخزانات الأخرى.. بعضها كان منكفئاً على وجهه، بعضها الآخر لا يزال منتصباً ولكن واجهاته الزجاجية كانت قد تهشمت، وليس ثمة أي كتاب على الإطلاق.. لم أصدق عيني ورحت أضغطهما براحة يدي لكي أحظى برؤية أشد تركيزاً.. بقايا أسفار مبعثرة هنا وهناك، عبر الممرات التي تفصل بين الخزائن.. كانت ممزقة منكفئة على صفحاتها الداخلية هي الأخرى.. لحقني الرجل القميء قبل أن أغادر المكان.. صرخت في وجهه:

- أين الكتب؟

فأشار إلي بتوسل أن أخفض صوتي

- ولكن أين الكتب؟

- سترجع.. سترجع.. ودعك من الصراخ

خفضت صوتي قليلاً:

- لكنك تقول بان المدرسة ستستأنف عملها بعد أيام قلائل..

قال، وهو يجد صعوبة بالغة في إخراج كلماته:

ـ هذا صحيح

ارتفع صوتي قليلاً على غير إرادة مني وأنا أشير إلى الكتب القليلة المرمية بين الأقدام:

ـ ولكن بدون هذه لن تقدر على أن تواصل عملها ..

جرني من يدي إلى الغرفة الملاصقة وهو يقول:

ـ هذه ليست مهمتك، فلا تزعج نفسك بها، ولسوف يتدبر الناظر أمرها عما قريب.. أردت أن أواصل احتجاجي، فأعلمني من طرف خفي بأن الحديث في هذا الموضوع محذور، وأنني إذا أردت مصلحتي ومصلحة المدرسة نفسها فعلي ألا أتحدث به لأحد.. حاولت أن استفسر ولكنه غمز بعينه وهو يتلفت يميناً وشمالاً ويبذل جهداً في إخراج كلماته:

ـ تلك هي نصيحتي يا عبد العزيز فلا تضع قدمك في غير محلها تماماً، لئلا تنزلق بك بعيداً، ثم ان الناظر سيتولى الأمر بنفسه، ولن تكون المستنصرية بعد أيام قلائل بحاجة إلى شيء.

غمرتني موجة من الحزن، ووجدتني مرغماً على التزام الصمت.. لا ريب أنه أدرى مني بما يجري، وأن من الحكمة عدم الخوض فيما لا علم لي به.. وتذكرت كيف كانت قاعة الكتب هذه، وغرفة المطالعة المجاورة لها، القلب النابض الذي يمد المستنصرية بالدم ويمنحها التدفق والخفقان، وكيف كان الطلبة يتدافعون إليها ويتزاحمون على أسفارها كخلية النحل، وسمعته يقول:

ـ المهم أن الأمور قد عادت إلى مجاريها.. الجزئيّات الصغيرة يمكن تداركها ..

أردت أن أسأله لكني تذكرت نصيحته فأزدردت سؤالي: ألم يكفِ المغول أن يقتلوا البغداديين وينتصروا عليهم في نهاية الأمر؟

فوجئت به ينهض قائماً ويتوجه نحو الباب وهو يتأتىء بكلمات

الترحيب.. رفعت رأسي فإذا به الناظر الجديد.. نهضت أنا الآخر ماداً إليه يدي، فتجاهل حركتي وقال:

- اتبعني إلى هناك

وأشار إلى غرف الإدارة في الجانب الآخر من الفناء.. ابتسم الرجل القميء وكأنه يقول: ألم أقل لك؟ ها هو ذا قد جاء فلا تقلق.. تبعته إلى غرفته.. لم يكن أحد غيره هناك.. فقلت الحمد لله، وتذكرت هيئة التدريس الجديدة فأحسست بارتياح عميق وأنا أنفرد به بعيداً عنهم.

ابتدرني بالسؤال عما إذا كان بمقدوري الاتصال بشيوخي القدماء ودعوتهم لاستئناف دروسهم في المستنصرية.. وقبل أن أفتح فمي قال:

- إن المدرسة بحاجة إلى عشرين مدرساً وعشرين معيداً ولم استطع أن أجمع أكثر من سبعة عشر مدرساً ومعيداً.. نظر إلي طويلاً وهو يضع مرفقه على حافة المنضدة ويسند عليها ذقنه.. عرفت أنه ينتظر جوابي، قلت، والإحساس بالزهو يتملكني مرة أخرى فيخيل إلي أنني أمارس معه مهمة إعادة المدرسة إلى وظيفتها الكبيرة:

- سأحاول أن اتصل بمن بقي منهم في بغداد.. ولكن الطلبة؟

- سيلتحقون على أية حال ..

- والذين قتلوا أو هربوا؟

- لا يزال في بغداد فائض من الناس وسيظل هناك من يعشق العلم ويبحث عن المعرفة.

أمنت على كلامه، ثم ما لبثت أن تذكرت أمراً فاستدركت:

- لكن الشيوخ ..

- ما بهم؟

- إن أمرهم يختلف كثيراً ولا أعتقد أن معظمهم على استعداد لاستئناف العمل.

تساءل وكأنه يعوم فوق الحدث الذي شهدته بغداد.. يضع بينه وبينه فاصلاً:

ـ لماذا؟

تذكرت ما قاله الرجل القمي‌ء، المشرف على خزانة الكتب الفارغة، فآثرت الصمت.. ولم أجده هو نفسه يحفزني على الدخول في التفاصيل، وقال وكأنه يحسم الموضوع:

ـ حاول أن تبحث عن غيرهم!

قبل أن أجيبه استطرد قائلاً:

ـ إنك إذا نجحت في هذه المهمة فلسوف تؤدي للمستنصرية خدمة كبيرة.. تناوشني الإحساس بالزهو مرة أخرى وأنا أقول له:

ـ سأحاول إن شاء الله.. ولكني أيها الأستاذ بحاجة إلى وقت كافٍ

ـ لا عليك من هذه.. الا يكفيك أسبوع أو أسبوعان؟

قلت مجاملاً:

ـ يكفيان وزيادة

ـ ولحظته يمد يده إلى درج المنضدة ويستخرج ورقة مطوية أعاد نشرها أمامه وهو يقول:

ـ رسالة من شيخ العلماء نصير الدين الطوسي في مراغة.. كنت قد سمعت بهذا الاسم، ولم يكن خافياً علي، ولكني تعمدت التجاهل لكي أحظى بمعرفة أكثر فتساءلت:

ـ نصير الدين الطوسي؟!

قال وهو يربت على الرسالة باعتداد:

ـ إنها إشارة البدء يا عبد العزيز والإذن باستئناف العمل.. إن ما يقوله نصير الدين لهو القول الفصل، ليس للمستنصرية وحدها، ولكن لكل دور العلم ومؤسساته في ديار الإسلام التي يحكمها المغول.. إن هولاكو يثق به تماماً، وقد اعتمده لتحفيز المعرفة وتسيير دفتها من جديد.

قلت وكأنني أحاول أن أتذكر:

ـ إنه عقل متفرد في الرياضيات والفلك، ولعله أولى من يتولى مهمة كهذه، فليس من جرب كمن لم يجرب ..

ـ هذا صحيح ..

قال الناظر مبتسماً لأول مرة ..

ـ وهو لن ينسى بالتأكيد الجهود المخلصة لكل الذين سيسهمون في عودة هذه المدرسة إلى وظيفتها.. أعاد لم الرسالة من جديد ووضعها في الدرج ثم اتكأ مسترخياً على مسند الكرسي وكأنه يشعرني بانتهاء المقابلة.. نهضت قائماً، وسألته قبل أن أغادر المكان عن المدرسين الجدد الذين التحقوا بالعمل والذين سبق وأن التقيت بهم قبل أيام، فقال:

ـ إن هذا ليس من شأني، وإنني قد ازداد تعرفاً عليهم فيما بعد!

غادرت المدرسة يتقاذفني فرح من نوع فريد.. الأفق أمامي يمتد على مداه، وأتمنى لو أن لي جناحين لكي أطير.. أخفف على الأقل باندفاعي في الفضاء بعض ما يعتمل في نفسي.. محبوساً يبحث عن فرصة للانطلاق.

الحلم يغدو حقيقة يا عبد العزيز.. رؤيا العمر كله كانت تلح عليك في الليل والنهار.. ها أنت ذا تستيقظ فتجدها قبالتك.. تتمسك بها، تحتضنها، تختبر وقوعها بحواسك كلها.. بعقلك وقلبك ووجدانك، فيتأكد لديك أنها هي.. وأن ما قاله الناظر الجديد حقيقة لا ريب فيها، وأن الأيام القريبة القادمة تعد بالكثير.

طالما تخيلت نفسي محاضراً في المدرسة التي يثير مجرد ذكر اسمها في وجداني إحساساً من نوع ما.. ربما هو مزيج من الدهشة والإعجاب والاحترام.. ربما.. لا أدري.. طلبة العلم يجلسون بين يدي كأن على رؤوسهم الطير، وأنا أحكي لهم عن المنطق الذي يأخذ

بتلابيب العالم.. الفلسفة التي تضيء الظواهر والأشياء.. عن حركة الأجرام والسدم والنجوم.. كيف تتشكل، وأين تبدأ، وكيف يكون رحيل الكتل الكبيرة في السماوات.. أعلمهم كيف تكون الأرقام مفتاحاً لأسرار الوجود الكوني، وكيف يصير الجبر جسراً محكم البناء، نعبر عليه إلى شطآن الحقيقة، وكيف تضعنا الهندسة قبالة التناظر المدهش المترع جمالاً والذي يتشكل به الوجود، وكيف تجيء الفلسفة لكي تفسر هذا كله، وتشرحه، وتكشف عنه النقاب.. أقول لهم إن المنطق أو علم الكلام ليس مجرد أسلوب في الدفاع عن الذات وأن الفلسفة ليست مجرد منهج في العمل.. إنهما أكبر من ذلك بكثير، وأبعد بكثير.. محاولة يصير فيها العقل، وقد نفخ في جمره حتى غدا بصفاء البلور.. قنديلاً يضيء ظلمات العالم.. وأن الفلك ليس مجرد محاولة لاجترار نظريات الأقدمين، ولكنه جهد طموح للتعامل مع أسرار الكون!

أرفض أن أقعد مستريحاً على الكرسي، لكي أجعلهم يضيعون الوقت في الجمع والطرح والضرب والقسمة، والبحث المتثائب عن حاصل الأرقام.. سأعلمهم كيف يكون الدرس في المستنصرية رحيلاً يومياً لاكتشاف المجاهيل.. ولسوف يعرف (الجوسقي) و(الحصين) و(القفطي) و(الموصلي) أن جهدهم مع (عبد العزيز) لم يضع عبثاً، وأن زرعهم أخرج شطأه، فتقر أعينهم ..

«28»

سليمان

يدفعني الشوق لزيارة شيخي.. تلمح (حنان) في عيني النظرة إياها، فتعرف.. عندما يناديني (عبد القادر) ألبي النداء.. أصير عداءً يعرف كيف يجتاز المتاريس.. ألبس عمامتي على عجل وأنا أتمتم: ها أنا ذا يا (عبد القادر).. العطش ييّبس حلقي.. وسأجيئك طالبا الارتواء.. أحلم يا شيخي بالمورد الذي تتدلى فيه عناقيد التين والزيتون.. الجوع يعتصرنا يا (عبد القادر)، فهل سنجد عندك الرغيف المعجون بالوجد.. هل سنتلقى منك القدح الموعود؟ وأنت القائل، أيها الباز الأشهب الذي لم يعرف الخوف: «إن الدنيا خلقت لكم وأنكم خلقتم للآخرة.. لا تخف أحداً سوى الله عز وجل، وكل الحوائج إلى الله عز وجل.. التوحيد التوحيد إجماع الكل!» أغادر الدار والشمس لم ترتفع في قوس السماء إلا قليلاً.. تناديني زوجتي فلا أرد عليها.. (حنان) تشيعني بنظرة أعرف منها أنها ترفع بها الشكوى إلى الله، وأنها تجأر إليه أن يحميني.. الطريق محفوف بالمخاطر، لكن دعاءها يمنحني الحجاب إزاء الشر والهلاك.

أقف لحظات عند محل وقوف الحمارين في مدخل الكرخ كي استأجر حماراً يقلني.. أنسى تعبي وإعيائي وابيضاض شعري قبل موعده بوقت طويل.. أحزان بغداد تنداح موجاتها التي ضربت روحي طويلاً وعرفت كيف تمنحها العذاب والحزن والألم.. تنداح فتنكسر الحلقة وينفتح الطريق أمامي عريضاً، نظيفاً، مغسولاً بالندى والشعاع.

أخلف الجسر ورائي ميمماً صوب الأحياء الشرقية فما تلبث الواقعة الدموية أن تسحبني مرغماً إلى الوراء.. أكافح للفكاك من أسرها فلا أستطيع.. تحاصرني من كل مكان.. مرئياتها المثخنة بالجراح.. حلقاتها التي تسح دماً.. لحظاتها المتثاقلة التي تتمطى لكي تصير بحجم تاريخ الدنيا بدءً وانتهاء.. أصواتها المدمرة.. هديرها المخيف.. والرعب الذي يصعب وصفه والذي يدفع كتل البغداديين إلى الهروب في كل اتجاه، فما يلبثون في كل مرة أن يجدوا أنفسهم قبالة السيوف المغولية التي تجول في رقابهم فتحصدها في موسم مترع بالوعد المشؤوم.

وأجدني استسلم في نهاية الأمر لسيل التداعيات التي لا ترحم معجونة هذه المرة بحزن تتهدل به الأكتاف وتشيب الولدان، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ثمة أصوات حادة تقطع الصمت بين لحظة وأخرى.. متداخلة.. غامضة.. مهوّشة.. تتكاثف لكي تغدو سكيناً تخترق سكون الصباح الهادئ فتذبح السكينة والاطمئنان.. أصيخ السمع جيداً.. ها هو ذا هيولي الصوت الغامض يتشكل شيئاً فشيئاً قبالة الحس لكي ما يلبث أن يتكشف عما كنت أتوقعه.. تنتابني قشعريرة ما خرجت من قاموس الرعب.. لكنها تنبض بالإشفاق الذي ينوء به القلب، وأصرخ: ها هي ذي بغداد تذبح كرة أخرى، والرصافة التي تحدث الإعصار المغولي، تتلقى عقابها الآن.. الصراخ المدوّم في الفضاءات القريبة يزداد.. يتردد عبر حلقات صوتية مبحوحة، يقطعها الصمت بين لحظة وأخرى، لكنها ما تلبث أن تعود هذه المرة أكثر من أية مرة أخرى.. أكثر بكثير مما صنعته المذبحة الأولى.. وأتخيل، وأنا أصيخ السمع، كما لو أن سكيناً تحز عنقي من الوريد إلى الوريد، كيف أن صراخ عشرات الألوف من الخائفين والمذعورين.. من الرقاب التي تحصدها سيوف المغول، تتركز الآن في صيحة واحدة، وكيف أنه ما من لغة في هذا العالم يمكن أن تصف، أو تعين في الأقل، على التعبير عن هذه الصيحة.. على اختراق

نسيجها الأسطوري ووضع اليد على نبضها وملامحها ..

تنتابني القشعريرة مرة أخرى، وأجاهد لكي أتحرر قليلاً من أسر الصوت، وأستعيد قدرتي على الرؤية.. ها هي ذي طلائع الرصافيين، المتراجعة أمام زخم الكتل المغولية.. الباحثة عن ملاذ قريب، قد يؤخر ذبحها ولو لدقائق معدودات.. وأجدني مرغماً، إزاء الهول على التراجع قليلاً، أكثر من صوت مبحوح يناديني أن أيمم وجهي صوب الجسر، فأسرع في خطوي.. لكن التعب يهدني يا (عبد القادر) فكيف السبيل؟

أطرق الباب فتفتح (حنان)، تريد أن تسألني فأسكتها بإشارة من يدي.. أطلب ماءً أبل به الريق المتيبس، فيتكسر في حلقي.. تسمع (حنان) طقطقته فتهم بالسؤال كرة أخرى.. أقول لها دون مقدمات.. إنهم يذبحون بغداد كرة أخرى.. يصفر وجهها حتى يغدو بلون سبحات الشيح، وتهم بسؤالي ثانية فأقول لها وأنا أمسح رذاذ الماء المتطاير على لحيتي: كنت أعرف هذا.. أعرفه تماما ؛ لكن ليس بمقدور أحد أن يخمن لحظة الواقعة.. وها هي ذي على أية حال تتشكل هناك.. تعود حنان لتسألني، ووجهها يزداد اصفراراً: ما الذي يجري يا أبتاه؟

أتذكر استسلام البغداديين.. أتذكر خدعة المغول.. استدعاء الخليفة.. استدراجه لإعطاء الكلمة تحت مطرقة الخوف على مصير بغداد.. أتذكر أنه وهو يحرص على حماية أبنائه من القتل، أعطى المغول الفرصة للبدء بالمجزرة.. وأنه هو.. الخليفة.. كان أحد ضحاياها.. أقول لحنان: كأس لابد من تجرعها حتى الثمالة.. فلا حول ولا قوة إلا بالله.. تسألني عن الوليد بلهفة، فماذا أقول لها؟ تهرع أمها من غرفة النوم.. ماذا يا سليمان؟ ما الذي يحدث؟ .. أعتصم بالصمت.. فتقول لها حنان: إنهم يذبحون الرصافة يا أماه.. تصرخ بقلب الأم الذي يفرد جناحه المهيض في لحظات الرعب لاحتواء الأبناء.. والوليد؟ أقول لها وقد بدأ يعود إلي هدوئي الضائع وطمأنينيتي التي بعثرها الصراخ

المحموم.. هناك.. إنه يتوحد معهم الآن.. يقف وإياهم قبالة الخوف والغدر والكراهية.. ولعله وإياهم يقدرون على فعل شيء.. ليس وحده على أية حال.. تقاطعني وهي ترتجف: ولكنهم سيذبحونه يا سليمان.. أربت على كتفها بهدوء.. أبحث عن شيء أقوله لها فلا أجده.. فاعتصم بالصمت.. يمضغني الحزن وأنا أتذكر أنه ليس ثمة من أذهب إليه.. الطريق إلى الحضرة تقطعه سيوف المغول.. والشيخ الصرصري الذي طالما لجأت إليه كلّما دهمتني هموم الوحدة والاغتراب.. قتلوه.. الوليد يضطرب الآن في أحياء الرصافة ولا يعلم إلا الله ما الذي يفعله، وفيما إذا كنت سأراه كرة أخرى؟

أصيخ السمع.. أقول في نفسي: ها أني أتشبث بالحس عله ينقذني من وجع الروح التي تنزف بصمت، فيصفعني الصوت إياه.. مبحوحاً أكثر هذه المرة.. محتشداً.. كثيفاً.. مختلطاً.. يكاد يصعب معه على أشد الآذان حساسية وإرهافاً أن تفككه، وأن تضع اليد على مكوناته الأولى.

وأقول في نفسي: ها هي ذي بغداد تتلقى منجل الموت قبل التئام الجراح.. الطاعون الأسود الذي كان يدوّم في فضائها الشرقي القريب يجول اللحظة في دروب الرصافة وأزقتها وأحيائها لكي يحصد الألوف.. والجسر الذي تدافع عليه الكرخيون من قبل بحثاً عن الأمن في الرصافة، ها هم الرصافيون يتدافعون عليه ـ ثانية ـ علهم يجدون في الكرخ الأمن المفقود.

أصوات ارتطام قاسية بالماء تصدم أذني.. تستفزني أكثر.. ها هم إذن يتساقطون فأين المفر؟

أنبس بعبارات لا أكاد أتبينها، وأتنبه فجأة.. إنني لا أزال قبالة زوجتي التي تكتسحها القشعريرة، وحنان التي يزداد وجهها اصفراراً.. وتسألني هذه: لقد فعلوها إذن يا أبتاه ..

قبل أن أجيبها تقول وكأنها تتذكر أمراً: ولكن البغداديين استسلموا بعد أن تلقوا الوعد بالأمان ..

أقول لها وأنا أدعك سبحتي الزعفران الخضراء: لأنهم تلقوا الوعد.. يذبحون الآن ..

يبدو أنها لم تدرك كلامي.. لكنها تقدّر ما أعانيه فتكف عن السؤال، إلا أنني أحاول أن أزيدها إيضاحاً: هذه هي شريعتهم، فلو أنهم فعلوا غير هذا لتساءلنا فيما إذا كان هؤلاء هم المغول حقاً.. ولكنهم مضوا وفق منطقهم نفسه فحيثما استعصت عليهم، أو عرقلت حركتهم، واحدة من مدن الإسلام، استدرجوها بالخديعة.. وبإغراء الأمان الموهوم إلى الاستسلام.. بعدها لابد من العقاب.

تنظر إلي حنان بدهشة والسؤال لا يزال يرتسم على وجهها الشاحب، فأقول: كان علينا أن ندرك هذا.. فلو أننا أدركنا قد يكون الحال غير الحال. ولكنهم يا ابتي أقوى بكثير، وأكثر عدداً.. والمسألة بالنسبة لهم مسألة وقت فحسب.. والأمر سواء!

تحاصرني كلماتها.. لكني قبالة المذبحة التي تضرس الآن آلاف البغداديين.. إزاء ما هو كائن فعلاً كواقعة أشد ثقلاً وأعظم هولاً من كل توقع، أتخيل كل الاحتمالات الأخرى، فأجدها أكثر رحمة من هذا الذي يجري الآن ..

في بدايات الليل الأول يقرع الباب.. تقفز حنان وأمها إلى الفناء.. ألحق بهما.. أجدهما تدوران لا تعرفان ماذا تعملان.. أهرع إلى الباب فتصرخ زوجتي: قد يقتلوك.. فأقول لها: وحده هو الذي يحيي ويميت.. أفتح وأنا أقول بهدوء: يا حصن الله.. أجد الوليد قبالتي.. لا أصدق عينيّ.. أدعكهما قليلاً وأحد البصر، فأجد الوليد

قبالتي.. ما من مرة كان على هذا القدر من البؤس والشقاء.. لكأن حزن العالم يضغط على رأسه الآن.. أبحث عن ذرة رعب في عينيه فلا

أكاد أجدها.. أجد بديلاً عنها التعاسة والعذاب.. الطين يلطخ رداءه، ورشاش الدم يمد خيوطه على قميصه الممزق.. يقول محاولاً أن يرسم ابتسامة باهتة على ملامح وجهه المكدود، فلا يستطيع: هل أدخل يا أبتاه؟ أفتح ذراعي على المدى.. أجعل قلبي الذي تتسارع دقاته فتوجعني يرد عليه.. أضعه قبالته تماماً.. مكشوفاً لا يستره شيء.. أحتضنه وأضغط به على صدره.. يتهدج صوتي.. هذا مفتوح لك فأدخله يا وليد.. إنه خالٍ من كل من أعرفهم في بغداد.. فأدخله ..

دمعتان تتجمدان في عيني.. تحاولان للحظات أن تتحررا من أسر الأحداق ولكنهما لا تقدران، فتكفان عن المحاولة.. ما اعتدت في حياتي كلها أن أبكي.. عندما كنت أتوجع.. أهيم.. أتواجد.. أحزن.. أعشق.. أتلهف.. كنت أقول لحواسي أن تكف، فتكف.. روحي كانت هي التي تبكي فتغسل القلب والوجدان.

الآن أحس بأني ضعفت كثيراً.. الآن أدرك، أكثر فأكثر، أنني لم أعد قادراً على إيقاف حواسي لكي أفتح الطريق لسيال الروح فتخفق وتضطرم.. للزمن أحكام يا سليمان ولله جل جلاله في خلقه شؤون.. وها هم المغول يذبحوننا مرتين في أيام معدودات.. إنني حزين يا عبد القادر.. ألست القائل: «إذا رأى أحدكم أسيراً في يد كافر، أليس يجتهد في تخليصه؟ فهكذا العارف.. الخلق جميعهم كالأولاد».. وها هم الأولاد يضيعون قبالة أعيننا.

الوليد وهو يدلف إلى الفناء يقول: دقائق وسأرجع إليهم كرة أخرى.. يتهدج صوته قليلاً.. لن أدعهم يُذبحون لوحدهم.. يرتجف صوته.. إنني أتعذب يا أبتاه.. أصدقائي واخوتي يُذبحون أمام عيني.. لو أني لا أعرفهم جيداً لكان الوقع الدامي أخفّ على أعصابي.. لكنه خارج حدود الاحتمال.. فوق طاقتي.. تاريخ كل واحد منهم منقوش في ذاكرتي.. الضحك.. البكاء.. الفرح.. السعادة.. الشوق.. المحبة .. واللهفة.. اللهفة لأن يفعلوا شيئاً في مواجهة الطاعون.. كل واحد

منهم كان يعتقد حتى أعمق نقطة في خلاياه، أنه إن لم يفعل شيئاً.. إن لم يقتل ولو مغولياً واحداً فلن يشم رائحة الجنة.. حتى أطفالهم كنت أعرفهم جيداً.. زمن لقاءاتنا الموزعة في دورهم ساعة بساعة ويوماً بيوم.. كان الصغار يتدفقون علي.. يتسلقون على كتفي وهم يتصايحون.. أضع كفي في جيب قميصي وأغرف لهم قبضة من سكاكر الهند اللذيذة فأنثرها عليهم.. يزدادون تعلقاً بي فأتخلص منهم بصعوبة.. الآن يذهب آباؤهم فلا يرجعون.. أعطني يا أبتاه قلباً يتحمل وجع الدنيا.. يسع هذا الحزن كله.. ثقيلاً، قاسياً، صلباً، معتماً.. متمركزاً في قلوب حفنة من الأطفال لن يتاح لهم أن يروا آباءهم كرة أخرى.. حنان تبكي بصمت.. أمها تنتظر بلهفة ان يكف الوليد لكي تقول له شيئاً.. يتوقف الوليد.. يسبغ على أمه نظرات مترعة بالبر والحنان.. كيف حالك يا أماه؟ ينعقد لسانها فلا ترد عليه.. ألحظها جيداً.. تحاول أن ترد فلا تستطيع.. يدرك الوليد أنها تعاني فيتقدم منها خطوات ويطبع على شعرها الأشيب قبلة تختصر عطفه وامتنانه.. حنان تقول بصوت كليل: إنك تعرفها جيداً يا وليد.. كانت تمضغ قلقها بصمت.. تتجرع هواجسها دون أن تقول كلمة واحدة.. الوليد يقول: لست وحدك يا أماه.. هنالك آلاف غيرك ذهب أبناؤهن ولم يعودوا فاحمدي الله!.. تقول له: ولكنك سترجع بكل تأكيد.. يجيبها وهو ينظر صوب الجانب الشرقي بنظرات شاردة: لن أدعهم يموتون وحدهم!

ألوذ بالصمت.. ترى ماذا عساني أقول؟ ولكني ما ألبث أن أتذكر أمراً فينعصر قلبي.. فأسأل الوليد: هل انتهى كل شيء؟!

ينظر إلي بشرود ولا يجيبني.. يطلب من حنان أن تأتيه بشيء من العسل ورغيف من الخبز وقدح من الماء.. يقتطع بأسنانه لقمة من الرغيف فتعلق في حلقه.. يدفعها بقليل من الماء ثم يطوي الرغيف ويضعه في جيب ردائه.. يحاول أن يتماسك أكثر.. ان يسترجع ابتسامته القديمة، وهو يقول مغادراً البيت: الجوع والعطش لا يرحمان يا أبتاه..

«29»

الوليد

أوغلتَ في الصحراء كثيراً، لكنك ما نسيت لحظة أن تجعل الفرات على يمينك.. الماء يعني بالنسبة لك كل شيء.. ما كنت تخشى أن تضل الطريق قدر خشيتك من ضياع الماء.. يكفي أن ترى الشهباء تتمرغ بين الحين والحين عند حافات النهر، فما تلبث أن تستعيد حيويتها المدهشة، وتنسى تعبها كله.. في الرحلات الطويلة التي يتفرد فيها الإنسان مع الرمل حيث لا شيء قبله أو بعده.. حين يصير الهسيس الذي لا يكاد يسمع هو الصوت الوحيد في هذا العالم.. يجد المسافر نفسه مندفعاً بقوة لا راد لها بحثاً عن نقطة ارتكاز ما خارج دائرة الرمل اللا نهائية.. فقط ليتأكد أنه لن يختفي هناك.. ولن يكون غير الماء ما يمنحه التوازن المفقود.. الأمن الذي تفككه الصحراء فيتسرب كحبات الرمال.. بمرور الوقت أدركت أنك كنت مخطئاً، وأن نداء الحس قد يضلل وهو يلاحق ضماناته القريبة، فيسلك الطرق الملتوية، ويبعد بصاحبه أكثر فأكثر عن الهدف المنشود.. ها هو ذا نداء الماء يجرك إلى الشمال أكثر مما يجب، فيضيع عليك الطريق الأكثر قرباً إلى فلسطين.. كنت تعرف جيداً أن مجرى الفرات يمارس لعبته هذه مع كل المسافرين من العراق إلى الشام، وأن عليك أن تحاذر منها لكي لا يطول بك المسار.. تذكرت ما قاله لك أحد الأعراب وأنت تسأله عن الطريق:

ـ استدبر منازل القمر وأجعل الجدي وبنات نعش على يمينك

والشعريين وسهيلاً على يسارك، فإذا أنت فعلت ذلك، فأنت على سمت الوجه الذي تريد ..

- فإذا غامت عليّ السماء؟

- استعن بريح الدبور وحرها وعجاجها فإنها لا تجيء إلا من هناك.

وأشار إلى جهة الغرب.. إنهم - كما بدا لك - مرغمون على تجاوز إغراءات النهر والايغال في الصحراء.. في حالة كهذه ليس ثمة سوى السماء.. والليل.. والنجوم.. والريح.. وبمرور الوقت أصبحوا يعرفون الطريق جيداً كما لو أنهم يشمونه أو يلمسونه.. كما لو أنهم يتجولون في دروب مدينة عاشوا فيها مئات السنين!

تعمدت أن تظل ساعات أخرى عند أسفل الجرف.. كنت بانتظار الليل لكي ترى النجوم التي حدثك عنها البدوي.. تتأكد من مواقعها، وتمارس تمريناً على الاتجاه الصحيح.. كنت تريد أيضاً أن تقضي أطول وقت ممكن مع الماء قبل أن تفارقه وتوغل والشهباء في عمق الصحراء.. هنا أيضاً تمضي الرمال في زحفها الأبدي الناعم تريد أن تلف العالم، لكن النهر يرغمها على التوقف عند حافاته.. يصعب عليها أن تجتازه لئلا تتفكك وتضيع.. إنه تحد يفوق طاقتها بكثير.. فتحط رحالها هناك مستحمة بالدفق العذب الذي يرشق الضفاف بين لحظة وأخرى.. لكأنك بالرمل، وقد لفحته الشمس والعطش آلاف السنين، يستعذب طعم الماء والبرد والرطوبة والظلال فيتصالح معها مؤثراً البقاء هناك، متشبثاً أكثر بالأرض، متأبياً على العودة من حيث جاء، أو الرحيل الأبدي المعذب إلى أماكن أخرى ..

تمنيت للحظات أن تكون مثله.. أن تتصالح أنت الآخر مع الزمن والمكان والأشياء.. أن تعرّش في البرد والرطوبة والظلال.. لكن لابد مما ليس منه بد.. في يوم ما كان عليك أن تفارق دجلة، والآن فإن عليك أن تخلف الفرات وراءك ..

أحياناً، تنبض الأشياء والظواهر والموجودات بالإلفة والمحبة.. نتلقى إشارتها في لحظات التغرب والتوحد والدهشة فما نلبث أن نعقد معها صداقة من نوع ما.. صداقة هي أكثر حميمية حتى من تلك التي نعقدها مع الأخوة والأحبة والأصدقاء.. حينذاك يصير طعم الفراق مراً.. إنك لا تترك هنا ينبوع ماء أو شجرة.. أو نهراً.. ولكنك تودع كائناً ما منحك كل ما عنده بسخاء وفي كل الأحوال فإن ما يرغمك على فراق الأهل والأصدقاء والأشياء الحميمة والموجودات.. إنما هو ـ بشكل من الأشكال ـ خرق غير مبرر، ولا إنساني، لسنن الحياة والوجود.. اقتحام فجّ للإلفة بين الأشياء.. صوت نشاز، مترع بالخشونة والحدة والكراهية، ينذر بالويل والثبور.. بإرغام التسبيح الباهر الذي يوحد بين الظواهر والأشياء.. على الصمت.. حينذاك تكتسحك موجة من الكراهية.. من الحقد الذي لم تعتده والذي ينوء به كاهلك وأنت تتذكر المغول، وتتذكر في الوقت نفسه أن شريعة القتل هي بدورها شريعة متوحدة تدمدم بإيقاع واحد، وتمارس تقاليدها وفق طقوس واحدة، وتمضي لكي تحكم بالفناء على كل شيء ينبض بالإلفة والمحبة في هذا العالم.. أتراه التقابل المحتوم بين سنن الموت والحياة؟!

قلت لقطب الدين الحداد: ها هي ذي اللحظة التي انتظرتها طويلاً.. نظر إليك بدهشة، ونهض قائماً، وموجة من الفرح تغمر وجهه لكي يحتضنك.. اعتصرك بعنف بذراعيه اللذين تعاملا طويلاً مع الحديد.. فقلت له: على رسلك يا هذا فقد كدت تسحق عظامي.. واسترقت إليه النظر كرة أخرى.. لأول مرة تراه يبتسم منذ أن دخل المغول بغداد.

لمحت أيضاً ذراعه الأيمن يلوح بالوعيد وقد انطوت أصابع اليد إلى الداخل قليلاً، وتكورت القبضة لكي تصير أشبه بقطعة صماء من الحجر، قديرة إذا ما ارتطمت برأس ما أن تجعله ينبجس دماً.. أدركت ما الذي يريد أن يقوله.. إنه قليل الكلام.. تمر الساعة والساعتان فلا

يكاد ينبس ببنت شفة، لكنه كان يتكلم على طريقته الخاصة.. كان يقول كل ما يتوق إلى التعبير عنه بيديه وعينيه وكنت لعلاقتك الحميمة به تفهم تماماً لغته هذه.. تكشف لك كما لو كنت تقرأ في كتاب أو تتعامل مع الكلمات ..

قلت مستدركاً:

ـ ليس عملاً ثأرياً يا أبا الحارث قال، وهو ما يزال محتفظاً بقبضته المكورة بعصبية وكأنه يضغط على قطعة من الحديد:

ـ سمه ما شئت، فالعبرة ليست بالأسماء!

ارتحت لتعليقه، وأنت تتذكر حشوداً من الإخوان الذين تلقوا الإشارة بالفرح نفسه.. برد الفعل المتحفز للعمل دونما أي فاصل زمني على الإطلاق.. وللحظات اخترقت ذهنك صورة الأستاذ الجوسقي.. بتريثه، وهدوئه.. وقدرته الصعبة على الانتظار.. وقلت في نفسك: إنه نمط آخر من الناس، ولكنه ضروري كضرورة هؤلاء المتعجلين تماماً.. إنهم يكملون بعضهم.. وهو ـ على أية حال ـ سيحقق التوازن المطلوب من أجل ألا يكون العمل اندفاعاً قد يتجاوز قدرته الحقيقية على الفعل، وقد يصل إلى حافات الانتحار.. تذكرت أيضاً حشود الأصدقاء الذين حصدتهم سيوف المغول في أسبوع الرعب العام، فأحسست أكثر فأكثر، بالقناعة التامة لقبول رجل كالجوسقي المهمة، في اللحظة الصعبة التي يتحتم فيها الاقتصاد بالدم والتي تتطلب المزيد من التريث والحذر من أجل ضمان أكبر قدر من الحصاد بأقل الخسائر الممكنة.

كنت قد التقيت الجوسقي أيام تلقي العلم في المستنصرية.. عقل مذهل يصعب وصفه.. واحد من خط الأساتذة الكبار الذين كان التوق الإيماني يتحول على أيديهم إلى محاولة فذة لاكتشاف المجاهيل، وإغناء الحياة، وإعادة صياغتها كما يريد لها الله ورسوله أن تكون.. لم تكن محاضرات تلك التي كنا نتلقاها عن الجوسقي ورفاقه.. ولكنه جهد بنائي يعلو بالمعمار الإسلامي إلى فوق، ومشاركة يومية لجعل حياة

العقل والروح تخفق معاً بنبض هذا الدين.

ازدادت معرفتك به من خلال أبيك.. كان يقول لك إنه ليس صديقي فحسب ولكنه

أخي.. وأن مقتل الصرصري يدفعني أكثر للتشبث به.. إنه نموذج فريد من الناس.. وكان يقول لك: لقد غاب الأساتذة الكبار عن بغداد.. بعضهم قتل.. بعضهم اختفى.. فئة ثالثة آثرت الرحيل.. ولم يبق غير الجوسقي.. إنه المنارة المتفردة التي قد تستأنف يوماً إضاءة الأفق المعتم الذي يخيم على بغداد .

في إحدى المرات طلبت من أبيك أن يصطحبك لزيارة الأستاذ.. رحب الرجل بك كثيراً وهو يحدق في وجهك.. قلت له على استحياء: نعم إنني تلميذك في المستنصرية.. أردت أن تقيّمه وأن تحكي عن قدرته التدريسية التي أذهلت الطلاب.. وأنه مع علمه الذي يبدو ألا قرار له، يملك قدرة تدريسية تعرف كيف تأسر من يستمع إليه.. أشار بيده أن تكفّ عن الحديث.. قال:

- إنك تريد أن تذهب بأجر أستاذك يا وليد ابتسم بهدوء وهو يمسد على لحيته التي لم يعبث بها المشيب.. تدخل أبي قائلاً:

- دعه يا رجل وليقل ما يشاء فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أن نقول لمن نحب إني أحبك!

جرنا الحديث إلى مواضيع شتى.. قال الرجل إنهم بعثوا إليه يطلبون منه العودة لإلقاء دروسه في المستنصرية وأنهم اختاروا عبد العزيز، أحد تلامذته المتفوقين، لكي يقوم بالمهمة، وأنه رفض دعوتهم ..

- لم أكلف نفسي حتى بالرد عليهم.. قال، ثم أضاف:

- سيكون فعلاً خاطئاً لن يرضى عنه الله ورسوله.. ثم بانفعال يعرف جيداً كيف يشكمه:

- خائن من يمد إليهم يده بشيء أو يعينهم بكلمة مما يريدون..

استرقت نظرة سريعة إلى أبيك، فعرف مغزاها.. في تلك اللحظة كان عبد العزيز يخترقك ويخترق أباك ربما ..

جاهدت قليلاً لكي تبعده عن ذاكرتك وتتحصن بالفرح الذي منحتك إياه زيارة الأستاذ.. فرح صاف كالبلور يصعب وصفه.. شلال من ماء الجبال الشمالية العذب كان ينصب عليك فيغسل كل همومك وأحزانك.. وقلت في نفسك: لن يكون غيره بإذن الله ..

تسللت إليه في يوم مطير.. الدروب المحيطة بداره في حي الرحبة، إلى الجنوب قليلاً من جامع القصر، خلت من المارة تماماً.. لم تجد وأنت تجتازها على عجل مغولياً واحداً ..

ـ من الطارق؟

جاءك صوت من الجهة البعيدة للفناء ..

ـ تلميذ يطلب رؤية أستاذه ..

سمع صوتك فعرفه، وقال لأهله: دعوني فسأفتح له الباب.. خرج إليك بملابسه ذاتها التي يجيء بها إلى المستنصرية: الخف والطيلسان الصوفي الأخضر.. رمقك بدهشة وكأنه يتساءل ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت.. كان الماء يبلل ملابسك، ولم تعد تحتمل ثقل العمامة، فأخذتها بيديك وأنت تقول:

ـ أتأذن لي؟

أجاب وهو يبتسم:

ـ إذا لم آذن لك، فمن ينقذني من أبيك؟

بابتسامة مثلها قلت:

ـ وحدها محبته لك أيها الأستاذ يمكن أن تكون واسطة الإنقاذ!

ـ ها قد عدت إلى ما حذرتك منه قبل يومين.. لم تدرك ما الذي يعنيه.. فأضاف: إنك وأباك تريدان أن تذهبا بأجري.. إنكما تمنحانني أكثر مما استحق!

أردت أن تتكلم فأسكتك بإشارة منه، ودلف إلى الفناء أمامك، وهو يقول مشيراً إلى حبات المطر المنهمر بغير حساب:

- اتبعني فإنه يوم خير وبركة وأنا سعيد بزيارتك

قلت، مستجمعاً كل قدرتك على المكاشفة

- من أجل هذا جئتك أيها الأستاذ

رمقك بعينين تشفّان ببريق نفاذ عجيب حتى لقد استحييت أن تطيل التحديق فيه بانتظار كلمة منه أو عبارة تشجعك على المضي في الطريق.. وقلت منكس الرأس:

- الخير والبركة إن شاء الله.. فإن بغداد يقتلها العطش وهي تنتظرك!

قال وهو لا يزال يرمقك:

- ها أنت ذا تتكلم بلسان أبيك، فهو يعرف كيف يجعل الكلمة تقول أشياء أكبر بكثير، وأبعد بكثير مما تريد القواميس أن تعتقلها فيه ..

أجبته وأنت تتناول منه منديلاً فتمسح به وجهك ورأسك من رشقات الماء:

- المهمة صعبة أيها الأستاذ، والطريق شائك وطويل، وليس غيرك من يكون الهادي والدليل.

كنت تتعمد أن تحوم حول الهدف، وألا تدخل الموضوع مباشرة.. لعله الخوف من الرفض.. لعله التشبث بالأمل المتفرد.. بهامش زمني متطاول بعض الشيء، قبل أن يتشكل في ذهن الأستاذ، بصيغة رد أخير قد يقطع عليك الطريق.

لكنه ما لبث أن حسم الأمر:

- قل يا وليد.. إنني أفهمك جيداً فلا مبرر للاجتياز من الطرق البعيدة.

تذكر تماماً، اللحظات التي فصلت بينك وبين كلماته.. كانت

طويلة.. قاسية.. موغلة في عمق زمني يصعب سبره على الحاسبين.

أطرق طويلاً.. ركز عينيه في الأرض وسحب نفساً عميقاً ثم ما لبث أن زفره حتى لقد مسك لفحه ..

استرقت النظر إليه.. كأن حزن الدنيا تمركز في عينيه لحظتها.. كنت تحس أنك معلق بين السماء والأرض وأن خياره وحده سيرفعك إلى أعلى أو ينزل بك إلى القاع.. كنت تحس أيضاً أنك لست وحدك الذي ينتظر.. ولكنهم أخوتك الذين يحدون سكاكينهم اللحظة.. أبوك الذي يقتله العطش لزيارة شيخه الذي اعتقل المغول مرقده.. الصرصري الذي قاتلهم بالحجارة فقتلوه.. آلاف الرؤوس المقطوعة.. والأبناء الذين فقدوا آباءهم.. والأرامل اللواتي يحلمن بعودة أزواجهن.. كنت تحس أن بغداد التي تخترق ويعتصرها الجوع.. بغداد المهيضة الجناح تنتظر الإشارة هي أيضاً، لكي تخفق، وتشعل القناديل.. وتطير ..

أخيراً تحركت شفتاه:

ـ لولا أن يقال بأن الجوسقي جبن عن تحمل مسؤوليته أمام الله وهرب من مجابهة الكفار.. لاعتذرت.. ولكنها المحنة يا وليد، وهي تفرض علينا أحياناً ما لا نتمناه أو

نريده.. فلنكن أوفياء مع الله ورسوله.. ها أنا ذا قدامكم.. فعلى بركة الله!

شددت على يده منكس الرأس.. كنت تتمنى أن تقبله لحظتها ولكن منعك الحياء.. أن تدفن في لحيته فرحك الذي صار حزناً.. أن تسكت وجيب قلبك الذي يدق بعنف مؤلم ..

احتبست الكلمات في حلقك وأنت تتذكر إخوانك الذين ينتظرون لحظة البدء.. وتتذكر أيضاً أبا الحارث الحداد وهو يطوي أصابعه بعنف ويشد على قبضته أكثر فأكثر لكي يومئ بما تنوء بحمله الكلمات!

«30»

حنان

أخذت زيارات عبد العزيز تتباعد.. ودقات القلب التي كانت تتسارع كلما جاء.. راحت تتباطأ هي الأخرى.. الجذوة التي اشتعلت في الحنايا عبر الأيام الأولى، ها هي ذي تذبل وتتلاشى.. لكأني أراها بأم عينيّ وهي تومض بإعياء مؤذنة بالخفقة الأخيرة التي تسبق الانطفاء ..

الجدل بينه وبين أبي يتواصل، مصعداً بقوة لا راد لها، في دروب متشعبة ملتوية، لم يعد بمقدوري اللحاق بهما وهما يجوسان خلالها، ولكنها كانت تصل بهما في كل مرة إلى البؤرة ذاتها: المغول الذين يريدون أن يبعثوا الحياة في موات بغداد بعد أن ذبحوها.. أبي لا يملك أية قناعة على الإطلاق في أن هذا يمكن أن يكون.. إنه يراها معادلة مستحيلة، وأن الذي يقتل لا يمكن أن يهب الحياة.. عبد العزيز ـ متلهفاً على دور ما ـ يكافح تشبثاً

بقناعته، تحت أي غطاء كان، من أجل أن يستعيد نهر العرفان قدرته على التدفق من جديد.. لا لقاء بين الرجلين، فيما بدا يتكشف لي أكثر فأكثر.. الوليد الذي أخذت زياراته للبيت تتباعد هي الأخرى التقى عبد العزيز عرضاً.. مرة أو مرتين.. وفي كل مرة كان يجد نفسه قبالة الوضع ذاته: الجدل الذي يبدأ هيناً ليناً ثم ما يلبث أن يشتعل أواره لكي يباعد بين الرجلين.

حساسية أبي المفرطة وتوتره الروحي الذي بلغ نقطة الشد

القصوى.. حزنه العميق.. ألمه الذي لا يغيب لحظة واحدة.. توحده المعذب مع كل البغداديين الذين تلقوا عنف الضربة والذين لا يزالون يلعقون جراحهم.. هذا كله مما كنت ألمسه بعيني، وغيره مما لم يتح لي أن أسبر غوره في مجاهيل روح تعلمت، منذ زمن بعيد، كيف توغل فيما وراء المنظور لكي تتلقى الزاد والتعاليم.. هذا كله كان يجعل أبي على استعداد في أية لحظة لتقبل الشرارة الأولى التي تتحفز تحت الأرض، مهيأة تماماً للاشتعال.

عبد العزيز كان، على الطرف الآخر، تماماً، من أبي.. على الطرف الآخر في كل شيء.. حتى في هذه.. يبدو أنه محصن ضد الألم والعذاب.. وهو يذكرني بكتل الثلج المتجلدة القادمة من أعالي جبال أذربيجان محمولة على ظهور البغال.. لا تتفكك ولا تذوب.. ولطالما تساءلت بيني وبين نفسي فيما إذا كانت الواقعة التي نزلت ببغداد، قد أحدثت في نسيجه المحكم شرخاً أو نسلت خيطاً!

هذا التقابل المتفرد، وربما الغريب من نوعه، كان يستفز الوليد فيدخل دائرة الجدل بين الرجلين بمجرد وصوله.. وكان ينحاز إلى جانب أبي.. وثمة رغبة كانت تتناوشني في أن يظل محايداً، وألا يزيد النار اشتعالاً ..

بمرور الوقت أخذ يتبين لي، أنه لا أبي ولا الوليد بقادرين على أن يزحزحا عبد العزيز عن موقعه الذي يتحصن فيه.. مقتنعاً حتى القرار بأنه يمارس أمراً مشروعاً.. بل ـ ربما ـ ينفذ نداء ضرورة ما تفرضها مطالب الزمن الصعب.. لكن هذا لم يكن، فيما أخذ يتكشف لي أيضاً، سوى جانب واحد من الصورة، ولعله الجانب المضيء! وأن ثمة جوانب أخرى.. إن عبد العزيز يعاني من الإحساس المبالغ فيه بالذات، وهو من أجل تأكيد هذا الإحساس، وتغذيته، مضى مسرعاً صوب هدف بعيد مستهدياً بقوة العقل وحده، محاولاً أن يختزل حيثيات الزمن

والمكان، وأن يصل.. فلما أوشك على الوصول، فيما خيل إليه، اندلع الحريق لكي يلتهم كل شيء.. وها هو الآن يتشبث بالمحاولة، يمسك بأسنانه وأظافره الحافة الصخرية الملساء التي وجد نفسه معلقاً على أطرافها.. مكافحاً من أجل إقناع نفسه بأنه لا يزال هناك أمل.. وأن بمقدوره أن يواصل الصعود.

وأقول في نفسي: إذا كان عبد العزيز يتألم، فإنما يتألم لنفسه.. لكن حتى هذه لم تكن تبدو بوضوح لأنه يعرف تماماً كيف يشكم عواطفه، متمركزاً في دائرة العقل الذي يتوق للصعود، وحيداً متفرداً، منسلتاً من كل خيوط الزمن.. والمكان.. والتاريخ.

في إحدى المرات دار بينهم حوار طويل.. لكن مشكلتي أنني لم أكن أطيق صبراً على مواصلة السماع حتى النهاية.. فما هي إلا دقائق، حتى أجدني أتراجع قليلاً لكي ألحق بأمي في غرفة الجلوس أو في المطبخ.. كنت أجدني في معظم الأحيان قبالة أبي وهو يحاول عبثاً أن يوصل صوته إلى عبد العزيز. وكان يعذبني أن الأخير لا يكاد يسمع الصوت رغم صدقه الكامل، وأن اختراق قناعاته المتجلدة أمر مستحيل.. كان يعذبني أيضاً أن أبي وهو يتحدث إلى عبد العزيز، كان يضع قبالته تماماً: بغداد التي ذبحها المغول، والتي لا تزال تخبط كروح جريحة تحت أكداس الخرائب والحرائق والرماد.. آلاف الرؤوس المقطوعة، والكتب الممزقة، والعيون التي صلبها الخوف.

يقول عبد العزيز: هنالك ـ بالتأكيد ـ مبالغات حول الكتب التي أتلفها المغول، وأنت تعرف يا عماه أنه في حالات كهذه تنضخم الأمور بأكثر مما يجب، فتصير الحبة قبة، كما يقول المثل.. ثم لا تنس الشائعات.. إنها تهمس.. نعم.. لكنها تعرف كيف تزيد النار اشتعالاً ..

ويقول أبي: ما يتناقله الناس ليس شائعات يا عبد العزيز، إنها شهادة مباشرة على ما يجري فعلاً في أحياء بغداد وأسواقها.. إنها أبشع

عملية اغتيال يشهدها فكر أمة غلبت على أمرها ..

عبد العزيز: ولكنها تتوقف الآن.. وربما تكون قد توقفت منذ عدة أيام.. ليس هذا فحسب، بل إنهم يسعون الآن لإعادة الأمور إلى نصابها.. اتراه نوع من التعويض عن الخسائر التي تحتمها مطالب الصراع بين الغالب والمغلوب؟

أبي: التعويض؟!

عبد العزيز: بكل تأكيد.. فها هم الآن يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهد لكي ترجع المدارس إلى عملها كرة أخرى.. يكفي أن تبدأ عقارب المستنصرية بالدوران لكي تتبعها الشرابية وكل المدارس الأخرى.. والمسألة مسألة وقت فحسب.

أبي (بانفعال يحاول كبته): ولكنهم لا يزالون يقتلون العلماء!

عبد العزيز: ليسوا كلهم على أية حال ..

أبي: من ناحية المبدأ.. فان محاولتهم التي تتحدث عنها لا تعدو أن تكون لعبة ماكرة يتسلون بها.. مصيدة معدة بمهارة لاستدراج المغفلين ..

عبد العزيز: المسألة يا عمي العزيز ليست في أن نستدرج إلى المصيدة التي تحكي عنها، أو أن نتجاوزها ..

أبي (وهو يدعك سبحته بعصبية): كيف؟

عبد العزيز (ينظر إلي وكأنه يستفزني لكي أمنحه صوتي): إن الذي سيخدمهم في نهاية الأمر هو أن تعلن بغداد استسلامها الأخير.. أن تظل على صمتها المطبق وأن تختار العزلة والانقطاع عما يجري في العالم ..

يردد أبي بصوت لا يكاد يسمع: «عذرت من أجهلته بالجهل.. مكرت بمن أجهلته بالعلم»!

وقبل أن يسأل عبد العزيز مرة أخرى، يواصل هذا دون أن ينتبه لعبارة أبي:

- إنهم مضطرون على أية حال لأن يفعلوا شيئاً، وإلا حوصروا بالفراغ والعزلة.. وسيزداد الخندق الذي يفصلهم عن الأهالي عمقاً، ولن يكون هذا في صالحهم.. إن فرصتنا الوحيدة.. فرصتنا المتبقية من بين سائر الفرص المحترقة هو أن ننفذ من هذه القناة، وأن نعتمد على أنفسنا لإعادة الألق إلى بغداد قبل أن ينطفئ إلى الأبد.. إنه - إذا أردت الحق - ليس تعاوناً معهم كما تقول، ولكنه انتزاع الفرصة في اللحظة المناسبة.. الفرصة التي قد لا تتأتى كرة أخرى.. والتاريخ - كما تعلم - لا يمنح الفرصة نفسها مرتين ..

لمحت لحية أبي التي اكتسحها الشيب في الأيام الأخيرة، تهتز قليلاً، ويده تزداد تشنجاً على سبحته الشيحية وهو يردد: «حسابك غلط، والغلط لا يملك به صواب»!

لم أطق اصطباراً على متابعة الموقف، ليس فقط لأنني كنت أتألم على أبي.. ليس - كذلك - لأنني كنت أحس أن ثمة شيئاً ما قد يجعل عبد العزيز يتناءى أكثر فأكثر.. ولكن لأنني لم أشأ أن أظل لحظة أخرى، كمن يجد نفسه يخترق الآخرين، دون أن يمارس أي دور.. أية مشاركة على الإطلاق.

وأنا أتراجع بهدوء وأبتعد قليلاً باتجاه غرفة الجلوس، طرقت سمعي أسماء وكلمات ما كنت قد سمعت بها من قبل.. الزنجاني والطهراني ونصير الدين.. سمعت أيضاً أبي وهو يقول انهم كانوا يخرجون بالعلماء لكي يقتلهم هولاكو عند باب الحلبة.. أشياء أخرى قالها أبي، كانت تصلني متقطعة فتفقد وضوحها شيئاً فشيئاً.. كنت قد بلغت حداً لم أعد أحتمل فيه أية إضافة أخرى.. قدح الماء الذي تشبع بالملح فقد قدرته على إذابة أية جزئية أخرى ..

دلفت إلى الغرفة فوجدت أمي منكبة على رتق شق صغير في عباءة أبي.. لما أحست بدخولي رفعت رأسها قليلاً، ثم ما لبثت أن أنكبت على عملها وهي تسألني:

ـ ألا يزال هناك؟

قلت وأنا أشير إلى الطرف الآخر من الفناء:

ـ انك تسمعين حوارهما

ـ قولي له أن يبقى لكي يشاركنا العشاء

ـ ها إنه الآن يتناول عشاءه مع أبي على طريقتهما المفضلة.. لم تدرك قصدي، ولكنها لم تسألني عما أعنيه.. لقد علمها أبي الا تسأل عن أشياء كثيرة.. أن تظل بعيدة عنها.. لم يقل لها ذلك بشكل مباشر، ولا أصدر إليها أمراً، لكنه أصبح لتكراره يحمل قوة التعاليم.. أن تدوّم في فضاء البيت كلمات وتعابير لا تحمل قدراً كافياً من الوضوح، على الأقل بالنسبة لامرأة كأمي لا تقرأ ولا تكتب.. لعلها كانت تسأل في بدايات حياتهما المشتركة.. ولكن فيما بعد تعلمت أن تؤثر الصمت .

وقلت لها:

ـ إن عبد العزيز لا يكاد يشبع من الحديث عن العلم والعلماء!

أجابت:

ـ ليس عبد العزيز وحده

قلت:

ـ بالتأكيد، ولكن أبي يمضي في طريق مغاير تماماً.. نظرت إليها بإمعان في محاولة لتفحص ما تريد ملامح وجهها أن تقوله.. إنها هي الأخرى تكتم كثيراً.. ولكن قدرتها على التحمل قد لا تكون بحجم رغبتها المؤكدة في الكتمان، فكان وجهها يفيض مفصحاً بين الحين والحين عما تريد أن تقوله دون أن تجد نفسها مرغمة على استدعاء الكلمات.. كانت ترتسم على وجهها ـ لحظتها ـ رغبة متوسلة.. رجاء يتعامل مع هدف بعيد المنال: أن يصطلح الرجلان، وأن يكفا عن الجدل.. أن يتنازل كل منهما قليلاً لكي يقتربا أكثر من بعضهما، وحينذاك فقط يمكن أن يتحدثا عن مطالب زواج ينتظر كلمة الفصل.. عن علاقة قدر لها أن تبدأ وتتشكل في لحظة ليست كاللحظات، وأنها

الآن - لذلك - بأمس الحاجة إلى التحديد والوضوح والحسم وإلا ازدادت ايغالاً في المجهول وربما تعرضت للضياع.

تنهدت وهي تكف لحظات عن مواصلة الرتق وسألتني عن الوليد.. أعرف أنها تتلهف عليه، ليس فقط لكي تطمئن، ولكن لعله يعينها في تحديد الأمور الغائمة التي تزداد تفلتاً وسط هموم أبي، وفردانية عبد العزيز وإلحاحه.. قلت لها وأنا أجلس مرهقة إلى جوارها:

- إنه هو الآخر منغمر في همومه حتى شحمة أذنيه ..

- أعرف ذلك، ولكنه قد يمنحني من وقته أكثر مما يفعل أبوك ..

تذكرت كيف أنه في المرات القليلة التي التقى فيها عبد العزيز وجد نفسه - كأبي تماماً - منساقاً بقوة لا ترد لمنح قناعاته لعبد العزيز ومحاولة وقفه عن التعاون معهم.. وكيف أنه كان - أحياناً - يحتد أكثر من أبي، فيصف تصرفه بالاندفاع والأنانية.. وبالجبن وانتهاز الفرص أحياناً ..

- اطمأني فإنه لن يمنحك من وقته لحظة واحدة هو الآخر.. نظرت إلي بإشفاق.. ارتخت يدها عن الإبرة والخيط والعباءة فتركتها تنسلت شيئاً فشيئاً:

- إنك تزدادين هزالاً يا حنان، ووجهك الذي كان يفيض حيوية، يزداد شحوباً يوماً بعد يوم ..

- ليست هذه مشكلتي يا أماه.. الناس كلهم يزدادون هزالاً.. إن ما جرى يكفي لأن يجعل مياه دجلة نفسها تكف عن الجريان!

قاطعتني وهي لا تزال ترمقني بالنظرة نفسها:

- لكل أمر حد، ولن أظل ملتزمة الصمت.. فقط أريدك أن تعينيني.. كنت أعرف ما الذي تقصده.. لكن المرء أحياناً يميل لأن يقيم حاجزاً ما بينه وبين التكشف الذي لم يتهيأ له بعد، وقد يتخذ هذا الحاجز صيغة سؤال يضعنا في دائرة الغموض كرة أخرى ..

ـ بم؟
قلت لها ..
ـ بأن يحدد عبد العزيز موقفه.. ويتحرك لاستكمال الإجراءات.
حاولت أن أجيبها، فطوحت بيدها باتجاه الفناء:
ـ سأطلب من أبيك وأخيك أن يعطيا من وقتهما شيئاً.. لابد أن يتدخلا ..
ـ ولكن ..
قاطعتني مرة أخرى:
ـ انك تعلمين أن عقد القرآن وحده قد لا يعني شيئاً على الإطلاق، وأنه مجرد
خطوة.. فماذا ننتظر؟
انتهزت الفرصة التي منحني إياها تساؤلها الأخير فقلت:
ـ أن تزداد الأمور اتضاحا ..
قالت بشيء من نفاد الصبر لم أكن قد اعتدته منها من قبل:
ـ أية أمور؟
أشرت إلى الخارج وقلت:
ـ ما تشهده بغداد ..
ـ ولكن علاقتك بعبد العزيز لن تقدم أو تؤخر شيئاً في ما تشهده بغداد ..
ـ لقد تعلمنا الانتظار.. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أياماً أخرى.. أياماً فحسب ..
ـ بالنسبة لعبد العزيز.. وحتى لأبيك وأخيك، فان انتظار أشهر وربما سنوات أخرى قد لا يدفعهم لفعل شيء.. وها أنت ترين بأم عينيك ..
خطر ببالي، لست أدري كيف، أن جدل أبي مع عبد العزيز قد يرتبط بمسالة الزواج بشكل من الأشكال.. لعله يحاول أن يعطي الفرصة

الأخيرة لخطيبي لكي يتريث قليلاً ويوقف اندفاعه.. لعله يريد أن يتأكد، وبشكل نهائي، لا يكتنفه أي قدر من الغموض، أن عبد العزيز سيصر على موقفه حتى النهاية.. وحينذاك قد يتدخل أبي في الموضوع لكي يحسمه على طريقته الخاصة.. إنني أعرفه جيداً.. ولن يكون بمقدور قوة في الأرض أن ترغمه على قبول ما يصدم وقناعاته المتجذرة في روحه حد التوحد ..

التفتّ إلى أمي فوجدتها تكف عن النظر إلي وتعود إلى رتق عباءة أبي، وتساءلت مع نفسي فيما إذا كان ذلك محاولة للهروب من الانتظار الصعب الذي يبدو أنه يؤلمها كثيراً ولم تعد تطيق عليه صبراً ..

«31»

عبد العزيز

عندما ينبجس ينبوع الفرح والامتنان في نفسي تفيض بالأشواق.. جسدي المرهق لا يحتملها فأتقافز في دروب الرصافة كوعل بري محاولاً أن أمتص الصخب الذي يهدر في أعماقي.. ألمح الأشياء تعود إلى أماكنها أولاً بأول.. وما أعطته بغداد يمكن ان يعوض فلا بأس.. سأكون أنا ـ بقدر طاقتي ـ واحداً ممن سيردون الدين ويداوون الجراح.. كانت بغداد تزدهي بالعلم والعلماء.. تنبض ببريق العقل الذي يضيء الظلمات، ولسوف أحمل القنديل من المستنصرية نفسها لكي أشعل الفتيل كرة أخرى.. أعبر الجسر على عجل وأنا أقول في نفسي: ليس ثمة غيرك يا حنان.. وأتذكر أباها فأنكمش قليلاً.. شيء ما يحيك في نفسي.. أحس كما لو ان بيني وبينه عتاباً من نوع ما.. شيئاً من سوء التفاهم.. وأتذكر أنني قدير على تجاوزه، إن لم يكن اليوم فغداً.. فاسترجع فرحي وأفقد ثانية السيطرة على إحساسي المتدفق كالشلال، فتتسارع خطواتي، ومعها يتسارع نبض القلب وتتداخل الرؤية، فثمة المسرة والامتنان والإحساس بالتناسق بين الأشياء.. وثمة إزاءها.. قبالتها تماماً.. صوت غامض يجيء من المجهول، ينذر بالحزن والتبعثر والبعاد.. أهمس في محاولة للتشبث بالوعد.. بنداء اللحظة الراهنة الذي يمني بالكثير: لعله لن يكون هناك.. فيرد علي الصوت إياه: ولكنه سيجيء على كل حال.. قدرك يا عبد العزيز أن يكون سليمان عمك وأن تكون صهر الوليد.. أدهش قليلاً.. فها أنا ذا أتذكر، ربما لأول مرة،

الوليد أيضاً.. ترى هل سيقدر لي أن أتجاوز هذا كله وأصل إلى حنان؟

أتشبث بحلقة الباب وأقرع بها بهدوء لا يكاد يتناسب والهدير الذي يخفق في جنباتي.. لعلها محاولة غير متعمدة لشكمه عن الانفلات.. اسمع وقع خطواتها فأقول في نفسي: الحمد لله.. تتلقى هي الإشارة فتفتح دون أن تسأل من الطارق.. إنها تعرف ضرباتي جيداً فلا تسأل عن الطارق.. ألمح أباها في زاوية الفناء فأجفل قليلاً.. أحاول أن أتراجع دون إرادة مني فينادييني:

- مرحباً يا عبد العزيز!

استرق منها نظرة علمتني قراءاتي كيف أفك رموزها وكيف أرد عليها بنظرة أخرى تختصر الكلمات والأسفار.. أتجاوزها مدفوعاً بقوة لا راد لها صوب عمي.. أسأله بصوت متيبس:

- كيف حالك يا عماه؟

يجيبني وهو يدعك سبحته الشيحية الصفراء:

- لن يكون حالي حسناً قبل أن تستعيد بغداد عافيتها!

ها هي ذي الضربة الأولى يا عبد العزيز، فاعرف كيف تتلقاها.. حاول أن تمتصها بهدوء لئلا تتصادم الأفعال وردودها ..

وثمة لعبة مكشوفة يمارسها الإنسان في حالات كهذه تفادياً للارتطام.. تغيير الموضوع والذهاب بالطرف الآخر بعيداً عن تياره.. لكني أرتد عشرين مرة قبل ممارستها مع

سليمان.. إنني أعرفه جيداً، يتمركز في موضعه كالجبال.. يتجذر في قناعته كشجرة عمرها ألف سنة، ولن يكون بمقدور قوة في الأرض أن تزحزحه عنها شبراً.

أقول له:

- إنني سعيد يا عماه إذ أراك تسترد صحتك.. لقد كنت قلقاً عليك.. وها أنا ذا ..

يقاطعني:

ـ لا تغرنك المظاهر يا عبد العزيز

ها هو ذا يرجع إلى رموزه التي يجيد التعامل معها، فلأذهب معه كما يريد:

ـ بالتأكيد، فانها قد لا تقول كل شيء ..

ـ بل إنها قد تعطي إشارة مضللة، وتقود إلى طريق مغاير تماماً لما يتشكل في الطبقات المخفية ..

ـ هذا صحيح ..

يجدها فرصة لاختراقي مرة أخرى، فيسألني وهو لا يزال يدعك سبحته الصفراء:

ـ فماذا تقول عن صحتي الآن وأنا أعاني من مرض يستعصي على الأطباء؟

أتذكر بغداد.. أتذكر عشرات الألوف من الرؤوس التي أحتزت، وألوف أخرى رحلت أو ضاعت.. أتذكر أيضاً مئات الألوف من الكتب التي أحرقت أو مزقت أو ديست بالأقدام.. وألوفاً مثلها ألقيت في النهر.. أحياء لا يحصيها عد لا تزال تحترق ويغطيها الدخان.. وأحياء أخرى أصبحت أكواماً من الرماد.. والشيخ الذي يرحل مساء كل يوم في المجهول فتنفتح له المغاليق، لن يستعصي عليه أن يقرأ ما يجول في خاطري.. ما يتجسد في دائرة الإحساس فينطبع في الرؤية المنظورة: الرؤوس المقطوعة.. الأحياء المحترقة.. الكتب التي تتحلل اللحظة في مياه دجلة.. والناس الذين رحلوا، فيسألني وقد بدأ يتجاوز عتبات الرضا والأريحّية، ويعتدل قليلاً متشبثاً أكثر بالجدار الذي يتكئ عليه:

ـ فما الذي يدفعك للتعاون معهم؟

كنت أعرف تماماً أنني سأتلقى سؤاله، وبالكلمات نفسها، فلم أفاجأ، ولعلي أعددت على غير وعي مني، الجواب المطلوب:

ـ ليس تعاوناً يا عماه، ولكنها محاولة من بين عشرات المحاولات التي يمارسها
غيري، اللحظة، لجعل بغداد تنهض على قدميها كرة أخرى ..

ـ بغداد لن تنهض على أقدام المغول يا عبد العزيز.. كان يجب أن تعرف ذلك.. إنها واقعة مكشوفة أكثر مما يجب، ورجل مثلك ما كان له أن تخفى عليه ..

أستفز كل قدرتي على الرد، وأقرر الدفاع عن موقفي حتى النهاية.. يكفي أنني مقتنع به حتى النخاع، يكفي أنه تشكل واكتسب ملامحه الأخيرة بعد محاولات صعبة من الجمع والطرح للوصول إلى الرقم الصحيح في معادلة صعبة تستعصي على الحاسبين ..

ومن أجل استعادة شيء من الود المفقود أسأله بلطف:

ـ ألا تسمح لي بالجلوس.. أولاً؟

أشار بيده إلى البساط ..

أنزع العباءة وأضعها جانباً ثم انسرب إلى جواره متكئاً أنا الآخر على وسادة ملقاة عند أسفل الجدار، وأنا أقول له:

ـ إذا أردنا أن نبدأ من نقطة محددة تماماً من أجل الوصول إلى نتائج دقيقة محددة هي الأخرى، فانني أستطيع القول بان المستنصرية، إذا قدرت على تجاوز المحنة، واستأنفت عملها من جديد، فمعنى هذا أن فتيل العقل قد اشتعل مرة أخرى، ولسوف تسري النار إلى كل مدارس بغداد، وإلى كل مكان فيها لكي ما تلبث أن تخفق بالعرفان كرة أخرى ..

يتحفز لمقاطعتي، فأواصل محاولاً أن أسدّ عليه أكبر قدر ممكن من الثغرات التي قد يخترقني من خلالها:

ـ والذين سيشعلون الفتيل يا عماه هم علماء بغداد أنفسهم وليس المغول ..

ألمح حنان تجتاز الفناء وتمضي لا أدري إلى أين.. أحاول أن

أناديها فأستحيي من عمي الذي أسمعه يقول:

ـ فاقد الشيء لا يعطيه ..

لا أدرك بالضبط ما يرمي إليه، فأنظر إليه بتساؤل، فيقول:

ـ لن يكون بمقدور الهمجية أن تقيم عمراناً يا عبد العزيز.. الموات لا يمنح حياة والبرد لا يعطي دفئاً ..

أتشبث أكثر بقناعتي وقد أدركت ما يعنيه:

ـ هذا بالضبط ما يفسر قولي، فليسوا هم الذين سيحملون كبر المحاولة.. إنهم لا يقدرون عليها بأي معيار من المعايير، ولذا سيتركونها لنا، فان لم نتحرك في اللحظة المناسبة، فمعنى هذا أننا سنعطي الفرصة الأخيرة للهمجية أن تأتي على العمران ..

لأول مرة أراه يضحك وبصوتٍ عالٍ:

ـ ولكن جل الذين تعنيهم قتلوا أو هاجروا يا عبد العزيز ولم يبق منهم أحد ..

ـ هنالك غيرهم كثيرون ..

يضحك مرة أخرى وهو يربت على كتفي:

ـ نصير الدين الطوسي مثلاً؟

ـ ليس وحده على أية حال ..

ـ ولكنه بداية سيئة يا عبد العزيز.. بداية مخالفة لطبائع الأشياء، وبالتالي فلا أعتقد أنها ستصل إلى هدفها بيسر وسهولة ..

تغيم علي كلماته كرة أخرى، فأنظر إليه متسائلاً فيقول وهو لا يزال يربت على كتفي:

ـ لقد رفع نصير الدين صوته يزكي الدولة القاهرة ويشيد بفتوحاتها ويخيف الناس من معارضتها.. وهذا ضد التاريخ يا عبد العزيز وضد العمران ..

أردت أن أتكلم فقاطعني:

ـ أعرف ما الذي تريد أن تقوله.. هناك كثيرون غير نصير الدين..

وأنه ليس كل شيء.. ولكني أحب أن أقول شيئاً لا أعتقد أنه يخفى عليك.. إن كل هؤلاء الآخرين الذين تلمح إليهم لن يكونوا بأكثر من نسخ لنصير الدين في أحسن الأحوال، ولكنهم في الحقيقة أسوأ من ذلك بكثير.. إنهم يرتضون أن يكونوا أدوات لتمرير الفتوى التي أصدرها نصير الدين، وأنت تعلم ـ كذلك ـ أن المغزى الأخير لفتواه هذه هو رفض المقاومة والاستسلام للسيف القاهر.. إن الكلمة التي تعمل في ظل السيف يا عبد العزيز خائفة وجلة، كأنها تنتظر شيئاً أو تخشى من شيء.. الكلمة التي تبحث عن تبريرها فيما هو مناقض لبداهات التاريخ والعقيدة.. الكلمة التي تفقد شيئاً فشيئاً بطانتها المعنوية وتتصلب.. تغدو هي الأخرى سيفاً يحز رؤوس الأهل والعشيرة.. أداة طيعة يحصد بها الغالب عقول المغلوبين وأرواحهم ..

أشعر أنه يحاصرني أكثر فأكثر.. لكنه لن يقدر على أية حال أن يهز قناعتي التي أتشبث بها، لأنها في نظري على الأقل، تحمل مشروعيتها الكاملة ..

أقول محاولاً أن يكون صوتي أكثر قوة ووضوحاً:

ـ بقدر ما يتعلق الأمر بي، فانك تعرف جيداً يا عماه أنني لن أمارس يوماً خطيئة

كهذه.. وأنني أبحر بالاتجاه المضاد تماماً ..

يقول بالسخرية نفسها، ولكنه يكف عن ضحكه ويستعيد حزنه القديم:

ـ كيف؟

ـ أن تنهض بغداد كرة أخرى.. وألا يلفها النسيان.. أن تظل قاعدة العرفان في الدنيا وألا نجعل من الغزو المغولي نهاية العالم ..

تستفزه كلماتي الأخيرة، فلا أكاد أتبين في ملامح وجهه الخط الفاصل بين الحزن والغضب، وأسمعه يقول وهو يحاول أن يسحب نفساً عميقاً لكي يغسل رئتيه اللتين أثقلهما الهم، كما خيل إلي:

- إذا قلنا لهم نعم، فتلك هي نهاية العالم بالفعل.. اللحظة التي نصدر فيها حكم الإعدام على أنفسنا وتاريخنا ..

يسحب نفساً عميقاً آخر ويواصل بالنبرة نفسها:

- لقد قتلوا جل علماء بغداد.. لاحقوهم في الدور والمساجد وقتلوهم هناك.. الذين نجوا فروا إلى مصر والشام، لم يكد يبقى في بغداد واحد من العلماء الكبار.. كلهم رحلوا.. أحدهم أوصاني بك يا عبد العزيز قبل أن يقتله المغول.. بعثوا إليه يطلبون منه أن يتحول إلى إحدى الدور التي منحوها الأمان، فأبى، وقاتلهم بما وصلت إليه يداه.. الحجارة والأشياء.. حتى خلصوا إليه فقتلوه.. لعلك تتساءل من خلال قناعتك نفسها، لماذا لم ينتهز

الفرصة ويتحول إلى خط الأمان، مبرراً فعلته بأنه يريد أن يشعل فتيل العرفان؟! كلا

يا عبد العزيز.. لقد أدرك الصرصري تماماً مغزى الذهاب إلى هناك، إنه بشكل من الأشكال نوع من الانتماء للغالب.. الرضا بكلمته.. وباعتبار الصرصري عالماً مدهشاً كما تعرفه جيداً، فإن ذهابه يعني أكثر من هذا، إنه اعطاؤهم الشرعية التي يتوقون إليها كغرباء لكي يندمجوا أكثر في نسيج الحياة الإسلامية وينكثوها خيطاً خيطاً.. إن نصير الدين فعل هذا أما الصرصري فقد رفضه، ولم يكن استشهاده مجرد رغبة عارضة أو ردّ فعل موقوت في مواجهة السيف المغولي، ولكنه كان كفؤاً للكلمة التي جعلت بغداد تزدهي كجوهرة نفيسة في هذا العالم والتي عرف الرجل كيف يمثل شرفها في مواجهة كل صنوف الخوف والرعب، وفوق كل ضغوط الإغراء بالجاه والأمان!

أريد أن أقول لعمي بأنه يخطئ إذ يجعل كل الذين يسعون لاستئناف دفق الحياة المتيبس في بغداد.. في سلة واحدة، ويحكم عليهم بالإذعان للغالب.. إلا أنني أتردد، ثم ما ألبث أن أتراجع وأحبس

الكلمات في صدري، وأنا ألمح حزنه يتزايد حتى لأكاد ألمسه بيدي.

يلمح، بحسه العجيب، بعض ما يعتمل في نفسي فيقول، ولكن بهدوء أكثر هذه المرة:

ـ إن العملية برمتها خاسرة يا عبد العزيز لأنها أشبه بلعبة مزيفة لا قواعد لها.. إنهم وهم يحرصون على أن تستأنف المستنصرية عملها، ويجهدون من أجل استكمال هيئة تدريسية تغطي اختصاصاتها كافة، يعمدون في الوقت نفسه إلى إلغاء مكتبتها وإغراق أسفارها في النهر ..

يعود إلى التربيت على كتفي:

ـ أتريد أن أقول لك شيئاً آخر؟ إن بمقدورك اللحظة أن تذهب إلى باب السور لكي ترى بأم عينيك ما يجري في مخيم هولاكو المضروب هناك.. إن أبا بكر الطهراني وشهاب الدين الزنجاني يخرجان بجماعات الفقهاء أرتالاً لكي تضرب رقابهم هناك!

يتنهد وهو ينزلق على الوسادة أسفل الجدار لكي يعود إلى استرخائه:

ـ لعبة خاسرة ما كان لها أن تغيب على رجل مثلك، فان علماء قتلة كالطهراني والزنجاني لا يمكن أن يمنحوا بغداد القدرة على أن تخفق كرة أخرى ..

«32»

سليمان

لم أدهش وأنا أجتاز سوق الكتب، بعد يومين من إعلان الأمان، في طريقي إلى

دكاني، فأجد أبوابها الخشبية مهشمة، وأسفارها قد ضاعت.. كنت أتوقع هذا.. بل إنني كنت أحمل يقيناً بأنه نازل لا محالة وأن الشيخ الصرصري رحمه الله لا يمكن أن يخطيء.. فها هي ذي الهمجية، وقد أحكمت قبضتها على بغداد، لا تكتفي بحصد الرقاب، فمع حصاد دموي كهذا، وبموازاته، كان لابد من قتل الفكر.. ونزيف العقل الذي شهدته بغداد فيما لم تعرفه مدينة أخرى في العالم، كان أمراً محتوماً.. إنهم يعرفون جيداً أن سيفهم الذي يقطر دماً، لن يظل مدوماً في فضاء بغداد، وعالم الإسلام كله، إن لم يئدوا وبأقصى ما يستطيعون من سرعة، وحسم، كل كتاب ينطق بالشهادة، ويدفع بقوة الكلمة، أمة كابية، إلى النهوض كرة أخرى لمواصلة الطريق.

ورغماً عني دهمتني موجة من الكآبة والحزن وتساءلت: أين الوراقون وأين أصدقائي وجيراني؟ والسوق الذي كان يموج ويضطرب بالحركة والحياة، بالجدل والنقاش، بأصوات الباعة ونداءات الطلاب الذين يجيئون من مدارسهم ضحى كل يوم لكي يقلبوا صفحات الأسفار ويساوموا على هذا الكتاب أو ذاك.. ها هو ذا يتحول إلى درب مهجور لا يجتازه أحد وخراب تصفر في جنباته الريح.. كنت أعرف أن حانوتي

لن يكون استثناء بأية حال من الأحوال لهذا الابتزاز الذي تعرض له السوق فوطنت نفسي على أن امتص الصدمة وأن أتجرع كأسي.. والشائعات التي تناقلها الناس في اليومين الأخيرين عن تغير لون دجلة بسبب ما شربته من المداد والدم، لم تكن مبالغاً فيها.. فها هي ذي آلاف الأسفار تضيع كما لو أن يداً آثمة.. قوة غاشمة تريد أن تسكتها إلى الأبد.. والنهر على بعد خطوات، وهو يعرف كيف يحلل الكلمة ويرغمها على أن تصمت.

وللحظات، كما لو كنت في حلم، وجدتني أقف مندهشاً متسائلاً، قبالة سيال من حشود الرجال المدهشين الذين مروا ببغداد أو عاشوا فيها في أزمان يصعب حسابها.. كل الذين اشتعلت عقولهم عطاء وهم ينقبون في تاريخ العالم وأشواق الإنسان للكشف عن المجهول.. كل الذين تألقت أرواحهم وهم يصعدون في ملكوت الله.. كثيرون مروا أمامي.. قاموا من بين صفحات الكتب المذبوحة عند أقدام المغول، لكي يرمونني بنظرة عتاب ما كنت قادراً على تحمل مرارتها القاسية، ولكي يقولوا لي: إني وكل البغداديين.. الخليفة والجند.. الوزراء وكتاب الدواوين.. الأغنياء والفقراء.. كلهم مسؤولون عن مذبحة الكلمة هذه.. وأنهم لو عرفوا.. لو عرفوا.. فقط كيف يحدون سيوفهم لحموها من الاغتيال.

رأيت بأم عيني الطبري المؤرخ والمسعودي الجغرافي وابن جبير الرحالة والأشعري المتكلم والغزالي المتصوف والجاحظ الأديب والمتنبي الشاعر والجرجاني الناقد وأبا حنيفة المتفقه و

ينهضون لكي يردوا على سيوف المغول ولكنهم ـ هكذا خيل إلي ـ كانوا مهيضي الجناح غير قادرين على أن يحركوا شيئاً ..

وتلقيت الإشارة كما لو كانت سكيناً تغوص في لحمي.. واستوى عندي لحظتها الموت والحياة.. لم أعد أعبأ بما يمكن أن تفعله الثلة

المغولية بي.. لم يعد يهمني أن تذبحني أنا الآخر.. كل الذي كنت أفكر فيه.. كل التساؤلات التي كانت تتناوشني كالخناجر المسمومة تمركزت في شيء واحد.. معنى واحد، كان يعتصرني كقطعة من القماش: لماذا لم نتحصن إزاء الهجمة؟ لماذا لم ندافع عن مصائرنا؟ ولماذا سمحنا لصانعي الكلمة أن يذبحوا أمام أعيننا ونحن ساكتين مسلوبين؟

وللحظات تخيلت، والكتب تمزق أمامي، وتبعثر صحفها في الهواء، أن أرواح ياقوت وابن الأثير وابن الجوزي والغزالي تنظر إلي بعتاب وتود لو تقول لي شيئاً ما كنت قادراً أبداً على استيعابه أو التواصل معه.

وتساءلت دهشاً، كمن يستيقظ من حلم مترع بالإثارة، محمل بحزن العالم كله، ما الذي يشدني إلى المكان؟ ما الذي يرغمني على البقاء فيه لحظة واحدة، وهو يتعرى تماماً من كل ما كان يمنحه الدفء والألق، والوعد والمسرة؟ وتذكرت تقي الدين الجوسقي.. بقية جيل من الشيوخ الذين أومضوا في سماء المستنصرية ثم ما لبثوا أن أنطفأوا.. بعضهم رحل بعيداً.. بعضهم الآخر اغتاله السيف المغولي وهو يجول في سماء بغداد.. فئة ثالثة قتلها الحزن والقهر والعزلة التي لم تعتدها.. وها هو الجوسقي يعتصم في داره، وحيداً، متفرداً، شاهداً على بقايا عصر يوشك على الغياب.

عبرت سوق الريحانيين الموازي لدار الخلافة دون أن أنظر إليها.. مهجورة هي الأخرى بكل تأكيد.. خاوية من الناس والأصوات والأشياء.. يبدو أن المغول لم يكتفوا بقتل الناس والأفكار، ولكنهم اغتالوا الحياة نفسها.. وأن أزقة بغداد ودروبها وأسواقها تحولت شيئاً فشيئاً إلى مقابر وأنقاض.. كنت أحاول جاهداً أن أنفصل عن المكان والزمان، أن أعلو عليهما وأنا أقول إنه لو قدر لي أن التقي الجوسقي، فقد أجد عزاءي عنده لأنني أعرف أي نوع من الرجال هو.. ولست

أدري لماذا اخترق عبد العزيز ذاكرتي دونما استدعاء، كجملة اعتراضية تفرض نفسها عبر تدفق المعاني والكلمات.. ولماذا وجدتني مدفوعاً للمقارنة بينه وبين الصرصري الذي قتله المغول، وتقي الدين الجوسقي الذي يرغمونه الآن على العزلة والصمت.

وقلت مطمئناً نفسي: إنهم أعطوا أمانهم الأخير فلا يعقل أن يقتلوه هو الآخر، وعلى أية حال فإنني ذاهب إليه لكي أحذره ..

تقاذفتني الدروب الضيقة عند أطراف الرصافة الجنوبية.. كنت ألمح بين الحين والآخر بغدادياً هنا أو هناك فأستعيد اطمئناني المفقود.

أخيراً أصل، فأحمد الله على أن الدار التي يحميها جامع القصر قريباً من باب كلواذى كعهدي بها لم يمسسها سوء.. الباب الكبير ذو الضلفتين المزخرفتين على الطريقة المغربية التي يعشقها الجوسقي.. والجدار الخارجي الممتد ذات اليمين وذات الشمال تزينه القناديل الموزعة بعناية على مسافاته المتطاولة ..

أطرق الباب فلا يرد علي أحد.. لا بأس.. أقول في نفسي.. إنه التقليد السائد والضروري في أيام كهذه.. يفغمني عبق الريحان في حديقة الدار فأحس بارتياح عميق، وأقرع الباب كرة أخرى بعنف أشد، فيرد علي الصوت المتفرد الذي أعرف نبرته جيداً وأكاد أميزه من بين عشرات الأصوات:

- من؟

- إنني سليمان فافتح يا أبا المأمون ..

انتظر قليلاً وقد تسمر سمعي عند عتبة الباب، وأكاد أراه وهو يجتاز الإيوان مقترباً أكثر فأكثر.. يفتح الباب ويمد ذراعيه وأشعر أنه يفتح قلبه، فأحتضنه بما تبقى لي من قوة ..

أريد أن أقول له شيئاً فتحتبس الكلمات في حلقي، فيقول بصوت لا يخلو من اضطراب:

ـ لا بأس يا أبا الوليد.. والحمد لله على كل حال ..

أرمق بإعجاب سرواله البيتي الفضفاض وحزامه الأنيق وسترته ذات الألوان الهادئة.. أعاين قلنسوته الموضوعة بأحكام فوق كلوتة ناصعة البياض ..

يأخذني من يدي إلى صدر الإيوان.. أحس بالدفء والأمان.. وأخمن كيف أن المحبة الخالصة في الله.. في زمن القتل والغربة، يمكن أن تكون أثمن شيء في هذا الوجود، وأن بمقدورها أن تقول أشياء كثيرة جداً لا تقدر الكلمات على أن تفصح عنها.

تصل الإيوان بين الحين والحين رشقات من أصوات الأولاد، والنساء داخل البيت فأحمد الله في سري على أن بعض بيوت البغداديين لا تزال تنبض بالحياة ..

أحاول من جهتي أن أقطع حبل الصمت، رغم أن سياله المتدفق يعلو على كل حوار ..

ـ إنهم يطلبونك للعمل ثانية في المستنصرية ..

تساءل وهو يجرني للجلوس إلى جواره على تخت كبير مغطى بالسجاد الأنيق، ومحاط بالزرابي المنقوشة بعناية:

ـ كيف عرفت هذا؟

قلت وأنا أتكئ على الوسادة فأحس بأنني أرد الدين لعظام ظهري التي يتناوشها الألم بسبب التخبط الطويل في الدروب:

ـ صهري عبد العزيز ..

قال وكأنه يتذكر:

ـ عبد العزيز أل ..

ـ إنه هو ..

ـ واحد من ألمع طلبتي يا سليمان.. إنه يتدفق فطنة وذكاء ..

أردت أن ألج الموضوع من الثغرة نفسها التي فتحها الجوسقي فقلت:

ـ ولذا فإنهم يطلبونه الآن.. تماماً كما يطلبونك ..

ـ أين؟

ـ من غير المستنصرية وإدارتها الجديدة؟

ـ وهل استجاب لطلبهم؟

ـ أغلب الظن ..

نظر إلى الفضاء البعيد وقال فيما لم أكد أتبينه إلا بصعوبة بالغة:

ـ ولكن الحال غير الحال يا أبا الوليد ..

كنت أعرف ـ مثله تماماً ـ أن الحال غير الحال، وأن الاستجابة لطلبهم هو في نهاية الأمر نوع من منح الشرعية للسلطة المغتصبة التي تبحث اللحظة عمن يقول لها: نعم.. عمن يعطيها الأذن لكي تمد جذورها في الأرض.. وكنت أعرف ـ مثله تماماً ـ أن عملاً كهذا مرفوض شرعاً وأنه مما يغضب الله ورسوله.. ولكنني تعمدت أن استفزه قليلاً لكي يكشف عن المزيد من الأوراق، فقلت وأنا أحدق في وجهه كأنني أبحث عن الجواب:

ـ ولكن، رغم تغير الأحوال، فإن استئناف المستنصرية بالذات لنشاطها، ضرورة من الضرورات، والتدريس بالنسبة لشيخ مثلك فرض عين بعد أن اختفى معظم الشيوخ ..

قال وهو يطأطىء رأسه ويمّسد على لحيته، ربما حياءً من اطرائي، وربما اعتراضاً على وجهة نظري قد يتضمن قدراً من السخرية:

ـ كيف؟

ـ أن يعمل رجل مثلك في المستنصرية خير من أن يصول فيها ويجول أنصاف الشيوخ وأرباعهم ..

تساءل مرة أخرى، بالطريقة نفسها:

ـ كيف؟

ـ إن الفراغ ملح.. وقد يضطر المسؤولين إلى اعتماد مدرسين من الخط الثالث أو الرابع ..

- وماذا في ذلك؟
- سيكون الطلبة هم الضحية أولاً وأخيراً ..
- ولماذا يذهب الطلبة إلى المستنصرية يا أبا الوليد؟
- لكي يتلقوا العلم
- ألا يوجد مكان آخر.. أو طريقة أخرى لتلقيه؟
- ولكن المستنصرية ..
قاطعني بنبرة بدأت أحّس فيها لأول مرة شيئاً من الانفعال:
- في حالة كالتي تشهدها بغداد، وكل مدن الإسلام التي اكتسحها المغول، فان من الأفضل لمؤسسة كالمستنصرية أن تقفل أبوابها ..
أردت أن أتكلم فقاطعني مرة أخرى:
- إن إقفالها هو الوضع الطبيعي تماماً.. إنه بمثابة إدانة صريحة لممارساتهم إزاء العلم والعلماء ..
- ولكنهم مصرون على أن تعمل، وقد يلجأهم الرفض إلى اعتماد عناصر غير
كفوءة.. وسيكون الطلبة والعلم نفسه، ضحية للعجز والتهاون والرضا بأنصاف الحلول ..
- هذا أفضل.. لأنه - بدوره - يمثل إدانة ما لوضع استثنائي تريد فيه السلطة القاهرة أن تشغّل ماكنة العلم، بعد أن ذبحته وأوغلت في مداده المسفوح.. إن أي تعاون معهم لن يكون فقط بمثابة إعطائهم الشرعية التي هي العائق الأخير في طريق تمكنهم في الأرض وتسلطهم على العباد، ولكنه قد يعطيهم الفرصة لصنع جيل من الطلبة والعلماء تكون مهمتهم الأولى والأخيرة تبرير السلطان الكافر، وإزالة الجفوة بينه وبين الناس!
عبد العزيز يخترق ذاكرتي كرة أخرى فأحس بوخزة في مكان ما من جملتي العصبية، وأشعر أنني أتناءى عنه أكثر فأكثر وأتمنى لو يكون

معي الآن ليستمع إلى ما يقوله أحد شيوخه فلطالما ذكره بمحبة وإعجاب ..

وكأنه تذكر شيئاً فسألني:

- هل قلت بأن عبد العزيز هو صهرك؟

دهشت لتذكره إياه في اللحظة نفسها التي كان يحضر فيها قبالتي:

- إنك تدري كيف أن الظرف الآن لا يسمح باستكمال الإجراءات

وقاطعني بشيء من نفاد الصبر، متسائلاً كرة أخرى:

- وهل هو يعمل الآن معهم بالفعل؟

أجبته بنبرة من يدفع عن نفسه تهمة:

- أغلب الظن!

قال وهو يعود إلى التمسيد على لحيته التي اصطلح فيها على ما يبدو الأسود والأبيض، فلم يعد أحدهما يهدد الآخر بالاكتساح:

- ولكنه كان طالباً ذكياً، وكنت أتوقع له أن يكون امتداداً لشيوخه الذين أحبهم

وأحبوه ..

أجبته وأنا أكشف عن أوراقي فجأة، بعد إذ تلقيت منه كل ما كنت أود أن أعرفه:

- لم آل جهداً في تحذيره يا أبا المأمون ..

دهش الرجل لنبرتي الجديدة، ولعله ارتاح لها في سره، ونظر إلي وكأنه يريد المزيد من الإيضاح:

قلت له وأنا أشدد على مخارج الكلمات:

- كل ما قلتَه قبل لحظات، سبق وأن قلته له!

استمر على نظرته المتسائلة، فمنحته ما كان يبتغيه وأنا أحاول أن أرسم على وجهي ملامح ابتسامة ما:

- أردت فقط أن استفزك كعادتي معك دائماً من أجل أن استمع إليك وأنت تذهب إلى الحدود القصوى.. في الحالة التي نعيشها الآن..

حيث تذبح الكلمة بسيف المغول، فليس ثمة ما يمنعها من الفناء سوى التشبث أكثر فأكثر بموقفنا قبالة السلطة.. بانفصالنا عنها.. بالإبقاء على الخندق محفوراً، والجسور متقطعة، وبعدم إعطائها أية إشارة أو فرصة للالتحام بالناس وتضييعهم كرة أخرى.. ولقد سمعتك يا أبا المأمون تقول كل ما كان يعتمل في نفسي ..

سألني مرة أخرى وكأنه يريد أن يهرب من الإطراء الذي لا يرتاح له:

ـ وصهرك؟

أجبته وأنا أتذكر الهدف الذي جئت من أجله:

ـ دعنا من عبد العزيز.. يبدو أنه من النوع الذي يتجاوز عشقه للعلم كل الحواجز المبررة وغير المبررة.. وتلك لعبة خطرة.. إنها أشبه بالقفز في الفضاء، وهي قد تستدرجه للسقطة التي لا قيام له بعدها.

ـ لكنه كان ذكياً بما فيه الكفاية ..

ـ ربما يكون ذكاؤه الذي قد يبلغ حد الأنانية والهوس هو سبب محنته، من جهتي فإنني لم أقصر في محاولة إيقافه عن الاندفاع.. لكنه لم يستمع لكلماتي ..

ونهضت مودعاً وهو يلح علي أن نتناول الغداء معاً، وأنه أصبح جاهزاً الآن ..

أقنعته بعد لأي بأنني غير جائع على الإطلاق، وأن هذا ليس وقت غدائي، وغادرت داره مخترقاً كرة أخرى دروب الرصافة وأزقتها الجنوبية.. كنت أحس بالتوحد والاطمئنان، فكلمات الجوسقي قد منحتني المزيد من القناعة بوجهات نظري في دوامة الفتنة العمياء.. ولكنني ما لبثت أن تذكرت أنني نسيت ما جئت من أجله: تحذيره من غدر المغول.. إلاّ أنني أقنعت نفسي بأن عقلاً كبيراً كالجوسقي لابد أن يأخذ حذره على أية حال ..

«33»

الوليد

ذهبتَ إلى الجوسقي لتلقي الإشارة.. فقال: ابدأوا على بركة الله.. لففتَ على الشهباء دروب بغداد درباً درباً.. ذرعتَ مسافاتها المتباعدة ما بين باب السلطان وباب الطاق في أقصى الشمال، وبابي الظفرية والطلسم عند الحافات الشرقية، وكلواذى في الجنوب.. والشونيزي وباب البصرة في أقصى الغرب.. اخترقت شرايين الرحبة والبدرية والمقتدرية والجعفرية، ثم صعدت شمالاً صوب دروب العميد والملاحين.. عبرت الجسر الأعلى إلى قصر عيسى.. وانحدرت جنوباً صوب محلة باب البصرة وزمرد خاتون ..

الإخوان ينتشرون في كل مكان.. ما من حي أو درب إلا ولنا فيه نصير.. كانوا ينتظرون لحظة الفصل مشدودي الأعصاب، وها هي ذي قد جاءت.. كل ما كان يقوله الواحد منهم عبارة «على بركة الله». . لكأنها كانت كلمة السر بينهم جميعاً. ما كان أحدهم يطلب منك حتى أن يرتاح في بيته قليلاً فما أن يطلق العبارة إياها حتى يتركك تمضي في رحلتك ويدخل هو كي يحد الخنجر.. فغدا، على بعد ساعات فحسب، سيبدأ الحصاد.

قطب الدين الحداد كان ساعدك الأيمن.. لف معك طويلاً.. وأحياناً كنت تفترق عنه.. يذهب هو يميناً وتتجه أنت شمالاً.. كان يعرف أهدافه جيداً.. لقد انطبعت أماكن إخوانه في ذاكرته كما تنطبع ضربات

المطرقة على صفحة الحديد الساخن.. وها هو ذا يقول لك: لن أتركك وحدك.. دعني أعاونك قليلاً.. ولم يكن قليلاً هذا الذي فعله، ولولاه ما استطعت أن تغطي بغداد، مانحاً الإشارة لمئات المقاتلين قبل أن تغيب شمس اليوم التالي.

اختطفتَ ساعة من نوم في بيت زكريا بن الفضل.. صديق قديم من أيام المستنصرية.. فقط لتتمكن من مواصلة الطواف.. سألك وأنت تتهالك على أريكة فرشها في جانب الفناء: وماذا عن أصدقاء المدرسة يا أبا خالد؟! قلت وأنت تغالب إغراء النوم وخدره اللذيذ: أكثرهم معنا والحمد لله ..

عاد لكي يسألك: والآخرون؟ قلت: كما تعلم يا أبا يحيى فبعضهم قتل أيام الهول وهو يدفع البلاء.. بعضهم الآخر اختفى.. وفئة قليلة فقط عادت لكي تواصل دراستها في المستنصرية.. صرخ: الدراسة؟ قلت وأنت تتذكر عبد العزيز محاولاً أن تكون هادئاً

تماماً: ماذا في ذلك؟ إنه طموحهم على أية حال.. وسمعته يقول وأنت بين النوم واليقظة: عبث يا أبا خالد، فلن يكون بمقدور الكلمة أن تواصل طريقها وسيف المغول مصلت عليها.. إن علينا أن نحميها من القتل قبل أن نفكر في ممارسة طموحاتنا.. إنها هي نفسها ترفض أن تتشكل في الظلام.. أن تقول في العتمة شيئاً.. أليس كذلك؟

كانت تعليمات الأستاذ تقضي بالعمل ليلاً، فتحت غطائه يمكن أن تتناوش خناجرنا المغول.. كان حذراً تماماً.. لا يخطو خطوة إلا بعد أن يحسب لها ألف حساب.. وأحسست بارتياح عميق وأنت تقارن بينه وبين الصرصري.. ذاك ـ رحمه الله ـ كان فدائياً ولكنه ما كان يملك القدرة المتأنية على التدبير.. وهذا يحمل الاستعداد نفسه للشهادة، ولكن ليس قبل اعتصار الثمرة تماماً، وتركها قشوراً.. وكان يقول أيضاً بأن علينا أن نتفرق ما وسعنا الجهد، فالواحد خير من الاثنين، والاثنان

خير من الثلاثة.. صحيح أن العمل قد يقتضي تغطية كافية.. حماية من نوع ما تؤمن الظهر.. ولكن إذا كان بمقدور أحدكم ان ينقض على فريسته بدون ذلك فليفعل فإنه أكثر إعانة على السرعة في الإجهاز والاختفاء في اللحظة المناسبة.. حذرنا من تجمعات المغول الكبيرة.. وأن الانفراد بالواحد أو الاثنين أكثر

جدوى، وقال وهو يحدق بعينين نفاذتين كسواد الليل، بأنهم سيفتحون أعينهم كل صباح لكي يروا جثث قتلاهم ملقاة هنا وهناك على قارعة كل طريق.. ليس مهما في الأيام الأولى عدد الذين سيقتلون.. المهم هو أن نزرع الخوف في قلوبهم.. ألا ندعهم يحظون بلحظة أمان واحدة.. وأن يعرفوا بأن وجودهم في بغداد ليس أمراً مفروغاً منه.. فيما بعد ـ استطرد الأستاذ ـ يمكن أن يتسع نطاق العمل لكي يطال عدداً أكبر من الغزاة.. فيما بعد أيضاً، ويوم يصير حد الرعب الذي عرفوا كيف يستخدمونه أيام الهول، سلاحاً بأيديكم أنتم، حينذاك يمكن أن تمارسوا العمل في وضح النهار.. رعدة الخوف إذا عرفت كيف تتسرب إلى مفاصلهم، فإنها وحدها يمكن أن تعينكم على قتلهم في وضح النهار!

وقال الأستاذ، محذراً من التمادي في الاقتحام بإغراءات الفداء التي لا تقاوم.. بنداءات الثأر الدفين الذي ينتفض بين لحظة وأخرى كلما مرت في الخاطر ذكريات المجازر الكبرى: تلك نقطة الضعف التي يتحتم ألا تأسركم، فإن قدر الواحد منكم أن يتحرر من شدها، أن يمضي لأداء مهمته بأكبر قدر ممكن من السيطرة على النفس.. من إعمال العقل.. من صياغة الحدث المرتجى بدقة وإحكام.. أن يصير العمل الفدائي معادلة رياضية تنطوي على الرقم الصحيح، فذلك هو المطلوب.. وقال بأننا، على انتشار خلايانا في بغداد، من أقصاها إلى أقصاها، لا نعدو أن نكون مجرد بقع محدودة في مساحة كبيرة في المكان، يهيمن عليها السيف المغولي.. فمن أجل خلخلة البنيان، والقدرة على الاستمرار في الوقت نفسه، فإن علينا أن ندخر في الجهد

ما وسعتنا الحيلة، فإن كل واحد منا في نهاية الأمر وفي بدئه

أيضاً، يعدل ألفاً مما يعدون.. وقال بحزن يعرف كيف يشكمه في اللحظة المناسبة: لقد نزفنا بما فيه الكفاية.. وسأله زكريا: ماذا عن أولئك الذين يتعاونون معهم؟! سيجيء

دورهم، قال الأستاذ، ولكن ليس الآن!

الشهباء توغل بك في عمق الصحراء.. متشبثاً بالليل أكثر فأكثر، فهو يعرف كيف يمنحك الظل، ويقيك العطش الذي لا تطيقه.. وتلك كانت نقطة ضعفك مذ كنت طفلاً.. متشبثاً أيضاً بالشعرى وسهيل لكي يدلانك على الطريق فلا تضيع.. كان الحزن يعتصرك بين لحظة وأخرى.. يصفعك كما لو كان رشقة من رمل الصحراء الذي تعبث به الريح.. وكما كنت تتلفح بالكوفية، تحكمها على وجهك كي لا تنقره حبات الرمل الحادة كزجاج مطحون، كنت تلجأ للزاد الذي يعينك على مجابهة هذا الحزن كله.. فبمجرد أن يجد

الإنسان، وهو يبحر في مواجهة المستحيل، تبريراً من نوع ما لرحلته التي قد تبدو غير معقولة أحياناً، فإنه سرعان ما يحس بارتياح عميق.. فليس أصعب على المرء من أن يمارس جهداً لا يملك الاقتناع به.. أما الآن، وأنت تتذكر ما الذي فعله إخوانك بالمغول، فإن عينك تقر فتتلقى الزاد الذي يعينك على مواصلة المسير، حتى دون التفكير بالماء والزاد، وضربات الرمل المطحون كالبلور..

كانت تعليمات الأستاذ أن ننزل إلى دروب بغداد وأسواقها صبيحة كل يوم.. ننتشر فيها كما لو أن شيئاً لم يحدث.. ما كان يهمه ليس فقط أن نبعد الشبهات عن أنفسنا، وأن نضيّع الفرصة على السلطة وعيونها المنتشرة في كل مكان.. ما كان يهمه هو معاينة رد الفعل نفسه وتفحصه جيداً، وهو يتشكل ويتخذ القرار.. فعلى ضوء هذا بالذات يمكن أن نخطو الخطوة التالية وأن نهيء أنفسنا لحصاد يوم جديد.

كان الأستاذ محقاً تماماً.. في البدء لم نكن ندرك ما كان يرمي إليه.. كان هدفنا أن نقتل أكبر عدد منهم.. لكننا بمجرد أن أخذنا نتابع في الأيام التالية ردود الأفعال، عرفنا أنها تمنحنا ما كنا ننتظره.. أكثر بكثير من حاصل الرقم الذي يتمخض عنه حصاد كل يوم ..

وقال الأستاذ: ها هي ذي المؤشرات المبكرة.. ثمة شرخ غير متوقع يضرب أمن المغول فيصيبهم بالاضطراب.. غداً سيتحول هذا الاضطراب إلى قلق.. بعدها قد يصير حذراً وتوجساً.. بعدها يمكن أن يمطر عليهم الخوف فيفقدهم السكينة والرضا.. عندها سيكونون هم أنفسهم مهيأين تماماً لتلقي المنجل.. وستجدون بأنفسكم كيف أن تصفيتهم لن تكلفكم يومها عشر معشار ما تتطلبه منكم الآن ..

كان أهالي بغداد يفتحون أعينهم مع مساقط الشعاع الأولى لكي ما يلبثوا أن يسمعوا أنباء الحصاد.. ويروا بأعينهم جثث المغول ملقاة هنا وهناك.. وقال بعضهم: ها قد دارت عليهم دائرة السوء ولكن من الفاعل؟ آخرون تذكروا أيام الهول.. المقتلة التي حصدت عشرات الآلاف فقرت أعينهم وهم يدمدمون مع أنفسهم: يوما بيوم.. ولكن من الفاعل؟ .. الشحنة المغولي أصدر بياناً قرئ في أحياء بغداد وأسواقها، تهدد فيه وتوعد.. وختمه بالقول بأنها ضجة عابرة وسوف تمر، ولن يكون بمقدور أحد أن يمس جند هولاكو بسوء كائناً من كان ..

بمرور الأيام بدأ يتضح للشحنة اتساع نطاق المطاردة وازدياد عدد القتلى، وتراكم جثثهم في أحياء بغداد.. أصدر أمره بتشكيل مفارز حماية ودوريات ليلية أكثر فاعلية ونشاطاً وأقدر على الحركة.. وحذر المغول من التجول فرادى.. طلب منهم أن يتجمعوا قدر الإمكان.. أن ينفصلوا عن أهالي بغداد، وألا يسمحوا بأن يتسلل إليهم أحد أو يختلط بهم ..

جاء الرد بصيغة هجمات أكثر عنفاً وإحكاماً.. وشروخ الرعب

التي خلخلت الأمن المغولي، والتي تحدث عنها الأستاذ، بدأت تتسع فتنفتح الثغرات أكثر فأكثر لتوجيه ضربات أشد إيلاماً ..

استدعى الشحنة قوات إضافية ما لبث سيده هولاكو أن أرسلها من مراغة تحمل تعليمات مشددة بأن تضرب بعنف وأن تأخذ الجناة بلا رحمة.. فكان الرد أن امتدت أعمال المقاومة إلى وضح النهار ..

جن جنون السلطة، وراحت تتخبط، ولكنها - في نهاية الأمر - كانت عاجزة عن فعل أي شيء حاسم.. وقلت للأستاذ: ألم يأن الأوان لما وعدت به؟

أدرك ما كنت ترمي إليه فقال: ليس الآن.. فكل شيء بأوانه.. وعلى أية حال فليس هيناً أن نقتل أصحابنا بأيدينا!!

قلتَ له وأنت تسمح للانفعال أن يتسلل إليك على غير قصد منك: ولكنهم خانوا الله ورسوله!!

ربّتَ على كتفك: أعرف ذلك، ولكن القتال على جبهتين مجازفة لا تؤمن عواقبها ..

أردتَ أن تتكلم فأشار بيده: إن المغول على أية حال ينفصلون عنا، يظلون غرباء، ولن يكون بمقدورهم أن يخترقوا نسيج حياتنا.. لكن هؤلاء الذين تتحدث عنهم، شيء آخر تماماً، إنهم يعيشون معنا، يضطربون في مفردات وشعاب حياتنا اليومية، ومن ثم فإنهم أقدر من الغرباء على الكشف، وحينذاك قد يكون تعاونهم مع المغول أشد لعنة وإيلاماً.. وقال، وكأنه يؤذن بنهاية اللقاء: لن أسمح لهذا بأن يقع الآن على الأقل ..

تلقيتَ نبأ استشهاد زكريا البدري بهدوء.. منذ طفولتك وأنت تعرف تماماً كيف تمتص الصدمة في اللحظات وربما في الأيام الأولى، يعينك فاصل الألم الذي عرفت كيف تطوعه بمرور الوقت.. ولكن بعدها، وعلى حين غفلة، ينصب عليك الحزن كالشلال فتنوء به.. يتفجر

في أعماقك كألف عين تنبجس بالعذاب في لحظة واحدة.. وزكريا صديقك وأنت تعرفه جيداً.. تعرف كل مفردات حياته.. وتعرف كل ما يمكن أن يضحكه أو يبكيه.. ولذا فإن حزنك عليه كان شديداً ..

ولمحك الأستاذ فقال وأنت تحّس أن غور عينيه قادر على أن يخبئ أحزان الدنيا: آمل الا تهزك التجربة، فهو ليس أول من يستشهد!

قلتَ مختبئاً خلف ستار الحزن والحياء: ولكنه صديقي!

ـ كلهم أصدقاؤك وأخوتك.. وهو ليس أول من يستشهد ..

أردت أن تقول شيئاً.. أن تخفف بحضرته بعض عذابك لكنك استحييت.. بلعت ريقك بصعوبة وتذكرت.. إنك مع كل الإخوان والأنصار تعلمهم كيف يكون الصبر.. كيف، في لحظات زمنية فاصلة كهذه، يتحتم أن تنفصل عن كل ما يضطرب في الوجدان.. عن كل ما يخفق به الفؤاد.. تقطع إذا اقتضى الأمر، كل الجذور التي تشدك إلى هناك، فتتحرر، في نهاية الأمر، من الخوف والحزن والألم، وتكتسب من الصخر ليس صلابته فحسب، بل ـ وهذا هو المهم ـ تأبّيه الأصم على التجاوب مع أي انفعال ..

ولكنك عندما تقف قبالة الأستاذ تكاد تصير طفلاً.. لا تدري لماذا يذكرك بأبيك، ولماذا تتفجر، عبر لحظة واحدة، كل النداءات المكبوتة في طبقة ما بعيدة في الأغوار.. ولماذا تعود الجذور المقطوعة التي تيبست في نهاية الأمر لكي تنبض بالحياة مرة أخرى.. وطالما تمنيت لو تبكي بين يديه.. لو تدفن رأسك في حضنه، وتحس للحظات وأنت تحتمي به انك تتخفف من عذابك الذي ينوء به الفؤاد.. الشيء نفسه حدث يوم قتل الحداد.. ستكون كاذباً لو قلت أنك قدرت على التحصن بالصبر.. هذه المرة كنت تحس بأنك لا تستطيع أن تقف على قدميك وأنك تترنح، وقد تسقط بعد لحظات.. عندها فتح لك الأستاذ ذراعيه.. ضمك بحنان وراح يربت على ظهرك.. وأنت تبكي بصمت أحسست أن

أباك والجوسقي يتوحدان.. وأن الصرصري وزكريا والحداد يجيئون لكي يتوحدوا معهم، وأنك تتلقى ما يكفي من العزاء.. وأن الفارق بين الموت والحياة.. هذا الجدار الأصم، الغليظ، ليس كما تتصور، وأن اللقاء ليس مستحيلاً.. فقلت، وأنت تسترجع القدرة على الاعتصام بالصبر كرة أخرى: إنا لله وإنا إليه راجعون ..

دفقات الشعاع الأولى تكشف الصحراء قبالتك.. بحر من الرمل المتلامع تحت لمسات الشمس الوانية لا بدء له ولا انتهاء.. وتساءلت، فرحاً بالنهار، خائفاً من الامتداد اللا نهائي للرمل الذي حجبته الظلمة، ولكن ها هو ذا الضوء يكشفه أمامك: ترى هل سيقدر لك الوصول؟ وتسمع الشهباء تصهل، مرتين وثلاثاً، فرحة بطلوع النهار.. جرس عذب يخترق صمت الصحراء المطبق في اللحظة المناسبة، فيمنحك شيئاً من الإلفة.. من الإحساس أكثر فأكثر بأنك لست وحيداً

وقال الجوسقي: زكريا.. والحداد.. وكل الذين استشهدوا، يمكن أن يمنحونا قدرة أكبر على العطاء ..

وأقسمتَ، دون أن تجروء على رفع صوتك بحضوره: إن رأس الشحنة نفسه سيكون ثمن استشهادهما ..

ليس هكذا.. قال الأستاذ وقد التقط كلماتك ..

تذكرتَ تحذيره من الاندفاع وراء نداء الثأر فأطرقت كالمعتذر، وقال هو:

ـ المهم أن السلطة نفسها عجزت عن التعرف عليهما فليس بمقدورها أن تمسك بأي خيط ..

ـ الحمد لله ..

ـ الإخوان سيواصلون العمل كأن شيئاً لم يحدث

ـ إن شاء الله ..

نهض قائماً فنهضت، وقال وهو يودعك:

ـ لا تسمح للحزن بأن يتسلل إليك ..

وكأنه تذكر شيئاً فأردف:

ـ أريدك ألا تجيئني بعد اليوم!

خمنت أن في الأمر مبرراً ما يرغمه على هذا.. إنه يحسب جيداً.. ولذا فإنك كففت عن مناقشته منذ لحظات تعرفك عليه ..

وقال، وكأنه يجيب عما كان يحيك في نفسك:

ـ قد يكون بيتي مراقباً.. إنني لا أخشى السلطة نفسها قدر خشيتي من المتعاونين

معها.. إنهم أقدر على اختراق المجهول، وقد يسببون لنا المتاعب.. ومن يدري، فلعل ضربة عمياء تنكث الغزل كله!

تذكرتَ عبد العزيز.. تذكرت أيضاً كيف أنك أقنعته أخيراً بأن زيارتك للجوسقي لن تكون بأكثر من محاولة لتلقي الدروس.. أتراه اقتنع بما قلته له؟ والآن وهو يرى بأم عينيه ما تشهده بغداد، ويتلقى في الوقت نفسه كلمة الرفض من أبي دون أن يقتنع بها على

الإطلاق، متشبثاً بحنان أكثر فأكثر.. الآن وهو يندفع فيما يتصوره صعوداً إلى فوق تحت مظلة السلطة وباغراء المغول أنفسهم.. أترى ذلك كله لا يتطلب ثمناً ما؟ وتساءلت مع نفسك وأنت تتلقى رشقة من الكآبة: ترى ما هو الثمن؟ تذكرت ـ أيضاً ـ أن ما يعرفه عنك ليس بالقليل، وأنه كان يلمس بيده أحياناً، زمن المجازر الكبرى شيئاً مما كنت تفعله مع إخوانك في مواجهة الطوفان ..

وسمعت الأستاذ يقول وكأنه ينتشلك من البئر التي كنت تغوص فيها أكثر فأكثر:

ـ ستكون اللقاءات في الأماكن العامة ..

لمح دهشتك فأردف:

ـ شدة الظهور تؤدي إلى الخفاء، كما يقول المثل المعروف، وقد يمنحنا هذا غطاءً أشد إحكاماً ..

في الأيام التالية كنت تلتقيه في الأماكن التي كان يحددها: باب

الطلسم، المدرسة الشرابية، جامع السهروردي، سوق الكتب، مشرعة القطانين، مسجد الحظائر، ورباط شيخ الشيوخ ..

وقال لك يوماً وهو يبتسم: سيكون لقاؤنا التالي في مكتبة المستنصرية نفسها!

صرخت على غير إرادة منك:

ـ المستنصرية

ـ وماذا في ذلك؟ شيخ وتلميذه يبحثان عن كتاب ضائع، ثم أنها أكثر الأماكن ظهوراً ولعلها ـ لذلك ـ أكثرها خفاءً!!

«34»

حنان

عتابكِ ليس لعبد العزيز.. عتابك للزمن المغولي الذي يحصد المحبة وينكث خيوط التواصل والإلفة بين الخطيب والمخطوب.. لولاهم كان يمكن لعبد العزيز أن يكون غيره الآن.. زمن المغول ينمي ويضخم أنماطاً من الناس على غير إرادة منهم.. وأنتَ واحد من هؤلاء الناس.. ضحية وضع هو فوق طاقتك.. وضع خارج عن حدود الاحتمال، أفلا تستحق الغفران؟

تضعين رأسك على الوسادة في يوم ليس كالأيام.. تجتاحك الوحدة.. إحساس مر يندغم فيه الحزن، بالأسى، بالإشفاق.. أبوك لن يظل لك.. وأمك لن تظل هي الأخرى.. ها هما الآن يشيخان أمام عينيك.. المدى الزمني المحدود بين قصف الصوت المغولي أول مرة وبين ضربات نعالهم في دروب بغداد لم يكن طويلاً لدى الحاسبين.. مجرد أيام لا تتجاوز بضعة أسابيع.. لكنه لم يكن كالأزمان.. يبدو أن دهور الكراهية كلها في هذا العالم تتمركز اللحظة في الأيام العشرين.. تنز دماً، ووحشية، وحقداً ..

أخوك الوليد لن يظل لك هو الآخر.. منذ أن جاءوا وهو غائب عن البيت أكثر

الأوقات.. ينتهز فرصاً مستحيلة لكي يجيء في زيارة عابرة لا تطول.. سيذهب هو الآخر إن لم يكن اليوم فغدا ..

عبد العزيز كان واحة الأمان.. الوعد بالحماية من ألف خوف مجهول.. من ملايين اللحظات التي يمكن لأية منها أن تنبجس على حين غفلة عن صوت يدمر الأعصاب، أو سيف ينز دماً ..

في زمن المغول يتحتم على الإنسان أن يلوذ بالآخرين.. ألا يظل وحيداً.. وها أنت ذي تتشبثين بعبد العزيز لهذا السبب بالذات، لأنك تعرفين تماماً أن الوحدة مرة المذاق، وأنها تكاد تكون مستحيلة.. وتتذكرين، متوسلة بالنوم أن يغيبك لحظات عن العذاب، أن تشبثك هذا لم يعد له من معنى.. لقد تقطعت كل الخيوط.. لم يبق ثمة واحد منها.. واحد فقط يمكن أن تشدي عليه لكي تستعيدي عبد العزيز.

أبوك يناديك فتهرعين إليه.. لو نادى هذا الشيخ الذي تصهر نظراته الحجارة للبت الحجارة النداء.. فكيف بك يا حنان؟

ـ ها أنا ذا يا أبتاه ..

كنت تعرفين تماماً ما الذي يريد أن يقوله.. بينه وبين الآخرين شفرات.. تتجاوز حدود الأحرف التي تصنع الكلمات. تفككها.. تعيد صياغتها.. تعطيها طولاً وعرضاً وعمقاً.. تمنحها طعماً هذه المرة.. تنفث فيها رائحة ما، فما يلبث الآخرون أن يشموها ويتذوقوها ويلمسوها بأيديهم.. عندما ناداك أبوك، قدرت بيسر أن تمسكي بكلماته.. فدق قلبك بعنف.. إنه سيحكي عن عبد العزيز بكل تأكيد.. ولكن هذه المرة لن تكون كالمرات!!

عندما خرجتِ إلى الفناء وجدته هناك.. يشتهي دائماً أن يجلس متكئاً عند جداره الشمالي.. لا يفصل بينهما هذه المرة شيء، كأنه يريد أن يلتصق أكثر فأكثر بحجارة بغداد وجبسها العتيق.. كأنه يريد أن يهمس في وجيبها الذي يضطرب: قولي!!

ـ ها أنا ذا يا أبتاه ..

لكأنه فوجئ بك وأنت تقفين قبالته منكسة الرأس، فاعتدل في

جلسته قليلاً وكان مسترخياً.. نظر فيك طويلاً دون أن يتكلم.. كانت عيناه العميقتان كبحر لا قرار له، تجوسان في أغوارك، تبحثان عن نقطة ارتكاز ما لكي تبدأ منها الرحلة الصعبة.. لكي يقول ما يوقر ظهره منذ زمن ليس بمقدورك أن تحددي بداياته الأولى.. ولكي يتخفف من

العذاب.. وكنت على استعداد لتضحي بكل شيء من أجل أن تخففي عنه العذاب.. على استعداد لأن تنفصلي - بكل ما تبقى لك من قوة - عن الشوق المتبقي الذي يمنح المذاق للحياة.. أن تقطعي، دونما أي تردد، آخر خيط في نسيج الأشواق التي تيبست كما لو أن لفح الحرائق التي لا تزال تنفث الدخان في أحياء بغداد، قد مسها هي الأخرى ..

انتظرتِ طويلاً، فلم يقل الشيخ شيئاً.. ليس يسيراً أن يقول الأب لابنته كفي عن

الشوق! ليس يسيراً أن يعطيها السكين ويطلب منها أن تقطع الحبل الذي يمسك المحبوب بطرفه الآخر ..

- إنه لم يعد يمسك به يا حنان!

كانت تلك أولى كلماته.. صوته يرتجف قليلاً.. أردت أن تقولي شيئاً ما لكنك تذكرت ما كان يحدث دائماً.. أن ننصت إليه تماماً ريثما يأذن لنا بالكلام.. إنه في الدقائق الأولى يريد أن يتفرد تماماً، أن لا يقطع عليه أحد توحده مع ما يريد أن يقوله.. لأنه لا يقول بقدر ما هو يسعى لأن يجعل الكلمات تصير شيئاً مرئياً ..

وقال أبي:

- وحدك تمسكين به.. بينما طرفه الآخر يتأرجح سائباً في المجهول:

تظلين على صمتك، ويمضي هو، مستعيداً هدوءه:

- في حالة كهذه فإنه ليس ثمة ما يشدك إليه ..

تجيء أمك من غرفة نومها فيشير إليها أن تجلس.. يقول لها في محاولة منه الا تقطع عليه كلماته:

ـ ما كنا نتحدث عنه في الظهيرة، فالانتظار لم يعد يفيدنا بشيء ..

تمضين خطوات باتجاه أمك كي تجلسي إلى جوارها.. حضن الأم قد يمنحك الأمن والعزاء ..

ويقول أبوك:

ـ الوليد حذرني منه أكثر من مرة فلم أكترث له.. كنت تقفين قبالتي كلما حدثني عنه، فلا أكترث له.. كنت أقول له في كل مرة: وأختك يا وليد؟ فيقول وكأن القهر المغولي الذي جعل عبد العزيز يقول لهم بأعلى صوته: نعم، جعل قبالته تماماً كائناً كأخيك يقول بأعلى صوته: كلا.. وكان يقول لي أيضاً أن بغداد أغلى من عبد العزيز ..

ـ وأختك؟

ـ إذا تقاطعت أشواق أختي مع نبض بغداد الذي يبحث عن خلاصه من خفق النعال المغولية، فإن علينا أن نقول لها: كفي، فليس ثمة سوى صوت واحد يتحتم أن ننصت

إليه ..

يصمت أبوك فيطيل الصمت.. وتعرفين أنه الآن فقط، يمنحك الفرصة لكي تقولي ما تشائين ..

ترتبكين قليلاً.. تنظرين إلى أمك بتوسل كأنك تريدين أن تتحدث بدلاً عنك فتغنيك عناء الكلام.. تتذكرين أنه فيما مضى كان الحديث مع أبيك شيئاً عذباً.. وعلى قلة ما كنت تتحدثين معه فإنه كان يمنحك الكثير.. كلماته ليست كالكلمات.. تحمل الواحدة منها ما لا تقوله الأسفار.. يكسر عجزها دائماً.. يتجاوز بها أسر المحدود.. التخبط في الطول والعرض، والنزول إلى غور الروح وخفايا الوجدان، أو الانطلاق إلى السماوات.. ولكن الآن!

تريد أمك أن تقول شيئاً فيرد أبوك:

ـ صوتك الذي أريد أن أسمعه يا حنان

يضعك الآن على الخط الفاصل بين الأزمان.. على تخوم التحولات التي تغير مجرى الحياة وتعيد تشكيل المصائر.. وكنت تتعذبين.. ولم تجدي غير شيء واحد يمكن أن يحسم الأمر كله، فليس ثمة معه أو قبله أو بعده شيء آخر على الإطلاق، وهو وحده قدير على أن يخلصك من العذاب:

ـ ما تقوله يا أبتاه!

ينظر إليك بدهشة.. تتحول الدهشة إلى حيرة.. تصير الحيرة بحيرة من الحزن العميق يغمر وجهه ..

ـ ليس من أجلي.. قولي يا ابنتي.. قولي.. ولكن ليس من أجلي ..

يتناوشك الارتباك مرة أخرى.. الآن يضعك تماماً إزاء اختيارك أنت.. يسحب من بين يديك كل ما يمكن أن يتكيء عليه الإنسان في هذا العالم، أو يسند ظهره إليه.. حتى أمك.. وضع بنظراته النافذة بينك وبينها سداً.. وها هو ذا يعيد الخطاب:

ـ قولي ..

للحظات تتذكرين الوليد.. يبرز أمامك تماماً.. بوضوح لا يكاد يخفي أية قسمة من قسماته.. وقبالته تماماً كان يتشكل عبد العزيز وسط دوامة من الضباب فلا تكادين تتبيّنينه تماماً.. لماذا؟ لا تدرين.. أحدهما قبالة الآخر.. لكأن خندقاً لا قرار له يفصل بينهما.. كلاهما يناديك وأنت تلزمين الصمت لا تردين على أحد منهما ..

تدعكين عينيك في محاولة للفكاك من أسر ما تتصورينه حلماً.. أو إعياءً ذهنياً.. وتسمعين أباك يناديك هو الآخر:

ـ قولي يا حنان.. ولكن ليس من أجلي ..

تلمين كل أطراف شجاعتك التي بدأت تتآكل في الأيام الأخيرة وتسألين أباك:

ـ الدين النصيحة.. يا أبتاه.. فلماذا لا نحاول.. لعله يرجع؟!

- يرجع؟
- مجرد محاولة قد تخطيء وقد تصيب ..
- إلى أي شيء يرجع يا حنان؟
- إلى الصواب.. فليس ذلك بالمستحيل ..
ترينه يضحك لأول مرة منذ زمن بعيد، فتلوذين بالصمت، فيقول:
- إن ما يفعله هو الصواب بعينه!
لأول مرة لا تفهمين ما يقول، ويواصل هو:
- إنه مقتنع حتى أعمق نقطة في عقله وروحه أن ما يفعله هو الصواب.. وأنه يمارس طموحه المشروع.. قد تقولين ثانية لماذا لا نحاول.. لقد حاولت يا ابنتي وحاول أخوك.. مراراً قلت له ما كان شيوخنا يرددونه: «علم يدل علي هو السبيل إلي.. علم لا يدل علي هو الحجاب الفاتن». وانني أخشى عليك الفتنة يا عبد العزيز.. مراراً أعدت على مسامعه ما كان الشيوخ يتناقلونه وهم يبدأون رحلة العرفان الصعبة يملؤهم الخوف من أن تنزلق بهم بعيداً عن الله: «أوقفني في العهد وقال: أترك علمك إلى علمي، وألق معرفتك إلى

معرفتي، وقف بي!.. إذا وقفت بي تعرض لك كل شيء لإغرائك وجذبك وحجبك، فإذا كنت عندي فأنا معك، ومن تعرض لك فقد تعرض لي!!». . لم أصل معه إلى شيء.. ويوماً بعد يوم كان عبد العزيز يتكشف أكثر فأكثر.. والآن فإنه ليس ثمة قوة في الأرض يمكن أن تصده عن المضي إلى هدفه.. إنه كقطعة هائلة من صخور الجبال، انفكت بفعل زلزال مدمّر أو ريح عاتية.. وهي الآن تتدحرج فلا يوقفها شيء.. ومن يحاول أن يفعل فإنها قد تسحقه وتمضي.. إنه يتصور أنه يصعد أكثر فأكثر باتجاه الهدف، أو الحد الأخير الذي يحلم به، لكنه ما أن يصل حتى تناديه أهداف أخرى فيواصل الرحيل، منسلخاً بقوة النداء نفسه.. بشد الاندفاع الأعمى الذي يجعل الصخرة الكبيرة تندفع بسرعة متزايدة إلى القرار.. عن كل ما يربطه بالآخرين.. عن كل ضوابط العقيدة نفسها

التي تلقّى دروسها في المستنصرية، والتي يحاول المغول الآن أن يضيقوا عليها الخناق.. عن بغداد التي يراها قدامه تماماً تتعذب وتنز دماً ..

تهزك كلماته فتشعرين، لا تدرين لماذا، بارتياح عميق.. لعله قدر أخيراً على أن يمنحك الرؤية نفسها.. الرؤية التي هي فوق الهواجس والظنون والأوهام، والتي هي أيضاً خارج دائرة الأحلام الموقوتة والرغبات العابرة.. الرؤية التي تتوحد فيها العقيدة المحاصرة والناس الذين يطاردهم المغول وبغداد التي تسح دماً.. الرؤية التي يصير فيها الأب والأخ شيئاً واحداً.. ويصير عبد العزيز قبالة هذا كله صوتاً خارجاً عن المألوف.. محاولة للتجذيف في الاتجاه المضاد.. سيفاً مغولياً ـ ربما ـ يتطوح ذات اليمين وذات الشمال لكي يحصد كل من يصده عن المضي في الطريق.

تقولين لأبيك كأنك تزيحين عنك ثقلاً كان يضغط عليك فيما هو فوق طاقتك بكثير:

ـ سأقول يا أبتاه.. ليس من أجلك فقط، ولكن من أجلي أيضاً!

ينهض أبوك بخفة فتنهضين.. تشعرين وأنتّ تعاينين انطلاق بشاشته الضائعة من

الأسر، أنه يتخفف هو الآخر من ثقل كان يضغط عليه، فيغمرك فرح يصعب وصفه، وتقولين، وأبوك يربت على كتفيك بحنان:

ـ لقد حرّرتني يا أبتاه!

«35»

عبد العزيز

ذهبتَ إلى المستنصرية محمولاً على أجنحة الشوق.. ها هي ذي حياة العقل تخفق كرة أخرى.. الأساتذة القدماء لم يرجع أحد منهم.. اتصلت بمن تبقىَ منهم في بغداد، بادئاً محاولتك بالجوسقي.. كان أكثرهم تألقاً.. لو أنه قال: نعم، لهرعت إلى المدرسة صارخاً: انهضي فقد جاءك الأستاذ.. لكنه كان أشدهم رفضاً.. أكثر من مرة جرحك بكلماته الحادة كالسكين.. كنت تتلقى النصل وهو ينغرز في لحمك بصمت.. كنت تصبر عليه وتقول: لعله يرجع في المرة الأخرى.. لم يعطك أبداً كلمة واحدة مما كنت تريد، فكظمت غيظك.. تحولت عنه تبحث عن آخرين.. لا بأس، قلت في نفسك، فليس هو كل شيء.. وتذكرت وسط نوبة حماس مفاجئة، أن بمقدورك أن تغطي عدداً من المواد، وبالتالي فليس ثمة حاجة لمدرسيها.. أساتذتك الكبار شهدوا لك بهذا مراراً.. وها قد حان موعد الحصاد.. ولسوف يعلم الطوسي من يكون ابن المستنصرية البار.. مع ذلك كان لابد من مواصلة البحث.. لقد كلفت بالمهمة وعليك أن تكون عند حسن الظن.. اخترقت الأحياء القريبة والبعيدة.. وتخبطت في دروب الكرخ والرصافة.. وطرقت الأبواب.. فلم تعثر على أي منهم.. قيل لك عن أحدهم بأنه رحل إلى الشام.. وعن آخر بأنه يختبئ في مكان مجهول.. وأن أكثرهم قتل.. لم تصدق دائماً ما كان يقال.. إنها المبالغات التي تضخم الأمور بأكثر مما يجب.. لكنهم على أية حال غير موجودين، فأين ذهبوا؟

لم تيأس وواصلت البحث.. قلت في نفسك: ليكن، فثمة الخط الثاني من المدرسين، وهم على استعداد بالتأكيد لتلبية النداء، ولسوف يتعلمون من ممارستهم في المستنصرية كيف يصعدون إلى القمم التي غادرها الشيوخ.. ألم يبدأ هؤلاء أنفسهم الصعود عبر درجات السلم الأولى؟ من من الأساتذة تبوأ مقعده بين النجوم قبل أن يجوس في الأرض طويلاً ويتمرن على الصعود؟

هذه المرة لم تكن المهمة مستحيلة.. لقد قدرت في نهاية الأمر أن تحظى بالعدد المطلوب.. بعضهم كان يعرب عن موافقته قبل أن تفتح فمك.. بعضهم الآخر يتريث قليلاً ثم ما يلبث أن يقول: نعم.. فئة ثالثة كانت تتردد، ولكن لم يعيك ترددها، بمجرد أن تترك أحدهم قائلاً له: سأعود إليك فيما بعد.. وتلمحه ينظر إليك كأنه يقول لك: إنني بالانتظار.. كنت ترى بعضهم يدفع في طبقة ما من نفسه شيئاً مجهولاً.. يكافح من أجل التحرر من الشد الذي يبعده عنك بين لحظة وأخرى.. لم تكن تقتنع أبداً بمبررات صراع معذب كهذا.. وعلى أية حال فإنك ما لبثت، في اللقاء التالي، أن تلقيت الجواب بالإيجاب.. ودائماً كان الجوسقي يخترقك كنصل حاد يغوص في اللحم، ولكنك تقول: ليس ثمة من حاجة إليه فلا بأس ..

الطلبة بدورهم جاءوا، كما توقّعتَ تماماً.. لم يكونوا الطلبة القدماء من زملائك.. اللهم إلا قلة منهم.. وللحظات كنت تتمنى أن يمر الوليد ـ ولو عرضاً ـ أن يجتاز الجوسقي الدروب القريبة من المدرسة لكي تقول لهما: ها هي تستأنف عملها.. المدرسون.. الموظفون.. المستخدمون والطلبة.. جاءوا لكي يعينوها على النهوض، وأنه ليس من المحتوم أن يحضر الجوسقي فيها أستاذاً، والوليد طالباً لكي تعمل ..

كتب الشكر والتقدير أخذت تنهال عليك من الناظر.. من شحنة بغداد.. ومن نصير الدين نفسه ..

الأخير قال بأنك بذلت جهداً استثنائياً لتنفيذ المهمة، وأنك تحركت في أكثر من اتجاه بتفانٍ منقطع النظير، وقدرت في نهاية الأمر على تغطية ثغرات الهيئة التدريسية، وتحفيز الطلبة للعودة.. أما جهدك التدريسي فهو نموذج جيد سيتعلم منه الآخرون.. وقال في نهاية خطابه ان هذا كله لن يكون بغير جزاء ..

لم تدرك على وجه التحديد ما الذي كان يعنيه.. ولكن في لحظة ما وأنت تصارع الأرق لكي تحظى بقسط من النوم، تكشف لك ما لم يخطر لك ببال.. تكشف بأكثر مما يجب بحيث أنك كنت تلمحه يغادر حالته المهوشة ويتشكل بخطوط واضحة محددة وكأنه أمر واقع لا ريب فيه. وقلت في نفسك وأنت تحاول أن تعتدل قليلاً: إن نصير الدين يعني ما يقول.. أتراه يعد حقاً بالمكافأة التي لا مكافأة بعدها، فيجعلك ناظراً للمدرسة؟!

وتذكرت الناظر نفسه.. إنه يملك شخصية قوية، ويملك معها قدرات إدارية جيدة، لكن إلمامه العلمي لا يكاد يكون شيئاً.. فأين عصر النظار الكبار؟ أين أولئك الذين كانوا يفرضون حضوراً مدهشاً بالعلم والقدرة الإدارية وقوة الشخصية معاً؟ وتساءلت فيما إذا كان نصير الدين الطوسي يسعى إلى أن يضع في قمة المدرسة واحداً من هؤلاء!!

تكتسحك موجة من عدم الرضا وأنت تتذكر الجوسقي، وسليمان، والوليد.. لست تدري لماذا.. يخترقون غبطتك في لحظات العنفوان فيسكبون عليها الماء البارد فينطفئ الجمر، ويخبو ألق الوجدان ..

وشيئاً فشيئاً كان الإحساس بعدم الرضا ينسلت بعيداً عن موقعه لكي يتشكل في طبقة ما تصعب السيطرة عليها.. فيتلبس بالكراهية، والحقد، والبغضاء.. وربما بالخوف من المجهول.. وبأن ثمة من يتآمر عليك.. من يقف في طريقك.. من يسعى إلى تدميرك ..

وكلما أوغلت صعوداً إلى القمة التي كافحت طويلاً وأنت تتسلق منحنياتها الصعبة وتتشبث بحافاتها الحادة كالسكين.. وجدت نفسك أكثر فأكثر قبالة هؤلاء.. ورغم أنك في الواقع أخذت تتهرب من الالتقاء بهم ولو عرضاً، متذرعاً بهذا السبب أو ذاك، إلا أن

هناك، فيما وراء الواقع حضوراً هو أكثر كثافة وثقلاً وإيلاماً.. ولشد ما كان يعذبك ويدفعك أكثر فأكثر إلى حافات الكراهية والحقد والخوف ..

حالة عابرة على أية حال.. تقول في نفسك.. ولسوف تستأنف الصعود رغم كل

شيء.. ولسوف يجدون أنفسهم يوماً قبالة الأمر الواقع تماماً.. فيكفون عن ملاحقتك!

تهرع إلى الخزانة الخشبية القريبة من منامك.. تخرج اللفائف التي تنطوي على رسائل الناظر والشحنة ونصير الدين.. تجتازها على عجل، وتقف طويلاً عند الأسطر الأخيرة لكتاب الطوسي.. إنها وعد من نوع فريد، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تصدك عن المضي لتلقي الوعد، وارتشاف الفرحة حتى الثمالة!!

حنان تخترقك هي الأخرى، ولكن على طريقتها الخاصة.. نداء من بعيد ينطوي على اللوم والعتاب.. بالتأكيد.. لكنه يشف محبة ووجدا.. إنك تعرفها جيداً.. تتمنى لو تسوى التضاريس التي لم تصنعها يداك لكي تراك وتراها.. ولكي تهرع إليها وتهرع إليك.. ولكن كيف السبيل؟ هذا النداء الذي يمنحك، بعذوبته وحنانه، التوازن المفقود.. فترجع ثانية لكي تقنع نفسك بأنه ليس ثمة مبرر على الإطلاق للتوجس من سليمان والوليد.. إنهما قبل كل شيء وبعد كل شيء الأب والأخ ولسوف تعرف كيف تجعل النداء نفسه يعيدهما إليك كرة أخرى ..

يوماً، وأنت تجتاز حي الرحبة، لمحت الوليد يطرق الباب على

الجوسقي.. رأيته يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كأنه يريد أن يطمئن إلى أن أحداً لا يراه.. وهو يطرق الباب تعمدت أن يراك وأنت تهتف باسمه متظاهراً باللهفة.. فأجفل قليلاً.. ثم جرك من يدك بعيداً عن البيت إلى مدخل جامع القصر، وسألك وهو يشد على يديك:

ـ كيف حالك يا عبد العزيز؟

قلت محاولاً أن تتشبث باللغة نفسها:

ـ بخير والحمد لله ..

ـ والمستنصرية؟

ها هو ذا يعود إلى طريقته الاستفزازية التي اعتادها في الفترة الأخيرة فلا بأس ..

ـ انها تستأنف عملها كرة أخرى!

ـ هكذا؟

وجدتها فرصة مناسبة للرد:

ـ كثيرون توهموا أنها لن ترجع أبداً ..

سألك وهو يحاول أن يكون بارداً تماماً:

ـ والأساتذة؟ والطلبة؟

ـ اكتملوا والحمد لله!

لمحته يريد أن يقول شيئاً.. ولكنه يصمت في اللحظة الأخيرة.. تأخذ المبادرة وتسأله:

ـ يبدو أنك تريد أن تتلقى العلم على طريقتك الخاصة؟!

نظر إليك بإمعان كأنه يريد أن يخترق كلماتك:

ـ كيف؟

قلت، محاولاً أن تتشبث بالبرود واللا أبالية مثله تماماً:

ـ دروس خصوصية!

ـ خصوصية؟

ـ بالتأكيد

قال وقد بدء يتوتر قليلاً :

ـ كيف؟

ـ عند أستاذك

لمحته يطرق قليلاً ، ثم يرفع إليك وجهه ويضع كفه على كتفك ويقول وهو يبتسم :

ـ أيها التلميذ الذكي إنك رغم كل شيء لا تزال تملك حاستك العجيبة إزاء كل ما يتعلق برغبات العقل وتوق الإنسان للمعرفة ..

ارتحت لنبرته الودية.. أحسست للحظات أنها تغسل الجفاء المر الذي غمر نفسك، وأنها ترطب حلقك الذي كاد يتيبس ..

ـ إنه عقل مدهش فهنيئاً لك ..

قال وكأنه يستعجل الذهاب:

ـ ألا تدخل لكي تتلقى معي شيئاً من علمه؟

إنعصر قلبك قليلاً.. الجرح الذي صنعته كلماته لا يزال فاغراً، فبأي وجه تقابل الأستاذ؟

ظللت صامتاً.. فأعاد عرضه:

ـ ألا تدخل معي؟

تذرعت بضيق الوقت، وبأن عليك أن تهرع إلى المستنصرية لإلقاء درس في الفلسفة حيث ينتظرك الطلاب.. وقال الوليد:

ـ ها أنت ذا تتحول إلى العطاء بدلاً من الأخذ.. فهنيئاً لك!

أردت أن تقول شيئاً وأنت غير مطمئن تماماً لما يقصد إليه فقاطعته قائلاً :

ـ هذه ليست الفرصة الأخيرة على أية حال.. فلعلي أحظى بصحبتك مرة أخرى.. إن ثمة معضلات فلسفية لا تزال تؤرقني، ولسوف أتردد عليه لمناقشته فيها.. إنه كما تعلم صاحب القول الفصل في الموضوع.

ربت على كتفك وهو يودعك.. فهرعت إلى المستنصرية وأنت

تتقلب بين الرضا والغضب.. إنه كأبيه يعرف كيف يتعامل مع الكلمات.. ينزاح بها عن معانيها المألوفة لكي يجعلها تقول أشياء أخرى قد لا تتكشف للوهلة الأولى، لكنها فيما بعد، وربما في اللحظة ذاتها تقدم ما تريد.. وأنت تتقلب بين الرضا والغضب.. بين المحبة والكراهية.. إنه ذاهب لزيارة الجوسقي بالذات.. ترى هل سيقدر لك أن ترد الدين؟

وللحظات، وأنت تحث خطاك شمالاً، مقترباً أكثر فأكثر من درب دينار

والمستنصرية، تتذكر الوعد الذي ينتظرك من نصير الدين فتقول في نفسك: ألا يكفي أن يكون هو الرد المطلوب؟

دلفت إلى قاعة الدرس مرتبكاً بعض الشيء.. كان الطلاب يعربون عن تذمرهم من قلة المصنفات التي يرجعون إليها لإنجاز بحوثهم.. طمأنتهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن المسألة مسألة وقت فحسب.. كدت أن تقول لهم بأن هذا خطأ الإدارة وليس ذنب المدرسين.. لكنك آثرت الصمت، متذكراً رسالة نصير الدين.. وقلت في نفسك بأنه لو أتيح لك أن تتسلم قيادة المدرسة فلسوف تعرف كيف تتجاوز هذه الثغرة.. لقد قدرت على ملء الفراغ في هيئة التدريس وبين صفوف الطلبة، فلن تستعصي عليك الكتب والأسفار ..

وصاح أحد الطلاب: ولكنهم أحرقوها!

دهشت لجرأته، وأحسست بشيء من الارتباك وأنت تحاول أن تجد عبارة مناسبة ترد بها عليه.. ولمحت الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض دون أن ينبس أحد منهم بشيء.. أحسست أيضاً بنظراتهم وهي تدين تهور الطالب، واندفاعه غير المعقول، وقبل أن تتكلم صاح مرة أخرى:

- أنظر إلى دجلة على بعد خطوات منك.. إنه لا يزال يرتشف المداد فيزداد اسودادا..

وقبالتك تماماً.. وأنت لا تدري بالضبط كيف تردّ على الطالب،

رأيت الطوسي وهو يلوح بالكتابه إليك، ويمنح الوعد.. رأيت أيضاً الجوسقي وهو يغرز نصله الحاد في لحمك.. فصرخت في الطلاب وأنت تشير بانفعال إلى زميلهم:

ـ أخرجوه.. نادوا على الناظر لكي يطرده ..

وقال الطالب وهو ينهض بهدوء:

ـ لا مبرر لذلك.. فلسوف أغادر المكان وحدي ..

«36»

سليمان

ذهبتَ إلى الكيلاني على استحياء والشوق يدفعك.. أشياء كثيرة أردت أن تفضي بها إليه.. قلبك الذي وسع بغداد كلها ينوء اليوم بهموم بغداد.. ليس هيناً أن ترى أصدقاءك وإخوانك وشيوخك يقتلون أو يرحلون.. ليس هيناً أن تجتاز سوق الكتب فلا تجد فيه شيئاً.. لا أحداً ولا حانوتاً مفتوحاً ولا كتاباً.. ليس هيناً أن ترى كل شيء جميل يحترق.. وكل عزيز عليك يمضغ عذابه بصمت.. لم يكن هيناً ـ أيضاً ـ أن ترى ابنك يغيب في الدروب فلا تكاد تراه أو تعثر عليه.. ولا أن تعطي ابنتك السكين وتقول لها: اقطعي الحبل الذي يشدك إلى المحبوب.. الزمن المغولي يضرسك، وجناحك يهيض فيتطاير منه الريش.. طال يوم الخلاص يا عبد القادر فكيف السبيل؟

ذهبتَ على عجل، مجتازاً أحياء البدرية والجعفرية الأقل زحمة، فقالوا لك: خير لك أن ترجع: تساءلت ووجع القلب يشدد عليك الخناق: لماذا؟ قالوا: إنهم يسدون إليه

الطرق.. صرخت: لماذا؟ قالوا: لن يسمحوا لأحد أن يزوره أو يلتقي به بعد اليوم.. صرخت كرة أخرى: لماذا؟ لم يجبك أحد، وكان عليك أن تسترجع الصرخة المدومة في الفضاء الذي لا شيء فيه.. أن تعتقلها في روحك الموجعة.. فها هو ذا الفضاء الوحيد المتبقي الذي لن يخترقه المغول!

أدركت وأنت تدير ظهرك، وترجع ثانية من حيث أتيت أن الوصول إليه مستحيل، وأن الجراد الأسود ما دام يحط على الزرع ويقضم الحب، فلن يتاح لك أن تلتقي به.. إنهم يعتقلونه هناك، ومريدوه يتعذبون وهو يردد بصوت لا يقدر على سماعه إلا المريدون: «انصرني تكن من أصحابي».. ولكن الطريق مسدود ..

والجوع يعتصرك يا سليمان.. والعطش ييبس حلقك.. سترجع إلى البيت فماذا تقول لهم؟ أتقول إن حانوتك تلتهمه النار، وأن عبد القادر يتغرّب الآن وحيداً، أعزلاً، بعيداً عن مريديه؟ وأن صديقك الصرصري قد قتله المغول.. وإنهم لم يتركوا لك شيئاً؟

في لحظة غضب قررت الامتناع عن الذهاب إلى البيت.. لم يعد بمقدورك أن ترى حنان وهي تذوب قبالتك.. وجلسة الفناء الموحشة وهي تخلو من الوليد.. وتساءلت كمن يتشبث بشيء ما لكي يملأ به الفراغ القاسي الذي يحدق به من كل مكان: ترى أين هو الآن؟

يد حانية ربّتت على كتفك الذي بدأ يتهدل بعد أن ظل مشدوداً خمسين عاما: ها أنا ذا يا أبتاه!! التفتَ قليلاً فإذا بك قبالة الوليد.. يا سبحان الله.. قلت.. ابتسم الوليد ولم يقل شيئاً.. إنه يمنحك الفرصة كعادته قبل أن يقول شيئاً.. أردفت: كنت أتساءل عنك اللحظة بيني وبين نفسي.. الوحشة تقتلني يا وليد.. يظل صامتاً وهو يبتسم، وتقول أنت: إنهم عرفوا تماماً كيف يجعلون أبناء بغداد يتغربون.

أخيراً تساءل الوليد وهو يضغط على كفّك بمحبة:

- كيف؟

- ها أنت ذا تراني.. أهيم على وجهي وليس ثمة حانوت أمارس فيه مهنتي التي ألفتها خمسين عاماً!

- وشيخك يا أبتاه؟

- يسدون عليه الطرق.. يعزلونه عن مريديه ..

يدرك تماماً ما قصدت إليه، فلا يلح في السؤال، ويردد بصوت يكاد لا يسمع: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وما يلبث أن يقول لك إن كان في نيتك الذهاب إلى البيت فتجيبه: لقد أعياني القعود هناك.

ـ عندي شيء أريد أن أفضي به إليك

ـ قله يا وليد

ـ ليس هنا يا أبتاه فالمكان غير مناسب

تذكرت أن ثمة شيئاً ما بدأ يثيرك في تصرفات ابنك.. يدفعك إلى التساؤل، وأنك كنت دائماً تبعده إلى طبقة موغلة في نفسك، قائلاً: ليس الآن.. لكن السؤال ما يلبث أن يصعد ثانية إلى فوق لكي يقف قريباً منك، فيمارس إلحاحه عليك.. ويوماً بعد يوم كان يتأكد لك أن لدى الوليد شيئاً.. وأنه لابد من الاستجابة للسؤال الملح والعثور على الجواب ..

الآن يجيء ابنك بنفسه ليقول لك إن عنده ما يريد أن يفضي به إليك. .. تذكرت الجوسقي فأحسست للحظات أن ثمة كوة في جدار أصم تنفتح قبالتك، وقلت متلهفاً: لنذهب إليه!

ـ من؟

قال الوليد ..

ـ الجوسقي

ـ ليس من الصواب أن نذهب إليه في بيته ..

ـ لماذا؟

وضع فمه قريباً من أذنك وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ لعلهم يراقبونه الآن

وقلتَ، وأنت ترى الكوة التي انفتحت في الجدار الأصم قبل لحظات تغيب ثانية:

ـ حتى هذه!

وقال الوليد:

- ليس ثمة غير أن نرجع إلى البيت.. إن ذهابنا إليه أمر اعتيادي ولن يجلب
الأنظار ..

بدأت تلحظ أن حذر الوليد أخذ يزداد أكثر فأكثر.. ما هكذا كان منذ أيام.. وعلى أية حال فإن ذهابك معه قد يمنحك الجواب.. وتساءلت بهدوء:

- هل ثمة ما يقلق؟

- أبداً ..

قال، ثم أردف:

- على العكس يا ابتي، فإن الأمور تسير وفق ما نشتهي تماماً!

ولأول مرة، ربما، ترى ابنك يبحر في غير الاتجاه الذي تمضي فيه، فتتملكك
الدهشة، وتتساءل:

- ماذا؟

يجرك الوليد من ذراعك:

- سأقول لك كل شيء ولكن ليس هنا ..

اجتزنا سوق الثلاثاء على عجل.. تريثنا قليلاً ونحن نحاذي دار القرآن المستنصرية المطلة على دجلة.. خطوات الوليد تتثاقل قليلاً.. لعله يتذكر شيئاً ما، وقبل أن يسألك تقول له:

- لقد انتهى كل شيء ..

قال وهو يتنفس الصعداء:

- الحمد لله ..

- كانت أشبه بجراحة صعبة كتب علي أن أنوء بحملها المبهظ وأنا أمارسها بنفسي ..

نظر إليك كأنه يستزيدك:

ـ لم أعتد أن أكون جراحاً، ولذا تعذبت كثيراً ولكن للضرورة أحكام

ـ وهل قبلتْ في نهاية الأمر؟

ـ قلت لها كل شيء.. وأحسست أخيراً كما لو أنني أعنتها على التحرر مما كان
يعذبها ..

ـ هنالك أمور لا خيار لنا فيها.. وهذا وحده يكفي لكي يمنحنا العزاء ..

عرفت تماماً ما الذي يقصد إليه.. كان ينظر بشغف وحزن إلى المستنصرية.. وكنت تحس كما لو أنه يريد أن يرجع إليها ثانية لكي يتلقى فيها الدروس.. لكي يجلس بين يدي أساتذته وأقرانه.. تذكرت عبد العزيز وقلت في نفسك: ها هو ذا الآن يحل محل شيوخه فيا لدورة الزمن العجيب.. تذكرت ـ أيضاً ـ الجوسقي وكيف أنه تأبى على الرجوع وتساءلت فيما إذا كان من العدل أن يتصدر تلميذ كعبد العزيز حلقات الدرس، ويغيب أستاذ مدهش كالجوسقي.. يلحظك الوليد تدمدم مع نفسك فينتشلك من البئر التي تغوص فيها كرة أخرى:

ـ ولكنهم يدفعون الثمن!

تذكرتَ كيف أنه في الأيام الأخيرة أخذت أحياء بغداد تشهد مصرع عدد من المغول، وما أخذ يتحدث به الناس من أنهم بدأوا يعيدون ترتيب أنفسهم في محاولة للدفاع عن الذات، وأنهم يتحفزون الآن للرد.. ولكن كيف؟ وهل سيكون الهدف شاخصاً إزاءهم هذه المرة؟ إنهم يوم جاءوا كانت بغداد كلها شاخصة قبالة سيوفهم تماماً.. عشرات الآلاف من أبنائها.. من الرجال والشيوخ والنساء والأطفال.. وكان حصادهم، والحال هذه، أمراً ميسوراً.. أما الآن فإنه ليس ثمة هدف محدد على الإطلاق.. ومع ذلك فإنهم يستيقظون فجر كل يوم لكي يجدوا العديد من أصحابهم قد قتلوا هنا وهناك.. وتذكرت أيضاً المنشور

الذي أصدره الشحنة ونودي به في أكثر من مكان في بغداد.. هو الآخر، على ما تضمنه من تهديد ووعيد، وعلى ما انطوى عليه من التلويح بالويل.. لا يعني شيئاً، لأن الذين يقتلون المغول الآن لا يمكن أن يجيئوا إلى يقولوا للشحنة ويقولوا: ها نحن أولاء فأفعل ما تريد!

غمرتك موجة مفاجئة من الأريحية والرضا، ولمحك الوليد فاكتفى بالابتسام، وما لبث أن قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ إن بغداد ترد الدين

خطر على بالك للحظة أن الوليد، ربما.. ولكنك قلت: ليس الآن، وما دام قد جاءك بنفسه لكي يقول شيئاً فلتنتظر.. وكنت تعرف تماماً، منذ لحظات الغزو الأولى، أنه يمارس شيئاً ما.. وكنت في سرك تبارك عطاءه، دون أن تقدر، أو تحاول أن تحدد أبعاده

وطبيعته.. كنت تكتفي بهزة الفرح التي تغمر الإنسان وهو يعثر على كنز مخبوء، فلا يحاول أن يكشف عنه النقاب، فقط من أجل أن يطيل أمد الفرح إلى أقصى مدى ممكن.. والآن فإن الوليد نفسه سيكشف عن الكنز، ربما، ولن يكون بمقدورك بعد اليوم إلا أن ترى ما ينطوي عليه.

كنت وإياه قد تجاوزتما المسافة الضيقة الفاصلة بين المستنصرية وباحة الجسر الشرقية والتي يتعانق فيها مسجد الحظائر والمدرسة البهائية ورباط شيخ الشيوخ.. ودلفتما إلى الجسر نفسه.. رأيتما هناك ثلة من المغول.. بدا لك وأنت تنظر إلى أفرادها من طرف خفي، أنهم أكثر تحفزاً من ذي قبل، وأن عيونهم التي ضربت على مقاس واحد، والتي لا تكاد تنطق بشيء.. تتلفت ذات اليمين وذات الشمال كأنها تبحث عن شيء ما أو تتخذ الحيطة إزاءه.

يلكزك الوليد بهدوء كأنه يقول لك: أنظر: فتقول له: أعرف يا وليد، لقد رأيتهم

جيداً ..

تلامع أمام عينيك الكنز المخبوء الذي قد يكشف ابنك عنه.. تملكك الفرح مرة أخرى فقلت بصوت أكثر ارتفاعاً هذه المرة:

ـ يا سبحان الله ..

نظر الوليد إليك متسائلاً فلم تقل شيئاً.. كنت فقط تقارن بين ما كنت عليه قبل ساعة فحسب، وما أنت عليه الآن.. ها أنت ذا تجد نفسك بعد أن حوصرت بما فيه الكفاية وسدت عليك المنافذ والدروب وكاد الهم والتغرب يحيطان بك.. قبالة الفرح والامتلاء مرة أخرى.. فيا عون الله.. وثمة مجموعة أخرى من المغول تقف عند الطرف الغربي للجسر.. التحفز نفسه.. والنظرات المتوفزة التي تبحث عن شيء ما وهي تحّس تماماً أنه قد يكون من المستحيل عليها أن تلمحه أو تراه!

بامتنان نظر الوليد إلى أخته وهو يناولها عمامته:

ـ لن يكون الأول والأخير على أية حال ..

نكست رأسها بحياء وقلت محاولاً أن تغير الموضوع:

ـ وعمامتي يا حنان؟ يبدو أن أخاك سرق الاهتمام ..

قبل أن تمد إليك يدها استدركت:

ـ لا لست أنت.. ها هي ذي أمك، فهي أولى بها ..

أمسكتها جيداً وطوحت بها صوب الأم.. غمرتك الغبطة التي خرجت تبحث عنها ضحى اليوم فلم تعثر عليها.. أحسست كما لو أنك تسترجع شبابك كرة أخرى.. يلحظ الجميع كيف أنك تستعيد حيويتك ثانية.. يتأكد لديك أن زوجك وابنتك تقارنان اللحظة بين ما أنت عليه الآن وما كنت عليه عندما غادرت البيت.. ويقول الوليد كعادته دائماً:

ـ ماذا عندك يا أماه فإن الجوع يكاد يفترسني؟

تستفز الأم على غير عادتها:

ـ ليس ثمة في المطبخ أي شيء على الإطلاق

فيسألها بدهشة:

- حقاً؟

تخترقها حنان:

- لقد خبأت لك قطعتين من الفالوذج الذي تحبه، ولكنك تأخرت كثيراً فصارتا من نصيبي ..

ويقول الوليد متشبثاً:

- لن أسلّم قبل أن أتأكد من ذلك بنفسي ..

ويهرع إلى المطبخ ..

نظرتَ إليه باعتزاز.. تمنيت أن لو تكون لحظتها تحت شجرة في الجنة لكي تقول لثمارها تساقطي عليه.. ورأيته يخرج وهو يلوح بقطعتي الفالوذج.. يقول وهو يقطع الفناء بخفة:

- هذه لي وهذه لأبي ..

قلتَ له: إنك كعادتك في مثل هذا الوقت لست بجائع ولا ترغب في أن تأكل شيئاً، وهما حصتك على أية حال فكلهما هنيئاً مريئاً ..

نظر إليك الوليد بامتنان.. التهم القطعتين بشره، وقال لأخته:

- ائتني بقدح من الماء ..

أسقطه في حلقه دفعة واحدة، وسمعته يقول وهو يخرج منديلاً من جيب سرواله ويمسح فمه:

- الحمد لله ..

وتذكرت أنه ما كان بمقدوره أن يتناول لقمة واحدة يوم كان المغول يحصدون الناس، وأنه حتى عندما كان يشرب الماء كنت تسمع صوت تكسره في حلقه.. أما اليوم فيبدو أن المغول أنفسهم يتعرضون للحصاد، وأنه لهذا فقط يستعيد شهيته للطعام والشراب ..

تنادي على حنان، فلما تجيء تسألها، هكذا مباشرة كأنك تريد أن تكسر الكلمات المتثائبة وتصل إلى قلبها من أقرب طريق، حالك لا يسمح باللف في الدروب.. عندما تكون متوتراً بالغبطة والامتنان، تريد

أن تفيض بهما على الآخرين.. العين عندما تنبجس ماءً فراتاً، لا تنتظر من يقول لها تفجري:

ـ هل أنت سعيدة يا حنان؟

ينظر إليك الوليد بدهشة كأنه يقول في نفسه: أين كلماتك يا أبي؟ ها أنك تقتحمها دون مقدمات فأين كلماتك؟

تقول له وكأن سؤاله الذي يتشكل في السر، يتكشف أمامك:

ـ ليس هذا وقت المقدمات يا وليد.. فإنك تعرف جيداً ما أعني.. إذا قدرت بغداد أن تسترد شيئاً من الدين.. أن تستعيد شيئاً من فرحها الضائع، أن تحلم باليوم الذي ستتطهر فيه من الرجس المغولي، وتعبر أنهار الحزن والوجع التي تتدفق في دروبها، فان من حق حنان أن تخرج من دائرة العذاب ..

وتقول حنان وهي تقترب أكثر:

ـ أنت الذي أخرجتني منه يا أبتاه.. فلا تحزن ..

ـ الحمد لله ..

ويقول الوليد ومرحه القديم يضرب جنبات نفسه كحافات دجلة وهي تتلقى دفقات الماء زمن الفيضان:

ـ سأبحث لك عن عريس غيره.. فهل تأذنين لي؟

تصرخ الأم ملتاعة:

ـ كلا ..

يقترب منها ويطوقها بذراعه:

ـ أهذه ثقتك بي يا أماه؟

يلين قلب الأم.. الوليد أعز عليها من الدنيا وما فيها.. وهي لا تريد أن تجرحه.. لكن ذكرى عبد العزيز لا تزال تحاصرها، فتلتزم الصمت.. وتتدخل أنت لكي تحسم الموقف:

ـ لسنا الذين نختار.. تلك هي مشيئة الله سبحانه.. الذي يريده يكون ..

تطمئن حنان لكلماتك، وتحس كما لو أن لغة خاصة تصل بينك وبينها اللحظة، وأنها تشعر بامتنان أكثر.. لقد حررتها قبل يومين، والآن فانك تدفع الآخرين عن اختراقها.. بعدها.. وحيث الوعد معلّق بقدر الله وحده فانه ليس ثمة ما يقلق الإنسان.. ما يجعله يندم على ما كان، أو يخشى مما هو كائن أو سيكون.

يجرك الوليد من ذراعك.. تبعدان قليلاً باتجاه الشرفة المطلة على دجلة.. الشمس تجتاز قوس السماء العليا.. تتوقف لحظات في الأوج، ثم ما تلبث أن تواصل رحلة الأصيل صوب الغرب.. والجانب الشرقي يتلقى المزيد من الظلال.. النهر ينساب بهدوء.. ليس ثمة ما يخفق على سطحه.. هناك عند طرفي الجسر، لا تزال مفارز المغول تروح وتجيء، ملتمة أكثر على بعضها، بالحذر نفسه، بالعيون التي لا تكاد تنطق بشيء، ولكنها تدور بسرعة أكبر ذات اليمين وذات الشمال، تبحث عن شيء أو تتقي شيئاً يكاد يستحيل العثور عليه ..

ـ قل يا وليد فليس ثمة من يسمعنا ..

ـ أنظر يا أبي.. إنك تراهم عن بعد.. وقبل أكثر من ساعة لمحتهم وأنت تمر قريباً منهم.. لقد وضعنا فتيل الخوف في أفئدتهم، وهم يفتقدون الإحساس بالأمان شيئاً فشيئاً.. إذا قدرنا أن نصعّد هذا الإحساس ونبلغ به نقطة الشد القصوى، فإن قتلهم سيكون أيسر بكثير.. حينذاك سترى بأم عينك، وأنت تجوس في دروب بغداد كيف ان الدائرة أخذت تدور عليهم.. وبدلاً من أن يكونوا في مواقع التسلط والقهر التي تمكنهم من قتلنا، سيصبح همهم أن يحموا حياتهم بأي ثمن.. سيتراجعون إلى مواقع الدفاع عن الذات في مواجهة خطر يصعب تحديده.. وحينذاك سيكون الحصاد أكثر عطاءً ..

يطرق قليلاً كأنه يتذكر أمراً ما، وقبل أن تقول له شيئاً، يواصل:

- إذا استطعنا أن نجعل القبضة التي تمسك بعنق بغداد ترتخي

قليلاً، فمعنى ذلك أننا قطعنا نصف الشوط ..

تلمحه يجتاز بنظراته دجلة، والأحياء الشرقية المطلة عليها.. يوغل في الدروب والأحياء الخلفية، ويشير إلى نقطة ما في أقصى الشرق، وهو ينظر إليك بمحبة:

ـ قريباً سيجيء اليوم الذي تستأنف فيه رحلتك اليومية إلى الجيلاني ولسوف تعرف كيف تكسر الحصار الذي يضيق الخناق عليه.. وحينذاك سيعود ثانية إلى استقبال مريديه!

أشياء كثيرة كنت تريد أن تقولها للوليد.. تضطرب بها نفسك، تضرب جنبات وجدانك بعنف وصخب.. تأمرها أن تكف.. أن تهدأ أو تلين، فلا ترد عليك.. ومن عجب أنك تعجز أخيراً عن أن تقول شيئاً، أنت الذي لانت على يديه الكلمات

يدرك الوليد ذلك، فيقول وهو لا يزال يحدق في نقطة ما شرقي بغداد:

ـ لا بأس يا أبتاه، فإنني أفهمك جيداً ..

«37»

الوليد

الحجارة السوداء المحترقة على مدى البصر.. يبدو أنك انحرفت جنوباً أكثر مما

يجب.. فأين الماء؟ وأين هسيس الرمل الرطب ولفح الهواء الذي يغسل الجسد والروح ويمنحك القدرة على عبور الصحارى التي لا أول لها ولا انتهاء؟ ما يؤلمك أن الشهباء تتعذب قبالتك ولكنها تصبر على وجعها ولا تجأر بالشكوى.. أصيلة والله يا شهباء.. تقول في نفسك ولكن بصوت عال تحس أنها تسمعه، فتصهل.. من يدري؟ لعلها تعرب عن امتنانها.. يدفعك الوفاء إلى أن تبذل لها الوعد.. تقول وكفك تمسد على رقبتها بحنان: لسوف نصل بإذن الله فلم يبق إلا القليل وحينذاك سنرتاح.. لقد اجتزنا مسافات متطاولة ما كانت في الحسبان فأعيانا السرى.. ولكننا سنصل، وسنرتاح ..

تصهل كرة أخرى.. وتتقافز متجاوزة خببها الهادئ الذي تلجأ إليه كلما حاصرها الإعياء.. انها تفهمك تماماً.. ولهذا ـ تقول في نفسك ـ أنك لست وحدك، وهذا ما يهون عليك مرارة الغربة عن الأهل والايغال في المسافات.

ترتطم حوافرها بالحجارة السوداء فتتطاير هنا وهناك.. ثقيلة.. كثيبة يغطيها دخان قادم من زمن بعيد.. يقولون إنها مطر السوء الذي ضرب الله به عمورة وسدوم عند حافات بحيرة لوط.. وأنها تطايرت

وهي ترجم قوم لوط ـ الغارقين في الإثم ـ عبر مساحات شاسعة من البراري.. تنحني قليلاً فتلتقط إحداها.. كالحة هذه الحجارة، متصلّبة منذ آلاف السنين.. ترفض أن تتفتت وأن تغسل الدخان الذي يغطيها.. إنه الالتزام بالعهد والوفاء للذكرى.. أن تظل إلى يوم الحساب شاهداً على الثبور الإلهي الذي لا راد له ..

ليست الشهباء وحدها.. ولا أنت وحدك.. فها هي ذي الأرض.. حجارة الأرض القادمة من مكان مجهول، تحكي، بلغتها الخاصة.. بصمتها الأبدي، فتقول أشياء كثيرة.. وها أنت ذا تنظر، مركزا عينيك عند آخر نقطة في الأفق، فلا تجد إلا الحجارة السوداء، يخترق صمتها الكئيب وقع حوافر الشهباء.. وأحياناً تتطاير القطع الصغيرة ذات الثقوب السوداء المتفحمة، كأنها شظايا نجوم انقضت على الشياطين في السماوات الدنيا، فصدتها عن استراق السمع إلى الملأ الأعلى ..

وتتذكر بغداد.. الساعات الأخيرة في بغداد.. انها الهاجس، والذكرى، والدافع.. والحلم باليوم الموعود.. ولكنك تقول في نفسك، والحسرة تتسرب في حناياك كالحمى

البادرة، هل سيقدر لك أن تجد أختك وأمك وأباك، ترتجف قليلاً وأنت تتذكر الأستاذ.. فمن يدري؟

وبدون قصد مسبق تضرب بطن الشهباء بنعليك، وتتلقى الشهباء، الإشارة فتغذ السير.. تتنفس بعمق محاولاً أن تستمد القدرة على مجابهة الحزن، والإعياء، وإغراء النوم.. لم تعد تطيق البقاء أكثر في هذه الأرض الملعونة، المزروعة بالحجارة السوداء.. إذا قدرت على اجتيازها، ووصلت حافات الهضبة الصلبة التي لا حجارة فيها، فمعنى هذا أنك والشهباء أصبحتما قاب قوسين أو أدنى من الأردن وفلسطين!

هكذا قال لك الأعراب وأنت تجتاز واحداً من مضاربهم قبل يومين، فتتزود بالماء والطعام، وتتلقى المزيد من التعاليم والطقوس

البدوية التي لابد من ممارستها إذا أردت أن تجتاز الصحراء اللا نهائية وتصل هدفك.. إنهم يعرفونها جيداً.. يعرفونها ذراعاً بذراع وشبراً بشبر.. والذين يتمردون على التعاليم والطقوس يضيعون.. آلاف من الهاربين والمسافرين والخائفين ضاعوا.. وها هي ذي بقايا عظامهم المتناثرة في الصحراء شاهدة على ذلك.. وأنت هل سيقدر لك أن تجتاز الامتحان بنجاح؟

وللحظات تجد نفسك قبالة عبد العزيز.. في الأيام الأخيرة كنت تتحاشاه، ليس فقط بسبب إلحاحه الذي لا يطاق للتعجيل بموعد زواجه من حنان، ولكن لأنه، بسبب طرقه الخاصة، بأساليبه المترعة إثرة ولؤماً، بدأ يتحسس أكثر فأكثر، الدور الذي تمارسه في مقاومة المغول.. في دوامة القتل المتزايد التي أخذوا يتعرضون لها في دروب بغداد وأحيائها وأزقتها ..

منذ اكتشافه ترددك على بيت الأستاذ، أخذت الشكوك تتناوشه ووجدها فرصة جيدة للتقرب أكثر من الشحنة ورجالاته.. إنك تعرفه تماماً.. يريد أن يبني مجده الشخصي.. يصوغ مستقبله الذي حلم به طويلاً بأي ثمن.. ومن أجل ذلك طلبت من بعض إخوانك مراقبته جيداً ومتابعة تحركاته.. وجاءوك بعد أيام قلائل لكي يؤكدوا لك صدق تخميناتك.. ولكن ما الحل؟ عرض عليك أحدهم أن يقتله.. قال: إن آخر الدواء الكي.. وأن عبد العزيز أصبح يشكل خطراً مؤكداً.. إنه يعرف كثيراً.. نمط من هذا النوع يكون أشد خطراً من عشرات الخصوم، وأن أي أسلوب للتعامل معه برفق من أجل صرفه عن البؤرة التي يندفع إليها بعنف، لن تأتي بطائل.. فليس ثمة دواء يشفيه غير القتل.

ترددت كثيراً وتذكرت حنان.. في صراع من هذا النوع يتحتم على الإنسان أن يكون بارداً كالثلج المتجمد منذ مئات السنين.. صلباً كالحديد، فلا يسمح لأية عاطفة أو ميل أو هاجس في الوجود أن يدخل طرفاً بينه وبين الآخرين ..

هكذا تعاملتَ عبر زمن المقاومة الذي خلخلتَ وأخوانكَ فيه الوجود المغولي القاهر في بغداد.. وألقيتم الرعب في قلوبهم.. ولكن هذه.. لعلها مسألة أخرى.. لعلها الحلقة الأكثر هشاشة وضعفاً في خيارك الذي نحت مفرداته من قواميس الثلج والحديد.. إنها حنان.. أختك.. فمن يدري لعلها لا تزال تتعلق به.. تأمل أن يعود إلى الجادة، وأن يعذها

ويمنيها.. حينذاك ليس ثمة مشكلة على الإطلاق ..

لأول مرة يضطرب في يديك الميزان.. هناك ضغوط هي فوق طاقة الإنسان، ومهما حاول هذا أن يفكّر بالخيارات الأكثر ضماناً في صراع دموي كهذا فإنه ليس بمقدوره، على أية حال، أن يزحزح الجبال عن مواضعها.

بعدها، التقاك عبد العزيز وأنت تجتاز سوق السلطان.. أغلب الظن أنه أراد إشعارك بقدرته عل رصد تحركاتك.. بوضعك تحت المراقبة.. ولعله أراد أن يلعب بورقة مضمونة، فكانت حساباته خاطئة رغم تمرسه عليها ..

كان وجهه أصفر شاحباً، وكأنه هو ولست أنت من سهر الليالي المتصلة دون نوم.. كأنه هو المطارد، المحاصر بعيون الشحنة المترصدة في كل حنية وزقاق.. من يدري لعله كان يعرف أنه يقف قبالتك عارياً من أي غطاء، وأنك تخترق هواجسه كلها حتى آخر خلجة فيها.. ولهذا ـ ربما ـ كان يحس بالبرد وهو يقف بمواجهتك.

ـ الوليد؟

تساءل محاولاً أن يغطي عريه بابتسامة كان قد تمرس على استدعائها منذ زمن بعيد.. ابتسامة لا تمت إليه بصلة.. قناع يلبسه في اللحظة المناسبة، ولكنه قناع متهرئ

مكشوف.. وقبل أن تجيبه، أردف:

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

وللحظات أدرك، كما تراءى لك، خطأ تساؤله هذا فغير مسار الحديث باتجاه موضوع أبعد عن الحساسية وأكثر أمناً:

- كم أنا مشتاق لرؤيتك!

ثم منتشياً بهزة الذكرى:

- أين أيام المستنصرية يا وليد؟

لم تجبه وحدقت فيه طويلاً، متعمداً أن تشعره بأنك تحاول اختراقه وأنك تعرف جيداً ما يتشكل هناك فيما وراء الجلد والقناع ..

هو - من جهته - أحس بهذا.. أدرك أنه مكشوف أكثر مما يجب فحاول أن يختصر الطريق:

- ما دمنا اتفقنا على كل شيء.. ما دامت حنان نفسها ملت التأخير الذي لا مبرر له، فلماذا الانتظار؟

قلت، وقد بدأت تستعيد قدرتك على استدعاء مفردات الثلج والحديد، بعيداً عن أية وشيجة تميل بك عن الميزان:

- ثمة شيء واحد، لم نتفق عليه بعد.. شيء هو قبل كل التفاصيل وبعدها.. شيء أهم بكثير من كل الاتفاقات الصغيرة العابرة ..

لم يدرك قصدك.. أو لعله أدركه ولكنه حاول أن يحصن نفسه بالتجاهل وتساءل دهشاً:

- إلى هذا الحد؟

- بكل تأكيد

- ليتني أعرفه.. ولسوف تجد أنني على استعداد لتذليل كل عائق.. والمهم أن حنان نفسها تنتظر هي الأخرى ..

- لست متأكداً إن كانت حنان تنتظر متعجلة هي الأخرى، أم لا.. ولكنني أدرك تماماً أنها لن توافق، بالسهولة التي تتصورها، على أن يخترق حياتها رجل لا يحب إلا نفسه!

للحظات أسقط في يده.. كمن يفاجأ بهجوم مباغت من نقطة ما لم يكن منتبهاً لها

جيداً.. ارتبك قليلاً، ولكنه بدربته الجيدة على الجدل، سرعان ما استعاد توازنه، وقال محاولاً أن يعيد الحوار إلى إيقاعه الهادئ بعيداً عن التوتر والانفعال:

- ومن ذا لا يحب نفسه؟ إنك وكل الآخرين يمارسون ولا ريب نوعاً من المحبة

للذات.. كل على طريقته الخاصة.. إن محبة الآخر نفسها هي بشكل من الأشكال انعكاس لحب الذات، ومن لا يحب نفسه لن يكون بمقدوره أن يكون عاشقاً أو محبوباً!

- ولكن لكل شيء حدود يا عبد العزيز ..

- مثلاً؟

- فإذا ما تجاوزها انقلب إلى النقيض، وحينذاك قد تكون الممارسة مدمرة، ليس بالضرورة للشخص نفسه، ولكن - ربما - للآخرين.. وهذا هو الذي أخشاه منك وعليك!!

تحفز للدفاع عن نفسه، ولكنك لم تعطه الفرصة، وواصلت حصاره:

- كنت تذكرني بأيام المستنصرية قبل لحظات.. أتدري؟ لقد تجاوز طموحك كل الحدود المعقولة.. لقد أصبحت مهووساً بالتفوق العلمي.. ومن أجل هذا الهدف وحده.. هذا الهدف المجرد عن كل ارتباط بقيمة ما في هذا العالم.. نسيت كل شيء.. حتى عبادتك يا عبد العزيز.. لقد جعلت العرفان وحده، كما كنت تؤكد أنت نفسك، هو البدء والمنتهى ..

قال، وهو يحاول أن يشكم انفعاله:

- ولكنك كنت تباركني!

- كنت شاباً مثلك لا أفقه كثيراً من الأمور.. في تلك الأيام المترعة بالوعد والطمأنينة والعطاء، ينسى الإنسان أشياء كثيرة.. يصير - أحياناً - كالسكران في عالم يتحفز فيه العقل أو الروح أو الجسد لأن

يطوي الملكوت بين جناحيه.. والآن، فإنني أخشى أن يكون طموحك المهووس ذاك مجرد خطوة فحسب لطموح من نوع آخر بعد إذ أدّى وظيفته وأشبع حاجة في نفسك ..

محاولاً أن يدافع عن نفسه تساءل:

ـ لا أفقه كثيراً مما تقول!

ـ أبداً، فإن ما يميزك هو ذكاؤك الحاد.. هذا السيف ذو الحدين الذي يبدو أنك لم تعرف كيف تمسك به من وسطه تماماً ..

ـ أوضح يا وليد كل ما تريد بشكل مكشوف لكي أعرف كيف أجيبك بوضوح أنا الآخر..

ـ إن الأمر كله لا يقتضي مماحكة عقلية أو جدلاً.. فالوقائع نفسها تشكل منطقها المحكم وتكشف بقوة المنظور عن البعد الحقيقي لكل تصرف أو سلوك.. لا أريد أن أطيل عليك وها أنت ترى كيف تحل، بسعادة ورضا، مدرساً في المستنصرية نفسها.. المستنصرية التي أصبحت أداة بيد المغول، وكيف أنك صعدت درجات السلم بسرعة متناسياً تماماً أساتذتك الذين اغتالتهم خناجر المغول، وشرَّدهم في الأرض حرصهم المشروع على أمانة الكلمة.. على ألا يصيروا مجرد أدوات في إمبراطورية هولاكو.. ثم ها أنت ذا تتولى رئاستها بفرمان يدمغه هولاكو نفسه.. ما الذي تسمي هذا يا عبد العزيز؟

كمن يغوص في بئر عميق يقول بصوت لا يكاد يسمع:

ـ يتولاها أبناء البلد أولى من أن يعبث بها الغرباء ..

ـ على العكس تماماً.. دعهم يعبثون بها.. فإنها بهذا ستصير إدانة أخرى، وستعين على خلخلة وجودهم في بغداد.. في حالة كالتي نعاني منها، فإن من مصلحتنا جميعاً أن نجعلهم يندفعون لكي يقفوا وجهاً لوجه إزاء مسؤوليات ليسوا بقادرين عليها، وحينذاك سينكشف عجزهم تماماً وهذا سيضعف موقفهم بكل تأكيد.. إنك بمنطقك إياه تخدمهم يا

عبد العزيز من حيث تدري أو لا تدري.. تعينهم على ترقيع الثوب الذي مزقوه بخناجرهم وسيوفهم ..

في محاولة لكسر الحصار، يرجع عبد العزيز إلى حنان كرة أخرى.. إنه يعرف تماماً كيف يتحول من العام المترع بالثغرات والشقوق التي يمكن أن يقتحم منها، إلى الخاص الذي يجد نفسه قادراً فيه على اتخاذ مواقع الهجوم ..

وبصوت متهدج بعض الشيء، يحاول مداراته، يقول دونما أية مقدمات:

ـ مهما يكن من أمر فإن حنان ستكون لي يا وليد.. ولن يكون بمقدور أحد أن يقف بيني وبينها.. إنها قدري.. وما كان بمستطاع الإنسان أياً كان، أن يقف في مواجهة

الأقدار ..

قلت، محاولاً أن أكون هادئاً تماماً:

ـ حنان ليست شيئاً لكي تعلن ملكيتك له ..

يتشبث بموقفه أكثر:

ـ ولكنها ستكون لي!

ـ إنك ..

تزدرد ما كنت تود أن تقوله له.. يدرك أنك تريد أن تقول شيئاً، وأنك تسترجعه قبل أن يصل إليه:

ـ قل يا وليد.. إنني.. ماذا؟

ـ منذ زمن بعيد وأنت تمارس الخطيئة نفسها

يتساءل ببرود، محاولاً تجاهل كل ما ترمي إليه:

ـ أية خطيئة؟

وتقول في نفسك: لابد من الكي فإنه آخر الدواء ..

ـ لقد بعت نفسك للشيطان

يدرك تماماً أنه بداية التحدي فيرد عليه بمثله:

- دعك من التعابير الجاهزة.. إنها في مثل حالتنا لا تجدي نفعاً ولا تصل بنا إلى شيء..

تصعّد المجابهة قائلاً في نفسك: إنه لابد لكل شيء من نهاية:

- أرجو ألا تجيئني المرة القادمة بالشحنة نفسه طالباً أختي!

بلامبالاة، عرف كيف يتعلمها من صولاته في ساحات المران العقلي، أجاب:

- الأمر سيان: المهم أن آخذ حنان ..

- إنني أعرفك جيداً يا عبد العزيز.. ليس بمقدورك أن تقاتل بيديك.. إنك تحاول أن تنفذ رغباتك بأيدي غيرك ..

مرة أخرى يقول بالبرود نفسه:

- الأمر سيان.. المهم أن آخذ حنان ..

تستفز أعصابك بلا مبالاة وإصراره البارد كالثلج فتحاول أن تنهي الحديث، وتقول وأنت تهم بمغادرة المكان:

- طالما حذرني أبي من المعرفة التي لا تستهدي بضوابط القيم الخلقية ومعايير الإيمان الوضيء، وكان يردد: «علم يدل على الله هو السبيل إليه.. علم لا يدل عليه هو الحجاب الفاتن». . وكان يقول: إن المعرفة حينذاك ستصير حصاناً جموحاً يصعب على صاحبه أن يهيمن عليه ويقوده عبر الطريق التي يريد.. وها هو ذا حصانك يخرجك عن الجادة يا عبد العزيز.. يحجبك عن الصراط، ويضيّعك في المتاهات ..

يخرجك صهيل الشهباء المترع نشوة وجذلاً من استغراقك في لعنة عبد العزيز.. في البؤرة المعتمة التي جرك إليها.. في العذاب المر الذي لا أول له ولا انتهاء.. حيث تتداخل المرئيات، فيصير عبد العزيز على حين غفلة شحنة لبغداد، ويجيء الشحنة لكي يطلب يد حنان.. وتتلامع سيوف المغول عند جسر الكرخ باحثة عن رأس أبيك!

ترفع رأسك قليلاً لكي ترى.. كانت ايماضات الفجر الأولى قد

بدأت تضيء الأشياء والموجودات.. ما الذي يدفع الفرس إلى هذا الجذل؟ ولدهشتك تجد نفسك قبالة الحافات الأولى للهضبة الصلبة التي لا ترتفع كثيراً ولكنها تنفصل بوضوح عن المساحات اللا نهائية الكالحة التي تغطيها الحجارة السوداء ..

صرخت، جذلاً أنت الآخر، كما لو أنك تتحدث إلى كائن مثلك: ها نحن ذا قد

اقتربنا.. وفلسطين أصبحت على بعد ساعات ..

تتباطأ الشهباء قليلاً.. لعلّها تمارس حقها في الدلال، وتنتظر منك الجزاء.. وربما تتحفز لاجتياز حافة الهضبة صعوداً إلى فوق، فتصفق على جنبيها بنعليك مربتاً على عنقها بشيء من العنف هذه المرة.. تدرك هي مرماك، فتنطلق كالسهم على حين غفلة كأن لم يعتصرها الجوع، والسهر، والإعياء، مجتازة مسافات متطاولة، مبتعدة أكثر عن قبضة الرعب المغولي، مقتربة شيئاً فشيئاً من الحمى والملاذ ..

وللحظات تعكرك مرارات الأيام الأخيرة في بغداد.. اليوم الأخير.. الساعات الأخيرة.. هناك حيث لا تدري إن كان أبوك هو الهدف بعد إذ أفلتَّ من قبضتهم أم أنه تجاوز السيف المغولي بسلام؟ للحظات يحاول عبد العزيز أن يسحبك كرة أخرى إلى الدائرة

المعتمة، ولكنك ترفض، متأبياً على الهواجس والمخاوف والأحزان، متشبثاً ـ بكل ما تستطيع من قوة ـ بضوء الفجر الذي يزداد تكشفاً وانبلاجاً.. بلحظة الفرح التي منحك إياها نداء الأرض وصهيل الشهباء ..

«38»

حنان

تتبعثر الأشياء قبالة عينيك كما لو أن يداً هائلة تخرجها بضربة واحدة عن مواقعها.. لم يعد أي شيء في محله الذي ظل متشبثاً به مئات السنين.. ضاع التناسب بين الظواهر والموجودات.. والدوامة المغولية التي تلف الناس جميعاً، تحمل وجهاً آخر أشد لعنة وإيلاماً.. إنها - أيضاً - تتعامل مع كل واحد منهم على انفراد.. تنفرد به وتلغي من حياته كل الثوابت والمرتكزات فيحس حتى أعظم نقطة في وجدانه أنه يضيع مرتين ..

قبالة الإعصار أبوك يتحصن بقوة الروح فلا تتناوشه هبات الريح التي لا ترحم.. الوليد اختار أن يرفع السيف وأن يتوحد مع البغداديين في مجابهة الويل.. فلما أويت إلى عبد العزيز أخطأت الحساب.

منبتّة أنت عبر طريق موحش طويل لا يكاد يسمعك فيه أحد.. قبل يومين فقط يجيء عبد العزيز.. تعرفين تماماً عنف الدافع الذي قذف به إلى الدار، بعد أن شدد المغول قبضتهم على بغداد ومنعوا فيها التجوال ساعات طويلة آناء الليل وأطراف النهار.. لقد أخذوا يتعرضون للتآكل على أيدي البغداديين.. وهم الآن يدافعون عن أنفسهم ..

يقرع الباب بعصبية فتخمنين أنه هو.. ليس غيره على أية حال من يقدر على اجتياز دروب بغداد عبر هذا الوقت في مواجهة تعليمات الشحنة.. يبدو أنه أصبح قريباً منهم أكثر فأكثر وأنهم أعطوه ما لم يمنحوه للآخرين.

أبوك كان قد غادر منذ ساعات، وقبل سريان المنع، إلى الجيلاني لكي يتلقى دفقة لعزاء ويمضي مصعداً فوق الهموم والمخاوف والأحزان. الوليد غائب كعادته، ينوء بالمصير الذي يحاول ـ على ما يبدو ـ أن ينسجه وأصحابه خيطاً خيطاً قبالة السيف المغولي المدوّم في سماء بغداد.. أمك يهدها الحزن فتشيخ قبل الأوان.

يدق الباب، فتهرعين إليه:

ـ من؟

يجيب بصوت فقد عذوبته منذ زمن بعيد:

ـ عبد العزيز.. افتحي ..

تترددين قليلاً ولكنك تفتحين كمن يرمي نفسه في المجهول.. يحاول بصعوبة أن يرسم ملامح ابتسامة مبتسرة على وجهه فلا يستطيع ..

ـ حنان!

لا تردين عليه، وتلميحنه من طرف خفي يكافح من أجل أن يتقمص وجهاً آخر غير الذي جاء به قبل لحظات.. وجهاً أكثر مودة وقربى.. فلا يستطيع ..

ـ جئت لكي أحسم الأمر.. لقد نفد الصبر وطال الانتظار ..

تدفعين نذر الويل متشبثة بالآخرين

ـ لست أنا التي تجيبك ..

ـ إنه مصيرك أنت يا حنان.. وليس غيرك من يدخل طرفاً في صنعه ..

ـ يمكنك أن تسأل أبي ..

ـ رجعت إليه كثيراً فلم يعطني الجواب.. والخيار خيارك أولاً وأخيراً ..

تبتلعين ريقك بصعوبة محاولة التشبث بموقفك حتى آخر لحظة:

ـ ما اعتدت أن اتخذ قراري بدونه ..

تستفزه كلماتك وتنعكس على نبرات صوته بوضوح.. صوت

متيبس لا ينطوي على هباءة من شفقة أو مودة أو حنان.. صوت متصلب كالحديد البارد:

ـ كوني أنت يا حنان

تقولين له:

ـ في أمر كهذا ليس ثمة غير الأب من يحسم الأمر.. ولقد علقت خياري بكلمته، وأنت تعرف هذا جيداً ..

بالصوت المتصلب نفسه يقول:

ـ كنت أعرف هذا.. ولكنني اليوم أرفضه

تكتشفين ثغرة في موقفه فتدخلين منها:

ـ هذه قناعتك ولا يمكنك أن تفرضها علي .. ولسوف يظل أبي هو الملجأ والملاذ ..

يسقط في يده للحظات، فيسعى إلى أن يغير دفة الحديث باتجاه آخر في محاولة منه للبحث عن نقطة ارتكاز يواصل منها الحصار:

ـ والوليد؟ أليس له موقع هو الآخر في صياغة مصيرك، واتخاذ القرار؟

تفاجأين باسم الوليد.. تتحسسين في كلماته نوعاً من الاستفزاز الذي يتجاوز الدفاع عن الذات باتجاه الهجوم.. الذي يبيح لنفسه كل صيغة ممكنة للوصول إلى هدفه.. تعرفين جيداً هذا الأسلوب الذي ينطوي على الشر، ولكنك تحاولين أن تقنعي نفسك بخطأ الإحساس القاسي:

ـ إنه صديقك القديم.. ومن يدري، فلعل له رأياً آخر قد يدفع أبي إلى تغيير موقفه ..

لأول مرة يضحك منذ زمن بعيد.. تنفصل ضحكته لكي تتشكل بعيداً عنه.. مجردة تماماً عن أي بعد بشري.. منبتة الجذور لا يربطها به أيما رباط.. تكادين تلمسين هذا فتزدادين ضيقاً وقهراً وتسمعينه يقول بصراحة مدهشة:

- الوليد هو الذي ساقني إلى الدمار يا حنان.. إنه الجدار الكالح الذي سد علي الطريق ومنعني من الوصول إليك ..

تلوذين بالصمت، فلم يعد ثمة جدوى للكلام.. ويقول هو:

- لو كان أبوك وحده في طريقي لهان الأمر ..

تستمدين من اقتراب أمك القدرة على مواصلة الدفاع:

- لم ألمس منه هذا.. ومهما يكن من أمر فإن بمقدورك أن تلتقيه وأن تقول له كل شيء ..

تحييه أمك فلا يرد عليها.. تكسو وجهه للحظات ابتسامة غريبة.. تحاولين أن تتكيفي لها فلا تستطيعين

- ليس ثمة لقاء بيني وبينه بعد اليوم.. وما تقولينه هو المستحيل ..

قبل أن تتساءلي عن الأسباب التي تعرفينها جيداً، يتشبث بموقفه أكثر، ويواصل الهجوم:

- الوليد أصبح لعنة تحيق بأمن بغداد واستعادتها الصحة والعافية.. إنه يسوق البغداديين المساكين إلى الهلاك.. أظنك تعرفين هذا جيداً.. إنه يلقي بهم في التهلكة.. ولن يستمر هذا طويلاً ..

تنكمش أمك قليلاً.. وجهها أصبح كالمرآة الصقيلة تعكس بوضوح ما يعتمل في أعماقها..

تستمدين من عجزها هذه المرة قدرة أكثر على المجابهة وتقولين في نفسك إنه يمضي بقوة لا ترد إلى الطرف الآخر، وأن أية محاولة للبحث عن جزيرة مشتركة لم تعد ممكنة على الإطلاق، وأن عبد العزيز يبني منطقه من مفردات أخرى لم يعتدها هذا البيت:

- لست أنت الذي يقول هذا يا عبد العزيز ..

- ولكنه أمر مكشوف يعرفه الجميع ..

تتحفزين أكثر للهجوم بدورك، فلم يعد ثمة أيما مبرر للمداراة:

- ما كان بمقدور الجميع أن يعرفونه ..

بصوته المتيبس إياه يتساءل:

ـ ماذا تقصدين؟!

ـ هناك بالتأكيد من يضعون أنفسهم في خدمة السلطان.. فئة من الناس موجودة في كل زمن ومكان، تنحت مفردات سلوكها في ضوء مصالحها القريبة، وترى في المبادئ والقيم إشارات ضوئية خافتة تجيء من أماكن نائية، فلا تكاد تنير أمامها الطريق فيتصورونها أضاليل وأوهاماً.. وفي أحسن الأحوال لا تأتي بطائل ..

تجتاحه هزة غضب يحاول أن يشكمها فلا يستطيع:

ـ بهذه الإشارات الضوئية الموهومة يسوق الوليد البغداديين إلى حتوفهم! من جهتي لن أسمح له بالاستمرار على عبثه.. سأوقفه عند حده.. وقد يكون هذا من مصلحته.. فقد يتلقى عنقه هو الآخر سكين المغول ..

تتميزين غيظاً وتغادرين آخر موقع في مملكة العقل وتندفعين بدورك صوب إغراء التحدي.. فليس ثمة مفر:

ـ هذه السكين ما كان لها أن تصل إلى عنقه أو عنق أي بغدادي لولا اليد التي تتطوع للإمساك بها نيابة عن المغول ..

يدرك تماماً أنه اندفع تجاهك بأكثر مما يجب، وأن اندفاعه هذا قد يقوده إلى كشف أوراقه كاملة.. فيتراجع قليلاً:

ـ لمصلحته أتحدث يا حنان.. إنني أعرف جيداً ما يجري في بغداد.. ثمة صلات تربطني حتى بالشحنة نفسه وهذا أمر معروف.. ولكنني أحاول أن أوظفها لحماية إخواني من القتل، وهو ما لا يكاد يعرفه أحد!

مناورته تثيرك أكثر.. تعرفين جيداً ماذا يخبئ وراءها.. مكشوفة كغلالة رقيقة لا تكاد تخفي شيئاً.. قبل أيام قلائل كان بمقدور عبد العزيز أن يقنعك بسهولة.. أما الآن، وسط تراجع المحبة، وتلاشيها

وفنائها، فإن قناعتك أصبحت مستحيلة.. وتقولين له بصوت مكتوم لكنه يتميز غيظاً:

ـ مصلحتك هذه هي التي ستضع بغداد بين يدي المغول إلى الأبد..

يستفز فيعود إلى سخريته مرة أخرى:

ـ والإشارات الضوئية القادمة من المجهول هي التي ستحررها من قبضتهم..

ـ المصلحة أشد قرباً وبريقاً بالتأكيد، والذين يتعاملون معها لا يمكنهم بحال أن يتلقوا الإشارات الضوئية القادمة من البعيد..

فجأة يكف عن الحديث وهو يهم بمغادرة الدار.. ينظر إليك بعينين تصطرع فيهما المحبة بالبغضاء.. يميل أكثر فأكثر إلى الطرف الثاني.. تقرأين هذا بوضوح كما لو كان أسطراً في كتاب مفتوح.. يدرك تماماً أنه خسر المحبة وأنه ليس ثمة أمامه من خيار سوى أن يمضي في البغضاء حتى تخومها القصوى.. فمن يدري؟ لعله يستأثر بك من هناك، من أشد مواقع الكراهية تضاداً مع المحبة بعد إذ أصبحت هذه إشارة ضوئية خافتة تنبعث من مكان بعيد لا يملك عبد العزيز القدرة على تلقيها، وإدراك ما الذي تريد أن تقول..

الهدير المخيف يوغل في الأعماق.. يضرب حافات الأعصاب فيوجعك.. الهدير يفصلك عن العالم.. يقطع جسور السمع والرؤية فلا تكادين تتبينين موقع خطواتك في مسالك الدنيا.. يرتفع كصخب البحر.. يضرب بإلحاح كموجه اللا نهائي عند الشطآن الرملية يدور كالرحى فيمتزج الليل والنهار.. تتعذبين ولا تدرين إن كان عبد العزيز هو العذاب أم الخلاص.. لم يعد بمقدورك أن تعرفي.. لقد بدأت تمقتين نفسك وتكرهين

عبد العزيز.. قبل أيام قلائل فقط كان بمقدوره أن ينتشلك من

الحفرة التي تختنقين فيها.. أن يأخذ بيدك وينطلق بك إلى تخوم الدنيا.. سعيدين مترعين غبطة وفرحاً.. كان يستطيع قبل أيام قلائل أن يجتاز بك هذه اللعنة المغولية التي تجثم كسحابة سوداء على سماء بغداد، وأن يخرجك إلى الصفاء الكوني ويطهرك بالمحبة.. أما الآن فما الذي حدث؟

تحسين كما لو أن قوة مجهولة استدعته فلبى النداء.. وهناك في مكان مجهول تلقى الإشارة التي لم يطق مقاومة إغرائها فباع نفسه معتقداً أنه يجدها.. وخسر كل شيء.. ما الذي حدث لكي تحملي العبء الذي تنوء به الجبال؟ وأين أبوك الذي كنت تتحصنين به ضد المجهول؟ أين الوليد الذي كان يعرف تماماً ما الذي يتحتم عليك أن تفعلينه قبالة الزلازل والأعاصير؟

وحدك في مجابهة الخوف.. والغربة.. والضياع.. وعبد العزيز يستدرجك بقوة شيطانية عاتية لا ترحم ولا تغفر.. إلى الهوة العميقة التي تنفتح اللحظة وتناديك.. تجأرين إلى الله أن يمنحك الرحمة، فلم يعد بوسعك أن تمارسي خيارك.. إنك تحسين بأنك تضيعين وأن ليس ثمة قوة في العالم قادرة على أن تعيدك إلى المكان الذي انزلقت إليه بعيداً عنه..

بعيداً.. بعيداً.. إلاه!

«39»

عبد العزيز

يذوب الفاصل بين الرؤيا والواقع.. يذوب تماماً.. وتتداخل المرئيات.. وتضيع أنت فلا تعرف موقعك في الزمان والمكان.. ولا أين ستصير في جغرافية الليل والنهار ..

دفقات من الجنون تجتاحك فما تلبث أن يهدئها شجن مترع بالحزن ينسرب في الشرايين والعروق.. وأنت تتقلب في دوامة الغضب والرضا.. الثورة والهدوء.. قلق حتى آخر نقطة في شبكة الأعصاب.. راضٍ متوحد كأنك اجتزت المحنة وعبرت إلى الضفة الأخرى، لا ينغصك شيء على الإطلاق.. نفضت يديك من الهاجس الذي عذبك طويلاً.. لكن السكين ما تلبث أن تنغرز في لحمك بين لحظة وأخرى.. تصير الحمى والكابوس.. تصعد وتنزل.. تعلو وتغوص.. تروح وتجيء كالمنشار الذي يأكل اللحم والعظم.. للحظات يغمرك العزاء في أن هدفك لم يكن قتله.. كنت تريد فقط أن تلوي كلماته.. أن ترغمه على الانحناء لأمانيك الضائعة.. ولكن سبقك السيف! أليس كذلك يا سليمان؟

تصرخ وأنت تجتاز الحافات الأولى لاحتفالية مغولية عند مطلع جسر الكرخ في باحة درب دينار الكبير.. والحافة الأخرى لا تكاد ترى.. يبدو أنهم يغطون الرصافة من أقصاها إلى أقصاها.. تصرخ، لعل ثمة من يرد عليك.. ولكنهم لا يفهمون لغتك.. يقولون هم أيضاً أشياء لا

تدركها.. يصرخون هم أيضاً.. تريد أن يلتحم الصراخ.. أن يصير جسراً يوصلك إليهم ويوصلهم إليك فلا تستطيع.. يظل هؤلاء قوم غرباء عنك رغم محاولاتك المستميتة لأن تكون منهم ويكونوا منك.. فيك.. ثمة حاجز يصعب اجتيازه يفصلهم عنك.. تصرخ: لقد قتلته! فلا يسألك أحد.. تنادي أحدهم، بالمفردات المغولية التي بدأت تتعلمها شيئاً فشيئاً.. يلتفت إليك بعينين كالنحاس البارد، لكنهما محمرتان من السكر.. والجنون.. يلتفت إليك دون اكتراث، ثم ما يلبث أن يدير ظهره لكي يواصل رقصته المعربدة مع الآخرين.. إنها ذكرى إعلان الياسا.. قانون القتل المغولي.. وخارطة الإطباق على العالم حتى نهاياته القصية.. كل ما كان يقف بينك وبينهم هو سليمان الذي حرمك من حنان.. وقد أعطيتهم رأسه.. عربوناً لرابطة من نوع غريب يصير فيها المسلم والوثني أخوين تحت سحب الدم والدخان والغبار.. والوليد الذي طرد النوم من عيونهم، أرغمته على الاختفاء.. على الدخول، بدلاً عنهم، في دائرة التوجس والخوف ..

تنظر قدامك وقد بدأت تترنح.. ودوامات الرمل الأسود تتصاعد من خفق نعالهم على الأرض وهم يضربونها بعنف.. أي رقص هذا؟! ها هم قبالتك تماماً، وقد اجتزت الدرب بصعوبة، ينتشرون كالنمل والجراد في ساحات الرصافة.. من حافات المستنصرية المطلة بحزن على نهر دجلة، وحتى باب الطلسم الذي شرع أبوابه لاستقبال المحكوم عليهم

بالإعدام.. مئات الرؤوس المقطوعة تغادره مساء كل يوم وهي تنزف دماً.. تدخل وتخرج وهي تبحث عن أجسادها لكي تستقر عليها فلا تجدها.. والمغول يزدادون جنوناً.. رقصاتهم أصبحت عويلاً ونواحاً.. صراخهم عبر حدوده المعقولة فأصبح ينذر بالويل والثبور.. أي فرح هذا وأي احتفال؟ إنه الخوف.. نفسه الرعب الذي يجتاحهم هم أنفسهم قبل الآخرين.. لكأن كابوس القتل يحيق بهم الآن.. تتوقع في أية

لحظة أن يذبح بعضهم بعضاً، وهم يضربون أرجلهم بالأرض فتخرج نعالهم المتيبسة، وهي تمس تراب بغداد، حلقات من الغبار الأحمر المشبع بالدم والعرق والرائحة المغولية التي تذكر الإنسان بالطاعون!

وفرصتك الأخيرة يا عبد العزيز، وقد خسرت حنان، ومنحتهم سر الوليد، وجئت بهم لكي يقتلوا سليمان عمك.. فرصتك أن تلتحم بهم أخيراً.. ولكن أين الوليد؟ تحاول أن تنساه فلا تستطيع، فتجرفك رغبة عاتية في أن تجده فتنفجر بالبكاء بين يديه.. إنه الوحيد في هذا العالم الذي يمكن أن يخفف حزنك، وأن يعيدك ثانية إلى نفسك ..

في الزمن الصعب.. عصر المستحيل واللا معقول.. يصير لقاء النقيضين الحل الممكن الوحيد.. يصير الداء والدواء.. فمتى أراك لكي أجد فيك نفسي التي تغوص الآن وراء العتمة والمجهول؟!

وتصرخ: لقد ضعت يا عبد العزيز فأين العرفان؟ أين دفق العقل الذي تلقيت سياله المسكر زمن المستنصرية سنة بعد أخرى؟ أين الفلسفة والمنطق والرياضيات والأصول التي يجعل قانونها المدهش الحجر يتكلم، والجماد ينبجس عن الينابيع والأنهار؟ أليس بمقدورها أن تحملك بعيداً عن هذا العذاب كله؟ أما كانت تستطيع أن تهدم الجدار الأخير بينك وبينهم لكي تصير مثلهم.. مثلهم تماماً.. فترتاح؟

فأين القانون الذي يحكم الكون؟ وأين المنطق الذي يعطي الإنسان في لحظات الويل والتعاسة والضياع، كل ما يشتهي، ويدله على الطريق؟

للحظات تخترق ذاكراتك كالسكين كلمات سليمان الذي احتز المغول رقبته قبل ساعات: «الحرف فجّ من فجاج إبليس.. الكذب كله لغة سواي والحق لغتي.. علم يدل علي هو السبيل إلي.. علم لا يدل علي هو الحجاب الفاتن.. تتعلم العلم تباهي به العلماء وتماري السفهاء وتجتاز المجالس وتصيب الدنيا.. النار.. النار..»..

عبث كلها يا عبد العزيز، وأنت كالمسافر المنبت لم يقطع أرضاً ولم يبق ظهراً.. أذهب إليهم فقل لهم أنك قتلته فماذا يريدون بعد؟ قل لهم إنك جعلت الوليد الذي ألقى الرعب في قلوبهم، يختفي فلا يقدر بعدها على أن يلاحقهم في دروب بغداد، فماذا يريدون؟

تجرفك كتلة آدمية وهي تندفع شرقاً عبر درب العميد لكي تلتحم بالاحتفالية الكبرى عند الباب الوسطاني، حيث كان هولاكو قد نصب خيمته.. هكذا يقولون.. تتعثر بأذيالك فتكاد تسقط أرضاً ولكنك تتمالك نفسك وتجد أن منطق الأشياء يحتم عليك أن تندفع معهم في الاتجاه ذاته لكي لا تسقط وتداس بالأقدام.. اندفع يا عبد العزيز وأجعل الباب الوسطاني قبلتك، وخيمة هولاكو هدفك الأخير.. شاركهم الجلبة والضوضاء.. أضرب نعليك على الأرض.. اجعلها تنز رملاً وغباراً.. أركض كما هم يركضون، وأصرخ كما هم يصرخون.. وغنَّ.. ارفع عقيرتك بصوتٍ كصوتهم.. ليس عربياً ولا أعجمياً.. ليس آدمياً ولا

حيوانياً.. صوت مترع بالنشوة، والخوف، والبهجة الوحشية، والجنون.. ها أنت ذا قد خسرت حنان.. والوليد.. معاً.. ها أنت ذا قد نفضت يديك من سليمان.. والمعرفة التي أسكرتك كؤوسها يوماً لم تعد تجدي الآن.. يبدو أنها آثرت الصمت وأنها لم تعد تعد بشيء.. أتراه كان محقاً عندما كان ينهي كل حوار معك بهذه الكلمات: «حسابك غلط والغلط لا يملك به صواب»؟!

ليس ثمة أمامك إلا أن تخف رجليك.. أن تندفع معهم لكي لا يطووك.. أن تهرع إلى حيث يهرعون.. الباب الوسطاني قبلتك، وخيمة هولاكو هي نهاية العالم حيث ستكتب لك الحياة.. ومن يدري فلعل هولاكو نفسه يكتشفك يا عبد العزيز كما اكتشف نصير الدين من قبل فيجعل منك شئياً.. لا يمكن أن تخسر مرتين فتضيع إلى الأبد.. العاقل من تعلم من خسارته الأولى.. بعدها، وبقليل من الذكاء، يمكن أن يربح

الصفقة.. وأن يفتح منخريه جيداً، كما تفعل الكلاب البرية المدربة، على مكمن الريح.. الجهة التي ستهب منها.. فتندفع في الاتجاه ذاته، وتجد نفسها، بسرعة يصعب تصديقها، في الأماكن القاصية التي ما كان بمقدورها أن تصل إليها ..

صراخهم يزداد كثافة وعلواً.. شيئاً فشيئاً يتحول إلى عواءٍ كعواء الذئاب، كلما انحدرت الشمس غرباً وأقبلت ظلمات الليل الأولى فيما وراء الأسوار الشرقية.. تكشف الصراخ كما لو كان سكيناً حادة، متوحدة، يتمركز في معدنها اللامع الصقيل نصل ينز رعباً وهلعاً.. وانك خائف يا عبد العزيز.. اعترف بهذا، وليس ثمة سوى أن تندمج فيهم، أن تصير واحداً منهم، وأن تعوي كالذئب الضاري لكي ترهب فلا ترهب، وتواصل القتل فلا يقدر أحد على أن يصل إليك.. احتم من القتل بالقتل يا عبد العزيز ..

مستعيناً بحاجز اللغة الذي يخفيك عنهم تصرخ: هل من بغدادي واحد هناك فأتحدث إليه؟ لا يرد عليك أحد.. ترفع النداء كرة أخرى ملتاعاً هذه المرة.. وحيداً كما لم تكن من قبل.. عارياً قبالة هيولى أصم يتنزل على سماء بغداد من كل مكان.. لا يملك طعماً ولا رائحة ولا لوناً.. يرشقك بالرماد فيزيدك تعاسة واكتئاباً.. وتنادي: هل من بغدادي واحد فأتحدث إليه؟

بالأمس كانوا ها هنا بالمئات والألوف، تخفق نعالهم على أديم الرصافة وهم يروحون إلى أعمالهم في دروب دينار والعميد والخبازين والملاحين.. في أسواق الريحانيين والثلاثاء والسلطان.. في أحياء الرحبة والمقتدرية والبدرية والجعفرية.. تقسم بالله أنك كنت تراهم كل يوم.. ليست مجرد ذكرى ولا هاجساً ولا حلماً.. لقد كانوا هنا، كما أنت نفسك اللحظة هنا، فأين ذهبوا؟

القرف والاشمئزاز والملل والدوار تحاصرك.. كلما أوغلت في

حلقات الكتل المغولية التي تحتفل بقانونها المطبق على عنق بغداد، ازداد وجع الحصار.. إنه يضغط حتى على جسدك ويضعك في دائرة الغثيان، فتتمنى لو تتقيأ.. لو تنفض هذا النسغ الغريب في شرايينك لعلك تستعيد توازنك المفقود ..

وبعد سهر ثلاث ليالٍ كان عليك أن تتخذ فيها القرار.. بعد الأرق والعذاب والملاحقة والقتل.. حيث صرت ـ أخيراً ـ سكيناً يطعن بها المغول من تحب ومن تكره.. الآن يطبق عليك الفراغ ويتناوشك الذهول.. تصير ريشة تعبث بها ريح مجنونة لا تدري من أين هبت ولا إلى أين هي ذاهبة بك ..

موجات المغول تتقاذفك، فتدفعك إلى اليمين حيناً وإلى الشمال أحياناً.. لا تستطيع أن تقف.. تتباطأ.. تعيد النظر ـ ولو للحظات ـ فيما أنت تريد الذهاب إليه على وجه

التحديد.. الفراغ والذهول وأنت تجتاز الجموع.. جاحظ العينين.. خالي الوفاض من كل شيء اللهم إلا الفراغ والذهول.. فيما مضى ما كنت تخاف شيئاً كالفراغ والذهول.. وها هما الآن يلاحقانك باللعنة والويل، ويضعانك على حافة عالم رمادي تصير فيه الحياة البشرية أكثر تفاهة وتسطحاً ورخصاً من حياة الجرذان والصراصير والديدان.

مع ذلك فإن عليك أن تمضي في الشوط حتى نهايته.. أن تحمل صراخهم الذي يخترق طبلة أذنيك، وأن تتلقى رائحة العرق المكثف الذي يزيده سعار الرقص المجنون حدة

ونفاذاً ..

تنظر إلى أحدهم كالمتوسّل فلا يعيرك انتباهاً.. تحدق في الآخر كالمجذوب فلا يكترث بك.. تضع يدك برفق على كتف ثالث فلا يحس بك.. ولكنه قدرك يا عبد العزيز، فليس ثمة إلا أن تكون فيهم.. متشبثاً بالخيط الوحيد الباقي وإلا أصبحت معلقاً من رقبتك في الفضاء المخيف، محكوماً عليك بعزلة باردة كالجليد لا يحتملها جسد إنسان ..

أوغلت في مقابر السهروردي شيئاً فشيئاً.. الباب الوسطاني أصبح قاب قوسين أو

أدنى.. خيمة هولاكو هناك.. هكذا يقولون.. تقطع المسافات بصعوبة بالغة.. من لك باختراق كتل المحتفلين وهي تزداد كثافة وجنوناً والتحاماً؟

قبل أن تتضح قبالتك حافات الباب العليا.. والبرج العالي المحزم بالزخارف

والخطوط، أطبقت عليك حلقات الراقصين.. شيئاً فشيئاً بدأت تدرك الا طاقة لك باقتحامها.. هدفك أصبح صعباً.. غدا مستحيلاً.. غاب تماماً عن العيان.. ما لم تقنع هؤلاء بأن يفتحوا لك ممراً إلى الخيمة الكبرى لن يكون بمقدورك أن تمضي خطوة واحدة أخرى حتى لو بقيت تنتظر ألف سنة أو تزيد ..

في لحظة حماس مفاجئ.. حالة من النشوة المنسربة من وراء دنيا المعقول.. معجونة بالعشق واللا اكتراث والدجنة والجنون.. اندفعت لكي تشاركهم الاحتفال.. ولم لا؟ ألم تصر منهم؟ ما الذي يشدك إلى الآخرين وقد قطعت الخيط الأخير بينك وبينهم؟ أدخل

يا عبد العزيز تلك الحلقة المغولية القريبة منك، وأرقص، وغن، وأصرخ.. وأضرب نعليك في الأرض وأجعل ترابها يتمرد على جغرافية المكان لكي يتقافز فرحاً ويرقص هو الآخر في الفضاء.. إنه يوم (الياسا).. القانون الذي سيصير نظام العالم.. تماماً كما أراد له هولاكو أن يكون.

اخترقت الحلقة، وبعنف فككت ما بين المغولي والمغولي، صرت بين اثنين منهم.. بينهما تماماً.. وقبل أن يعترضا عليك بعيونهما الضيقة كما لو كانت شقوقاً في الصخر الصلب.. وضعتهما إزاء الأمر الواقع.. أمسكت يمينك بيد أحدهما ويسراك يد الآخر، وصرخت

باللهجة المغولية التي تعلمت بعض مفرداتها مذ صرت ناظراً للمستنصرية:

ـ يحيا هولاكو!

فلم يرد عليك أحد.. لكنك أعدت الكرة.. ضربت الأرض بنعليك، وارتفعت قليلاً في الهواء وصرخت كرة أخرى أكثر امتداداً هذه المرة.. أردتها أن تدوّم فوق رؤوسهم جميعاً وأن تشد أنظارهم إليك:

ـ يحيا هولاكو العظيم ..

ولدهشتك سمعتهم يردون على الهتاف بمثله.. وكالهشيم المتيبس الذي تمسه النار اشتعلت قبالتك آلاف الحناجر وهي تصرخ منتشية إلى حد الوجد:

ـ يحيا هولاكو

وتقول في نفسك منتشياً حتى آخر نقطة في جسدك: ها أنت ذا أخيراً تنتمي للنظام الكوني الجديد، مشدوداً للحلقة التي تدور بك حول نفسها، إلى جوار ألوف الحلقات التي تدور على نفسها هي الأخرى.. لا يند أحد عن أحد ولا يغادر موقعه على هواه.. يسوقها جميعاً قانون جبري يرغمها على أن تخضع لمنطقه الصارم الذي لا يسمح بالتردد أو الانفلات.. ألم تكن يوماً تعشق الهيئة وتتمنى لو كنت هناك تدور، متأبداً في مجرى الكواكب والنجوم؟

تنسى إعياءك.. تنسى الإحساس بالقرف والاشمئزاز.. تغادر دائرة الخوف والحزن والعذاب التي تحاصرك، وتندمج في دوار الدوامات التي تلف الرصافة من أقصاها إلى أقصاها.. واحداً منهم تماماً.. ليس ثمة هذه المرة ما يفصلك عنهم.. والهدف هولاكو العظيم الذي تشخص إليه آلاف العيون المحفورة في الوجوه النحاسية كما لو كان قطباً تدور حوله الأفلاك.. وتصرخ:

ـ الياسا.. قانون العالم الجديد الذي سيضع الأشياء في أماكنها ..

تمضي ساعات الليل الأولى.. وشيئاً فشيئاً يكف الإيقاع عن خفقانه المجنون.. يتباطأ الدوار المسعور.. ترتخي قبضات الأيدي المشدودة.. وما تلبث أن تجد نفسك وحيداً قبالة الطريق المفتوح.. تمضي مشرّقاً وسط العتمة التي تزداد اسودادا كلما ازددت ايغالاً.. مأسوراً بالرؤيا التي تنسرب في جسدك بخدر لذيذ.. مأخوذاً بالحلم الذي رقصت من أجله الساعات الطوال.

تخف قدميك.. تهرع.. تركض.. حتى تكاد أنفاسك تنقطع.. مقترباً أكثر فأكثر من الباب الوسطاني.. فلو أنك قدرت على اجتيازه فإنك ستجد نفسك قبالة الخيمة الكبرى.. هولاكو العظيم.. والوعد الذي سيحملك إلى مراغة.. ونصير الدين.. حيث ستجد نفسك في المكان الذي تستحقه من دائرة العرفان.. لقد تعبت كثيراً يا عبد العزيز، وقدمت كثيراً.. وآن لك أن تقبض الثمن الذي تستحق ..

موغلاً أكثر في وحشة الليل.. مندفعاً في المسافات لا تلوي على شيء.. تنتابك على حين غفلة رعدة ما ذقت طعمها في يوم من الأيام ..

وأنت تندفع وحيداً في عراء لا نهائي مترع بالظلمة والخوف، تصرخ متلفتاً بوجل ذات اليمين وذات الشمال:

ـ أين ذهب المغول الذين كانوا قبل لحظات يخفقون في عرام الرقص ويجأرون بالغناء المحموم؟ وأين الباب الوسطاني؟ والخيمة الكبرى؟! أين هولاكو؟

يحاصرك الخوف والوحدة.. أكثر فأكثر.. يحاصرانك حتى النخاع.. فما من جارحة فيك إلا وهي تختلج كما لو أصابتها الحمى، فتهمس بعد إذ بح صوتك وفقدت القدرة على الصراخ، متذكراً، بصعوبة، الوعد الذي عشقته منذ زمن بعيد:

ـ ها أنا ذا أهرع إليك يا نصير الدين فهل ستأخذ بيدي؟!

«40»

سليمان

تنتابك الرعدة إياها وأنت توشك على إنهاء صلاة العصر.. لم يعد ميسوراً أداؤها في الجوامع البعيدة والقريبة.. المغول يحكمون قبضتهم على الخلائق والأحياء فيرغمونك على أن تقطع الخيوط التي تشدك إلى إخوانك.. أن تصلي معهم لكي تبدأ رحلة الصعود إلى المراقي.. مع ذلك فإن شحنة الوجد المختزنة في الأعماق تملك القدرة على أن تطير بك في السماوات وأنت مهيض الجناح.. يزيدها الحزن التياعاً فتطلب القرب من المحبوب حيث لا خوف ولا حزن.. وأنت تردد: «من عرفني فلا عيش له إلا في معرفتي».. يا حي.. يا قيوم.. يا هو.. وتجد نفسك كمن يتأهب للقفز في المجهول.. ألف ذراع تمتد إليك من فوق لكي تنتشلك من وهدة الدنيا وهمومها وضيقها.. السماوات الرحبة.. الشمس التي لا تغيب.. الفرح الذي يصعب وصفه.. والأنوار التي تغشى العين فلا تدري ما هي ..

أية رحلة هذه في دنيا لا تملك أن تعدك بشيء؟ عالم يتيبس كشجرة مجتثة من الأرض.. تجرح أصواته الحادة القاسية الحس والروح؟

أية رحلة تمضي بك إلى البوابات البعيدة في العمق الكوني فتطرقها بلهفة صارخاً: افتحي.. يهزك الحنين كريشة في دوامة ريح عاتية.. وتصرخ: افتحي.. فتستجيب للنداء الممحّض بالشوق والمحبة..

وتدخل عائماً في الوجد متطهراً بالعشق، صائحاً: «يا هو لا تجعلني رسولك إلى شيء فيكون الشيء هو الرب وتكتبني من المستهزئين بك على علم ..

يا حي.. كل شيء لك فلن أنازعك مالك!» . .

تعكر صفوك طرقات عنيفة على الباب.. ليس الوليد بكل تأكيد.. ما هكذا يدق الباب.. في أشد الساعات هولاً ما كان يدق هكذا الباب.. إنه يعرف كيف يتحمل الرعب وحده فيحاصره.. يشكمه ولا يسمح له بالتسرب إلى مفاصل الآخرين.. لقد تمرس هذا الرجل طويلاً على مداورة المخاطر والمخاوف والملاحقات الصعبة.. فما هكذا يدق الباب.

يزداد الضرب عنفاً وتهرع زوجك التي شاخت على حين غفلة، فكانها اجتازت في أيام قلائل عشرات السنين:

ـ من؟

تصرخ في نبرة يمتزج فيها الرعب بالرجاء.. تحاول، المسكينة، أن تختبئ في تلافيف الصراخ فيما تظنه هولاً نازلاً على بعد خطوات.. تناديها:

ـ هوني عليك، فسأفتح أنا ..

تجيء حنان مهرولة هي الأخرى:

ـ ماذا يا أبتاه؟

ـ لا شيء.. ثمة من يطرق الباب ..

ـ أتأذن لي؟

قبل أن تجيبها يتلقى الباب الموصد زخة أخرى من الضربات.. أشد عتواً هذه المرة، فيئن متوجعاً حتى ليخيل إليك أنه يتداعى ..

ـ سأفتحه أنا

لحظات، وتجد نفسك قبالة ثلة من المغول.. السيوف مشهرة..

والعيون النحاسية التي لا تكاد تفصح عن شيء، تقذف ناراً ..

تقول في نفسك: هذه ليست أول مرة.. وتلتفت إلى النسوة مشيراً عليهن أن يتركن الفناء.. تريد أن تقول شيئاً في مواجهة الشفرات المتشهية، والنحاس الذي يسيل ناراً.. ثم ما تلبث أن تلتزم الصمت.. ما الذي يمكن أن تقوله لهم وهم لا يعرفون لغتك ولا أنت تعرف لغتهم؟! تحرك كفك بهدوء كمن يتساءل عن الأسباب، فينظر بعضهم إلى بعض ثم ما يلبثون أن يجتازوا عتبة الدار إلى الفناء.. تخلي أمامهم الطريق، وقلبك يدق هلعاً وحزناً.. لو لم تكن بمعيتك الزوجة والابنة لهان كل شيء.. لو كان الوليد هنا، لكان يمكن أن يكون الحال غير الحال ..

متشبثاً بمحاولة أخرى لاختراق الصمت القاسي.. بحركة من كفك.. ولكنهم لا يتلقون الإشارة، ولا يدركون ما الذي تريد أن تقول.. يوغلون أكثر في فناء الدار وعيونهم تدور ذات اليمين وذات الشمال كما لو كانوا يبحثون عن شيء ما ..

تنسى للحظات حاجز اللغة فتقول لهم:

- ها أنا ذا أمامكم فما الذي تريدون؟

فجأة، فيما يستعصي على التصديق، تلمح عبد العزيز يجتاز الباب المفتوح، مندفعاً بسرعة إلى عمق الفناء.. تنظر إليه مستغيثاً فلا يلتفت إليك.. شيئاً فشيئاً تذوب دوامة الضباب التي وضعت بينك وبينه فاصلاً فيبدو أكثر وضوحاً.. معالم وجهه لا تنبئ عن أيما قدر من الرغبة في التعاطف معك.. في الوقوف ولو للحظات قبالة السيوف التي تنز اشتهاء.. تنتظر الإشارة لكي تبدأ عشاءها الوحشي ..

- عبد العزيز ..

تقول له متوسلاً ..

لا يرد عليك.. تمضي متجاهلاً صمته المريب:

- سلهم ما الذي جاء بهم وماذا يريدون؟

بصوت متيبس، يحاول صاحبه أن ينفصل عن كل ما يشده إلى الآخرين.. عن كل ما يقيم بينه وبين الماضي وشيجة ما من أي نوع على الإطلاق.. ينفصل تماماً فيصير شيئاً آخر كأن لا علاقة له حتى بصاحبه عبد العزيز:

ـ جئت لآخذ حنان!

تحاول أن تصرخ فتتذكر النساء في الغرفة اليمنى، والشفرات التي تتحفز للعشاء الموعود، فتشكم الصرخة قبل أن تغادر مواقعها في أوتار الحنجرة التي ازدادت تيبساً:

ـ ولكن هؤلاء؟!

يرد عبد العزيز بصوت كنذير السوء، رغم محاولة مجهدة من صاحبه أن يكون أكثر حياداً:

ـ ليس ثمة طريق آخر ..

تقول له برجاء، في محاولة لإنهاء فك الارتباط بين الصوت والإنسان:

ـ ولكن هؤلاء؟!

ـ انتظرت أكثر مما يجب، وأعطيتكم الفرصة، ولكنكم عبثتم بي.. والرجل عند كلمته أيها الشيخ! الرجل هو الكلمة نفسها، تلك هي تعاليمك ..

تبتلع ريقك بصعوبة.. لا تكاد تصدق أنك قبالة صهرك الموعود.. إذن فقد جاء بهم لكي يضعك على حد السيف وينهي خيارك!

ولدهشتك تلمحه يتحدث إليهم بالمغولية.. وتتذكر للحظات الهاجس الذي أخذ يلح عليك عبر الأيام الأخيرة.. ها هو ذا إذن يتشكل قبالتك.. قبالتك تماماً.. ضارباً كل مرتكزات المعقول.. ملاحقاً إياها في كل شبر وزاوية لكي لا يتبقى في الساحة سوى الجنون ..

والعبث.. واللا معقول ..

قبل ان تحاول معه كرة أخرى.. يمضي بالعنف المخيف نفسه صوب الحافات
المضادة.. إلى قعر الأشياء.. متناقضاً مع كل الأعراف التي تمرست عليها إنسانية
الإنسان ..

لم تصدق أن عبد العزيز الذي أوغل في شرايين العقل حتى آخر شعيرة فيها، واجتاز حقول العرفان التي انطوى عليها العلم البشري كله.. لم تصدق أنه يمكن أن ينقلب على هذا كله باتجاه مغاير تماماً.. اتجاه ينسلخ فيه تماماً عن كل ما تعلمه عبر عشرات السنين ..

وما تلبث أن تتذكر أن هذا ممكن.. ممكن تماماً.. فإن جموح العقل الذي لا يستهدي بالروح، يمكن أن يلف بصاحبه، من حيث لا يريد، ويعيده كرة أخرى إلى نقطة الصفر.. إلى ما دونها بكثير.. هنالك حيث تصير كل معطيات العقل ومواضعاته.. حطاماً.. وتتذكر تعاليم شيخك: «إذا جاء القلم ليقول لك اتبعني فأنا عندي العلم، واسمع مني فأنا الذي أسطر الأسرار، وسلم إلي فلن تجاوزني ولن تدركني، فقل له: عني يا قلم، أبداني من أبداك، وأجراني من أجراك، وخلقني من خلقك، وأنا منه أسمع لامنك، وله أسلم لا لك.. إن سمعت منك ظفرت بالحجاب، وإن سلمت لك ظفرت بالعجز، وان تبعتك وقعت في الحدود وتفرقت في الجهات.. لا تجعل بيني وبينك اسماً ولا علماً ولا معرفة، ففي حضرتي لا يستطيعك شيء لأن معك سلطاني وقوتي.. اخرج من علمك وعملك ومعرفتك وصفتك واسمك، ومن كل ما بدا، لتلقني وحدك» .

رغم ذلك كله تتشبث بالمجهول.. فمن يدري؟ لعله يؤوب إلى نفسه، ولو للحظات، وحينذاك ستعرف كيف تعيده إلى الطريق ..

يتحدث إليهم تارة أخرى، وتسمع أحدهم يتساءل بلهجة مكسرة:

ـ الوليد؟

تجفل بعض الشيء.. وخزة من نوع غريب تجتاز قلبك من الطول إلى الطول ثم ما تلبث أن تختفي، لكن دقات القلب تزداد ارتفاعاً، ووجعه أصبح لا يطاق، فتقول بصوت مبحوح، محاولاً أن يكون خطاباً مكتوماً بينك وبينه، وألا يسمعه المغول:

ـ أخشى أن تكون قد فعلتها يا عبد العزيز؟!

في طبقة ما من نفسك تنقدح شرارة حمراء بلون الدم تضيء للحظات ما كنت تخشاه، فيتجسد قبالتك كرة أخرى الهاجس الذي عذبك طويلاً.. أن يعقد معهم الصفقة الشيطانية الغادرة.. أن يدل على الوليد، فيتقرب إليهم أكثر، ويحظى بابنتك!

إنك تعرفه جيداً.. يدرك تماماً كيف يجمع ويطرح.. كيف ينتزع بحركة واحدة مكاسب شتى، دونما أي اكتراث بالضوابط والمعايير التي تشكم المصالح والأهواء.. وها هو ذا خوفك يصبح مزدوجاً.. حنان على بعد خطوات.. والوليد قد يدلف إلى البيت في أية

لحظة.. وقبالتهما تماماً، تتحفز شفرات السيوف المغولية للعشاء الوحشي الذي انتظرته طويلاً ..

ـ دعنا نتفاهم يا عبد العزيز

لم يرد عليك ..

ـ لم يضع كل شيء بعد.. فقط أن تبعد هؤلاء!

ومرة أخرى، وبالصوت المنسلخ عن جلد صاحبه.. أكثر تنائياً وانفعالاً هذه المرة:

ـ جئت لآخذ حنان.. إنها خطيبتي والرجل عند كلمته ..

قبل أن تجيبه قال:

ـ لا ريب أنك عرفت ما الذي جاء بهؤلاء ..

تجاهلت سؤاله وقلت له:

ـ ماذا؟

ـ لقد انكشف الوليد.. ثمة من دلهم عليه بكل تأكيد.. لا يمكن لتهوره أن يستمر إلى ما لا نهاية.. كنت أعرف هذا تماماً، وقد حذرته أكثر من مرة ولكنه لم يلتفت إلي ..

وبغضب حاول أن يحبسه صاكاً على أسنانه:

ـ لقد تجاهلتني وإياه تماماً.. أصبحت إزاءكما كالمنبوذ.. ولم يكن ذنبي سوى أنني استجبت لنداء العقل! بينما مضى الوليد وراء إغراء التهور والجنون، وكان يجد في صمتك تشجيعاً فيندفع أكثر في مواجهة سلطة تحكم قبضتها على بغداد.. والعالم كله! لقد كان يجابه المستحيل.. وعليه أن يتحمل وحده مسؤوليته إزاء خياره الطائش هذا ..

لم تصدق أذنيك.. هكذا خيل إليك.. لكنك تظل في موقع ما من وجدانك ترى كما لو أن الوقائع تتشكل وتلتمع مغسولة تماماً، لا يحيطها غبش أو ضباب.. عبد العزيز جاء بهم لتنفيذ الصفقة الملعونة، والثأر لما تصوره جرحاً لكرامته ..

من بعيد.. كما لو أن الفاصل عشرات الفراسخ وليس أشباراً من الفناء، تستمع إلى حنان تتوسل بأمها أن تسمح لها بالخروج لكي تتحدث إلى عبد العزيز ..

تصرخ:

ـ كلا ..

وتسمعها تقول:

ـ إني خائفة يا أماه ..

فتصرخ:

ـ كلا

يستفز عبد العزيز.. يحاول أن يصرخ هو الآخر ولكنه يكتم صرخته:

ـ لست نذلاً إلى هذا الحد!

ـ ولكنك جئت بهم ..

ـ لاسترد حقي المشروع، ليس إلا
ـ ما بهؤلاء الملعونين تسترد الحقوق ..
ـ لقد انتظرت أكثر مما يجب ..
قبل أن تجيبه، يقول بنفاد صبر:
ـ كل شيء وله نهاية
تهب عليك للمرة العاشرة رائحة غدر من نوع ما:
ـ خمنت هذا منذ زمن بعيد
ـ ليس كما تتصور.. إنما جئت لكي آخذ خطيبتي ..
يرفع صوته، لعله يريد أن يسمعها:
ـ أليست هي حقي المشروع؟
ـ ولكنها ليست شيئاً يؤخذ أو يسترد.. ليست متاعاً تضعه في جيبك وتذهب به إلى المكان الذي تريد.. إنها امرأة يا عبد العزيز.. كائن مثلي ومثلك!
ـ لا أظنني بحاجة إلى أن تذكرني بهذا ..
قبل أن ترد عليه يقول:
ـ لقد شبعت من تعاليمك.. كانت في وقت ما تحذرني.. تمنحني القدرة على
الانتظار.. تغريني به.. أما الآن!
وفي الطرف الآخر من الفناء تلمح ابنتك وهي تهم بمغادرة الغرفة قائلة لأمها:
ـ لحظات.. فربما كنت أكثر قدرة على إقناعه
تصرخ:
ـ ارجعي ..
تتردد حنان قليلاً.. تتناوشها الحيرة فتتسمر في مكانها ..
ـ ألا ترين.. لن أسمح لمغولي أن يمسك أو يراك ..
ـ هل هي كلمتك الأخيرة يا عماه؟

ـ لست عمك.. لقد بعت كل شيء يا عبد العزيز.. وها أنت ذا تريد أن تبيعني لأولئك الذين ذبحوا أهلينا ..

يائساً، يملؤه الغيظ والقهر، يهم بمغادرة الدار.. تسأله قبل أن يمضي إلى الباب:

ـ وهؤلاء؟

لأول مرة تتلقى منه نظرة مترعة بالحقد والبغضاء.. يقول بصوت متيبس:

ـ لا علاقة لي بهم ..

ثم، بعد أن يبتلع ريقه:

ـ لم أكن أنا الذي جئت بهم، فلست مسؤولاً عنهم ..

تدرك أبعاد اللعبة.. أكثر.. تتكشف أمامك ملتمعة، واضحة، مغسولة تماماً من العتمة والغموض والضباب ..

ـ ولكنك دليتهم على الدار ..

يظل ميمماً ظهره إليك.. فلم يرد ..

ـ لم تكن حنان وحدها هدفك.. لقد كنت تريد الوليد، مهراً تقدم رأسه للشحنة.. عربوناً تتوّج به خدماتك للمغول.. لقد أردت أن تضرب عصفورين بحجر واحد ..

يقول، وكأن صوته قادم من عالم آخر:

ـ لو أردت رأسه لحصلت عليه منذ زمن بعيد ..

تصرخ مغتاظاً:

ـ كذبت.. فأخرج عليك لعنتي ..

يصفق الباب الخشبي وراءه بعنف، فتئن ألواحه.. وللحظات تتذكر، وقد اجتزت كل حواجز الخوف والتشبث.. كل الهواجس والتوقعات.. أن هناك على بعد خطوات منك ثلة من القتلة لا تزال سيوفها وخناجرها تنز اشتهاء ..

تتقدم إليهم، مشيراً بإصبعك إلى الباب:

ـ أخرجوا!

من بعيد تتوسل إليك حنان:

ـ لا تستفزهم يا أبتاه.. حاول أن تدفعهم بالتي هي أحسن ..

تقول، ولا تزال إصبعك تشير نحو الباب المسدود:

ـ سيان يا حنان ..

أما هم، فيبدو أنهم ما سمعوك.. ترفع صوتك أكثر في محاولة لاختراق سمعهم المسدود:

ـ أخرجوا ..

ينظر بعضهم إلى بعض بعيون كالنحاس لا تحمل من الآدمية إلا موقعها في الوجه.. عيون لا تكاد تقول شيئاً أو تنبس بشيء.. لأول مرة حاولت أن تحصيهم عدداً.. سبعة أو ثمانية.. كانوا ..

أحدهم أشار بإصبعه فتقدموا نحوك.. وتصرخ حنان:

ـ أبتاه ..

ومن ورائها الأم التي لا يقوى صوتها على اختراق المسافة فيضيع في طريقه إليك.. ولكن نشيجها المحتبس يصلك.. وتريد أن تقول لها شيئاً ما.. تطمئنها.. ولكن دون جدوى..

الكلاب المغولية تضيق الخناق عليك.. تزحف بهدوء دونما أية جلبة أو ضوضاء، لكي تطبق عليك.. وتلمح أحدهم وهو يشير إلى رقبته بحافة كفه.. إنه الذبح.. يريد أن يقول.. وتقول في نفسك: شيخك قاسى الأهوال في بدايته فما ترك هولاً إلا ركبه.. فلم تخف ولم تحزن؟ ؟ وشيئاً فشيئاً رحت تنفصل عن المشهد الذي يتجمد قبالتك تماماً.. تعلو عليه، سابحاً في هيولي من الوجد والنور.. متجاوزاً كل المخاوف والأحزان.. منشقاً عن كل ما يمت إلى العالم والحياة بأيما صلة من أي نوع كانت، مصعداً بقوة لا راد لها إلى فوق.. تترنم بكلمات المريدين «استيقظ وأنت تراني.. أحشرك وأنت تراني.. بيتك مني في الآخرة كقلبك مني في الدنيا» . فما تلبث أن تتلقى النداء: «يا عبد! ميعاد ما

بينك وبين أهل الدنيا أن تزول الدنيا فترى أين أنت وأين أهل الدنيا!» ..

تحس مساً بارداً كالثلج يمر على وريدك فيقطعه من الطول إلى الطول، وأنت تقول منتشياً: «الموت يوم العرس، يوم الإنس، يوم الخلود».. لا تجد لمسّه ألماً.. لا تجد أيضاً أي دافع للمقاومة.. لوقف السكين التي تذبحك.. كنت قد فقدت اللغة التي تصلك بعالم الوقائع المنظورة، والأشياء المتحددة بالطول والعرض، وتلقيت تعاليم العارفين لغة أخرى أكثر شفافية وصفاء.. قلبك يرى الأبد وعينك ترى المواقيت.. كنت سعيداً، متخففاً، طليقاً من الأسر الذي يجتاز ذاكرتك الآن كما لو أنه لحظة أو جزء من لحظة ..

وأنت تصعّد في السماوات.. تعبر الآفاق النائية، واحداً بعد الآخر.. ملتاعاً مشتاقاً للوصول إلى البوابة الكبرى، متلهفاً لأن تفتح لك.. تصرخ:

يا الله ..

تتأرجح الصرخة في الفضاء.. تتماوج.. مصعدة هي الأخرى إلى هناك.. تسمع صداها عند حافات الملكوت كما لو كانت تنطلق من آلاف الحناجر.. فيجيئك الوعد من مكان بعيد: «أنا خير لك من كل شيء!» ..

البوابة الكبرى تلوح لك في الأقاصي.. تعوم إليها في بحر من الأشواق.. في هيولى تتداخل ألوانه الباهرة التي ما رأيت مثلها في الدنيا.. وتنادي والوجد يتقاذفك: «زج بي في الأنوار!» ..

فلو أنه قدّر لها أن تفتح.. لو أنك قدرت على اجتيازها إلى الملكوت لرأيت هناك شيخك في الانتظار ..

حينذاك ستجد اليد التي تأخذك بحنان إلى الحي القيوم.. تطهرك من رذاذ الحزن المترسب في روحك على الأهل والولد.. وكل الذين احتزت رؤوسهم سيوف المغول.. في بغداد.

عماد الدين خليل

السيف والكلمة

عن عراق الورّاقين ومدارس العلم، عن عراق المستنصريّة وشيوخ العلم والطلاب الشغوفين في سبر العالم وما خلفه، عن عراق مولانا عبد القادر الجيلاني وشيوخ التصوف، من خلال العراق الذي يغزوه هولاكو قاتلاً مدمراً صرح الحضارة والعلم، نرى ملامح عراق اليوم الذي يتعرّض للمحنة مرة أخرى.

بهذه الروح يكتب عماد الدين خليل هذه الرواية، التي في كل أجوائها تستمد من التاريخ ما يعين على قراءة حال العراق اليوم، الذي يتعرّض مرة أخرى للغزو، ولحرب فتنة تهدد بأبشع الخراب.


ISBN 9953-68-184-8
9789953681849


المركز الثقافي العربي
ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب
www.ccaedition.com